حيطان الريح

روايـــــة

obeikandl.com

حيطان الريح

رواية

obeikandl.com

obeikandl.com

الكتاب : حيطان الريح
روايـــــة

الكاتب : إبراهيم الناصر الحميدان

الناشر : مركز الحضارة العربيـــة

الطبعة العربية الأولى : القاهرة ٢٠٠٤

رقـــم الإيـــداع : ٢٠٠٣/٢٧١٤
الترقيم الدولى : I.S.B.N.977-291-538-3

الغـلاف
لوحة الغلاف:
تصميم وجرافيك : ناهد عبد الفتاح

الجمع والصف الالكترونى :
وحدة الكمبيوتر بالمركز
تنفيـــذ : عـــاطف فـــــوزى
تصحيـــح : زكـريـــا منتصر

الطباعة: دار الفنون للطباعة
ت: ٣٢٩٨٢٤٣

obeikandl.com

القسم الأول

حيطان الريح

obeikandl.com

(1)

رنّت شهقة قصيرة فضجت في أركان المقصورة المحلقة في أجواء الفضاء، إذ كيف يفترق أصدقاء لعدة سنوات ثم يلتقون في محيط مقصورة تمخر عباب الأفق في رحلة إلى أقصى آسيا؟

كان جابر النعيس زميلاً لي في العمل لفترة طويلة من الزمن في شركة استثمارية حتى بلغ سنه التقاعدية؛ فاختفى عن محيط العمل ثم انقطع حتى عن زيارتنا، ونحن انشغلنا عنه أيضًا فنسينا كزملاء متابعة أحواله، وهذا أسوأ ما يحدث في حياتنا الجديدة، إذ بمجرد أن تفتر أو تنتهي علاقتك مع فرد من الناس يبتعد عن تفكيرك أو يسقط في بحر الظلمات فلا تذكره إلا حين تلتقيه فجأة أمامك في عرس أو تعزية أو تقرأ نعيه في الصحف ! إذا كانت له أسرة ترغب التعريف بمكانتها عن طريقه.

سألته بفرح: أمسافر أيضًا إلى الفلبين؟

فأومأ برأسه.

– أضفت: رحلة عمل أم سياحة؟ فرفع إصبعيه مبتسمًا.. قلت في نفسي إنه حريص حتى في عدم إتعاب لسانه بالحديث فكيف سأقضي الوقت معه. ورغم ذلك واصلت سؤاله:

– وكيف أمضيت الأعوام الماضية .. في الفراغ أم العمل؟ وهنا رفع صوته ليقول:

– إنها قصة طويلة سوف تسمعها كاملة حين نصل إلى نهاية الرحلة فلا تستعجل .

ابتسمت له وأنا أربت على كتفه ثم أخذت أحملق من النافذة وأنا أسرح في هذه العوالم السرمدية، وأتشاغل أحيانًا بقراءة بعض الصحف

حتى وصلنا إلى مطار مانيلا ومنه ركبنا عربة أقلتنا إلى أحد الفنادق المشهورة بل وحجزنا غرفتين متلاصقتين في ذلك الفندق.

قال بعد أن استقر بنا المقام:

- ألا ترغب في سماع الأحداث التي مرت بي عقب تقاعدي ؟

أجبته:

-بل إنني متشوق لمعرفة تجربتك لاسيما وأنت كما يبدو في حالة معنوية عالية.

فعلق: إنها الشيء الوحيد الذي تبقى لي بعد أن فقدت المال والأصحاب وحتى.. الكرامة. وأجهش بصورة مفاجئة بالبكاء.. فصعقت من تغير حاله بهذه السرعة.. فتركته يفرغ بعض أحزانه حتى احمرّت عيناه ثم قلت مواسيًا بعد أن هدأ انفعاله قليلاً:

- مادمتَ أنت بصحة جيدة فكل شيء يمكن تعويضه.

فمد يده إلى كأسه وأفرغ سائله الذهبي في جوفه دفعة واحدة ليعلق:

- اغفر لي يا عمر هذا التغيير الذي طرأ على سلوكي، وأرجو أن تلتمس لي العذر.. فلقد شاءت إرادة الله أن تكون رحلتي الأولى عقب تقاعدي إلى بلد أحبه كثيرًا من بعيد فأردت أن أقضي في بلاد النيل إجازة طويلة تنسيني متاعب السنوات الطويلة من العمل، وكان رفيقي في هذه الرحلة صديق قديم لي لا تعرفه يدعى فهاد؛ فنصحني بأن نقضي سهرتنا في الفندق الذي أقمت به، فجلسنا على طاولة قريبة من صحن القاعة المتوسطة التي يتراقص عليها بعض الشبان من الجنسين على أنغام الموسيقى الغربية. كنا نتابع المشهد أمامنا ونحن نتبادل أطراف الحديث مع ارتشاف ما أمامنا من كؤوس مترعة بالسائل الذهبي حتى دارت جوانب رؤوسنا بعد حين فوجدت نفسي منتشيًا أشارك الراقصين، فهبطت إلى المرقص دونما سابق تجربة أو معرفة بحركات رقصات

العصر، وقد أثار استغرابي اقتراب شاب وفتاة حاولا إشراكي في الرقص معهما، ولكني لم أُعر الأمر كبير أهمية من باب احترام حرية الآخرين وكون الأمر عاديًا في طبيعتهم. على أنني فوجئت حين عدت إلى مقعدي بأن الفتاة تحضر إلي وتقدم كأسًا من البيرة وعندما شكرتها بأنني لا أريد أن أخلط شرابي مع البيرة وجدت منها إلحاحًا بل إنها همست في أذني قائلة بصوت خافت:

- أاتب لي رقم تليفونك لأتصل بك غدًا.

فقلت بسرعة:

- إنني أقيم في نفس هذا الفندق الذي نسهر فيه.

وأعطيتها رقم غرفتي واسمي فشكرتني ومضت إلى صويحباتها اللواتي احتللن طاولة قريبة.

فتساءل صاحبي:

- ماذا تريد منك هذه الفتاة؟

أجبته بما حدث فعلق ساخرًا:

- يبدو أنك نلت استحسانها يا رجل فاستعد لها..!

كنت قد شربت من الكؤوس ما يكفي لاستدارة رأسي خاصة وأن اهتمام الفتاة بشخصي ضاعف من نشوتي، لا سيما بعد أن لوحت لي مودعة ونحن نغادر قاعة الرقص حوالي منتصف الليل. وفي غرفتي لجأت إلى فتح زجاجة كنت أاتفظ بها حيث أحضرتها من المطار وعمدت إلى سكب كأس لي وأنا أفكر بهذه الفتاة التي ترغب في التعرف إليّ..

كانت لا تزيد عن العشرين ربيعًا بقليل، بيضاء البشرة ممشوقة القوام ذات عينين جميلتين وشعر ناعم يتهدل على كتفيها، ترتدي بنطالاً من الجينز فوقه تنورة شفافة، وعلى صدرها الناهد ليمونتان ناتئتان.. ذات وجه مستدير وأنف قصير تزينه شفتان ممتلئتان تغريان باللثم، والنظر إلى ذلك الوجه البريء الذي أعترف بأنه أسرني بتقاطيعه

الناعمة ولا أدري كيف سرقني النوم فيما قلبي يثب ويستعيد تلك اللوحة الشاعرية حتى أنني حاولت إقناع نفسي بأن الفتاة متأثرة بشرب البيرة وهذا مما جعلها تخطئ في اختيار من يصلح لجمالها وشبابها.

وغبت عن الوجود وأنا في خِضَمّ ذلك الحلم اللذيذ، ولا أدري كم مضى على حين ألفيت نفسي واقفًا في وسط الغرفة أذرعها بدون وعي وكأنما تلدغني دبابير عندما أتوقف، بينما أطياف تلك الفتاة الحسناء تتهادى قادمة من فوهة الحجرة التي تركت بابها مواربًا حتى لا يعيق حضورها الذي لم يكن غائبًا عن كياني منذ فتحت عيني، بينما نظراتي منصبة على جهاز الهاتف تتوسل إليه بأن يرن بصوتها الناعم، وخيب ظني الاتصال الأول حين وجدت صديقي فهاد في الطرف الآخر يذكرني بموعد مغادرة الفندق لنلتقي في شقته على الغداء ثم نستعد للسفر إلى الإسكندرية وهي جميعًا أمور تبعدني عن رفيقة الليل التي ما زال طيفها ساريًا في تفكيري وعروقي . .

أقضم ما وضع في صينية الإفطار عقب أن ارتشفت منها كوبًا من الشاي الممزوج بالحليب المستورد وكأنهم في الفنادق يعانون من استخدام اللبن المحلي الألذ والأكثر فائدة. وفجأة هتف الرنين وتدفق الصوت العذب يتهادى بأحلى نغم وتحية "صباح الخير". في تلك اللحظة شعرت بأنني استيقظت فعلاً من سبات طال عشرات السنين لأسمع نغمًا افتقدته طوال حياتي.

- كيف كانت سهرتك؟!.. هل نمت مرتاحًا.

كان الصوت رخيمًا من أثر مجهود الليل .

- كيف لي بأن أنام وكنتِ أجمل صورة تتراءى أمامي.. قولي ما اسمك أيتها الساحرة؟

- عطر حسن .

- اسم يليق بالقدوة الملائكية التي اخترقت كافة أحلامي .. متى

أراك يا عطر أحلامي؟

- كما تشاء .. فأنا في إجازة الاختبارات .

وتذكرت بأن زميلي قد حجز لنا مقاعد السفر إلى الإسكندرية.. فقلت مستدركًا آسفًا:

- يا عطر لدي خبر مزعج...

فقاطعتني بسرعة:

- بعد الشر.. ما الأمر؟

- زميلي حدد لنا سفرًا في هذا اليوم الخالد من حياتي.. فهل تأتين معنا إلى الإسكندرية؟

- هه .. مفاجأة غير سارة .. إنما قد أستطيع اللحاق بكما .. فما هو العنوان ؟

- تليفون مكتب ملاصق لمكان نزولنا.. فسجليه لديك .

- هات الرقم .. فلست أريد إضاعة فرحتي بمعرفتك .. فأنت أول من استهواني من أول نظرة يا جابر.

فارتجف جهاز الهاتف في يدي وكاد يقع مني.. فاعتذرت لها كأنها كانت تشاهد حالتي أمامها قائلاً:

- يدي ترتجف وأنا أسمع هذا الاعتراف الذي اخترق كياني مثل مس كهربي.. فاعذريني لأنني أشعر بالظمأ يتلبس فمي.. ولا أدري كيف سأقدر على فراقك إلى حين عودتي من الإسكندرية إن تعذر لقاؤنا هناك .

فامتلأ سمعي بأحلى ضحكة ناعمة..

- لا تكن عجولاً.. فالأيام طويلة يا عزيزي وأنا حريصة بأن لا نفترق بعد اليوم يا جابر .

ولم أكن أريد أن يتوقف هذا التدفق المعطر بحب لم أذق مثله، فتمسكت بهذا الشعور قائلاً بتوسل:

- مهلاً عطر.. فلدي الكثير الذي أريد قوله لك يا معبودتي الجميلة فقلبي يثب بين أضلاعي ويتمنى أن يعانق مَن أسره في لحظة حب خالدة.. وخاطفة.

فأغرقني موج ضحكها الناعم مقاطعة:

- هل أنت شاعر يا جابر؟!

- تعلمت الشعر في ليلة تفكيري بك يا عطري المفضل، فانتظري إزعاجك بهذا الكلام الهامس .

- كلا .. فليس في هذا الكلام ما يزعج .. ولم أكن أتوقع أنك تملك مثل هذا القلب المرهف الذي لا يتناسب مع هيئتك الجادة .

- ها قد وصلت إلى موطن ضعفي .. فهذا المظهر يخفي قلبًا ناعمًا يذوب رقة كنسمات الحب اللاهب.. فكوني رفيقة بي حتى لا تتناثر أوصال قلبي مضرجة على قارعة الطريق..

(2)

الرقعة الخضراء التي يخترقها القطار توحي لي بأن مرحلة جديدة من عمري ترتد أكثر من ربع قرن حتى أقف على قمة عمر مفعم بالحيوية، وخوض تجربة صقل يطيح بسنوات القهر التي مارسها الدهر القاسي في صحراء حياتي فماذا أنا فاعل سوى القول.. ما أتعس المتلقين الذين يتفاخرون بارتياد قارات العالم عن طريق القراءة وهم في الحقيقة إنما يبتلعون أسوأ أمراض المجتمعات الأخرى لنقلها إلى عالمهم الخاص، والقارئ اللاهي في هذه العوالم إنما يحاول أن يهرب من محيطه إلى ما هو أسوأ وأكثر تعاسة لولا هذه البوارق التي تشع بين الحين والآخر فيهرب المرء إلى دنيا جديدة قد تثقل عليه، إنما في طرقاتها بعض المسارب التي تبتلعه حينًا من الدهر ينسى فيه وضعه السيئ .

هذا ما استشعره وأنا أتجول بنظري بين إضمامات الأشجار المتداخلة.. خضراء باسمة في هذه الأرض الخصبة التي لم تدع فرجة إلا انغرس فيها نماء أخضر. إنني أشعر بالتعاسة والقطار يهرول بي بعيدًا عن ذلك الوجيب الذي هطل علي في الليلة الماضية واستولى على كافة حواسي وأخرجني من الاعتكاف الذي ضربه العمر والمجتمع والحزن علي حتى أصبحت مجرد آلة تتحرك كل صباح وتهمد في الليل لا تشعر بأي فرح ولا تجديد في حياتها. مضى الكثير من العمر هباء في ممارسات قد لا تخلو من بريق صغير، إلا أن التقاعد دفع بي إلى بداية القبر الذي ينتظرني بدون أي احتفال شأن غيري من الذين ليست لهم موازين ثقيلة !!

إنها محطة أخيرة في عمري قد تكون روضة خضراء تهطل بالمطر والسعادة التي أبحث عنها وقد تتحول إلى مجرد سراب . فهل علي أن أقطع الرحلة وأعود قبل أن أصل إلى المحطة التالية حتى لا تفوتني لحظات لذيذة من عمر الزمن الهارب مثل مجرى النهر المتدفق نحو مصبه؟؟.. يا خشيتي من الأيام القادمة حين أبدأ في امتصاص إكسير ينعش روحي الذاوية في ذلك المجرى الآسن الذي يتحتم علي أن أبتعد عنه وأركله كماض تعس أعبره إلى ما يفتح دنيا جديدة أمامي مع هذه الحسناء الصغيرة التي أرجو ألاّ تكتشف الخطأ في الاختيار، فتدفعني من جديد إلى هوة الضياع الذي أحسسته في غالب حياتي. وداعبني ما يشبه الهذيان صارخًا.. علي أن أكون أكثر أملاً وصبرًا فلربما يتحقق لها أن تتبعني إلى هذه المدينة التي خبرتها سابقًا بما تتيحه للزائر من خبايا يستطيع من خلالها أن ينفرد بمن يريد بعيدًا عن أعين الرقباء. ولن أتحدث عن علاقة سابقة لي في هذه المدينة؛ لأنها اصطدمت بطريق مسدود بعد أن هزت كياني فترة من الزمن وكادت أن تحطم الكثير من الأغلال التي عشتها قبل أن أدخل فردوسها لبعض الوقت. إنني اليوم

أكثر ثقة ومعرفة بخبايا القلوب مع أن العشق الذي يعتصرنا يقذف بنا إلى متاهات الأعالي مثل عاصفة هوجاء ثم يرمينا إلى الأرض بدون أية أسلحة ندافع بها عن أنفسنا. ثقتي لا حد لها بأن الحياة بدون حب لا معنى لها وأن الحب إذا لم يستطع أن يتجدد يصبح مثل بركة آسنة تفوح منها رائحة مقززة. الحب عبير يتضوع حتى يملأ الجوانح بالحيوية وينفث الرغبة التي لا تقف عند حد.

عطر ستكون حكاية طويلة كما أرى من بدايتها، حكاية قد تعصف بي وقد تجعلني أنتشي بهذه اليقظة المتأخرة فلا أعرف لها نهاية؛ ولكن يا ترى ماذا وجدت في هيئتي هذه الكاعب؟ أتراها تستبدلني بشاب خدعها أم رجل تزوجته فأساء إليها؟ لا لست أعرف عنها أي شيء سوى أنها اختارتني تلك الليلة العسلية بالنسبة لي؛ أما هي فلا أعرف الكثير عن شعورها في أثناء اللقاء والذي ما زال ساريًا عقب أن استيقظت من النوم.. يا إلهي علي أن أكون مستعدًا لأي صفعة غير متوقعة فليست الحياة دائمًا صفحة زاهية إنما الصفحات الملطخة أكثر عددًا في دنيانا نحن الذين نتلقى الجانب الأقسى من الحياة فلا نملك سوى الاستسلام والصبر. الفرح الذي يمتلئ به قلبي ربما يصاب بصدمة، وربما بالشماتة من صاحبي الذي أرى السخرية في عينيه لانتظار أسوأ الأوقات بالنسبة للإنسان خاصة إذا كان لا يعلم ماذا سوف يتفتق عن هذه المغامرة التي يمر بها.. أهي نهر يجري نحو مصبه بهدوء وانسياب واعدًا بسعادة دافقة دون زوابع أو أمواج عاتية، أم بحر صاخب يتلاطم على الخلجان متوعدًا السفن برحلة قاسية تتقاذفها أمواج الخوف والمعاناة؟ وكان علي أن أتمسك بالهدوء الذي يستند إلى الإيمان بأن الله المسيطر على الكون لا يدفع عباده إلى الجنون مادامو قد اطمأنوا إلى قدرهم في هذه الدنيا واعتصموا بحكمته.

حين جاءني صوتها عبر الهاتف كان ما زال يحمل الكثير من اللهفة

إلى اللقاء عندما أعود لتعذر قدومها إليّ فحمدت الله وشكرته على هذه النهاية وآن الانتظار لا يحمل لي أخبارًا سيئة. فلم أعبأ بكلمات رفيقي الشامتة التي أظهرت انتصاره لخيبة انتظاري، وأسرفت في تناول شرب الكحول حتى أنسى كل ما هو حولي ممنيًا نفسي بأيام قادمة مترعة بالبهجة والسرور والعيون النجل تضيء لي ليلة معتمة في تلك المدينة.

ستون عامًا من الحزن ينوء بها هذا القلب المكلوم الذي بدأ شقيًا في الصغر يتلاعب بالفتيات الصغيرات ويعابث صدورهن. قالوا: إنني كنت صبيًا فيه مسحة من جمال النساء. فأغضب لهذا التشبيه إذ لم نكن نحمل الكثير من الاحترام للنساء؛ لضعفهن واحتمائهن خلف الرجال. ثم عندما كبرت لم أعد أعبأ بما أوصف به مادامت أن صبواتي لم تصطدم بمن تعاف تقربي منها، ولكن قطار العمر سرعان ما تخطى السنين فإذا بي أبحث عن امرأة تقاسمني شقوة الحياة الجافة في مجتمعنا المأزوم الذي يخلو من قصص الحب. ولما أسررت لوالدتي بهذه الرغبة أظهرت فرحًا وتشجيعًا ولكنها ذكرتني بأنني لا أملك شروى نقير كما أن الفقير لا يستطيع أن يتحمل نفقات تثقل كاهله. إذن عليّ أن أشتغل وتحمست لهذه الفكرة وإن كنت لا أعلم ماذا بإمكاني أن أؤدي من عمل سوى الاعتماد على ما تحقق لي من فهم عن طريق القراءة المتواصلة. وتلقفتني مكاتب العمل وأظهرت بعض الخيبة لقبولي فورًا إنما أعطتني بعض الأمل الذي تضاعف في نفسي، ولم أفقد الثقة حتى عثرت على عمل متواضع لدى مقاول صغير بمرتب ضئيل، وبعد مضي عام حصلت على ما هو أفضل منه بضعف الراتب. وهكذا أمضيت بضع سنوات أتنقل من مكان إلى آخر بطموح الشباب، ولمع اسمي بين زمرة الكتاب في الصحافة الذين يشاغلون الدولة بما لم يتحقق؛ لأن القراءة المتوالية أشعلت تلك الطموحات الكبيرة لولا أن الزواج أطفأ ذلك التوهج بالتدريج وجعلني أتدثر بذلك المنزل الدافئ، وامرأتي تصرخ في وجهي:

نريد منزلاً نمتلكه مثل غيرنا من عباد الله. فلا أملك سوى أن أهز رأسي موافقًا، ولكن من أين؟ لابد من العمل الإضافي وأن أدخل سوق العمل الحر فأقترض وأغامر في مجال العقار الذي اتجه له أكثر الناس. ولولا أن الشعيرات البيضاء أخذت تغزو رأسي لما فكرت بارتكاب حماقة البحث عن أية وسيلة للحصول على المال. ودفعتني إدارتي إلى مهمة انتداب رسمية تستغرق بضعة أشهر حتى أبتعد عن ذلك المحيط. واستغرقت في حب السياسة بعض الوقت، وتأثرت بخطب الساسة ورجالات الثورة خاصة عبدالناصر الذي استولى على اجتذاب أكثر الشعوب العربية لكراهيته للاستعمار الغربي في أوطان العرب بل سجل زملائي اسمي ضمن من سيذهبون للتطوع في أثناء العدوان الثلاثي على مصر؛ وأصبحنا نرى في القطر المصري قبلة للمستقبل، وفي أثناء التدريب أصبت بطلق في قدمي فأدخلت المستشفى وبقيت تحت العلاج بضعة أشهر وفقدت عملي في أثناء ذلك مما جعل زوجتي تصرخ وتتهمني بالجنون؛ فقررت أن احتمي بالمسجد لعل الله ينصرنا بجنود من عنده على الاستعمار وإسرائيل وهكذا كانت تردد النساء في منازلنا.. إننا نخاف الله ولا نلتجئ إليه إلا في الأوقات العصيبة والأزمات. في بعض الأحيان كنت أحس ببعض العطف على جنس النساء الذي يتحامى بالجدران عن مطاولة الرجال، غير أنني في وقت آخر أرى فيه المهيمن على كافة العواطف.. الرجال يفاخرون حين تصطادهم إحدى النساء، فتميل إليه. وعندما تغضب زوجته أو تبتعد عنه يثور ويحطم ثقة الناس به ويصبح مجرد ثور يخور بحثًا عن أنثاه ولهذا يسيء لنفسه في استرضائها وربما يتحفها ببعض ما تتمناه حتى يستدرجها إلى نسيان خطئه عليها.. يتقاتل الرجال في الأسواق ويتشاجرون عندما تغضب منهم النساء فيقال عند عراك الرجال في الأسواق: لابد أن زوجة أحدهم أسمعته كلمة قاسية لذا أصبح عصبيًا متوترًا لا يقوى على

التحكم بأعصابه. ولكنه الجنس الذكي الذي يستطيع أن يتظاهر بالضعف حتى ينال مراده ويفرض إرادته . فتحية لك يا أمي في قبرك الطاهر. وسلامًا على كل نساء الأرض وحبًا جارفًا لهن جميعًا.

إنما كيف سأقضي ليلتي بعيدًا عن محيط الفتاة التي سلبت كل تفكيري. حب الكهول والشيوخ جنون لا يقهر. إنه العاطفة الثاوية في أعماقنا وقد آلمها هذا الحجر على قدراتها؛ فإذا بها تريد أن تنطلق تعبر عن تواجدها في الظل، وليس بعثرتها مثل الرماد. العاطفة كيان نذود عنه في أعماقنا؛ لأنه يغذي حبنا للحياة وللناس جميعًا، فإذا انتفت أصبحنا مثل الجماد وليس الحيوان الذي لا يخلو من العاطفة نحو أبنائه. وهكذا فإنني لست خجلاً في هذه المرحلة من حياتي بأن أعلن للناس جميعًا بأنني مولع بهذه الفتاة، وسوف أدافع عن هذه العلاقة بكل ما أملك من قوة ولن أفكر في الأخذ والعطاء فهي أمور جانبية إذ سوف يُقال إنها اصطادتك لغرض في نفسها وليس لأنها تميل إليك، إنك صيدها الثمين الذي سوف تعبث به كيف تشاء. ولكنك سوف تنفي هذه التهمة عنها وعنك وتجادل بحماس قائلاً: الحب لا يعرف الأعمار لأنه قدر مكتوب. مرددًا مع الشاعر:

مشيناها خطًى كتبت علينا .. ومن كُتبت عليه خُطًى مشاها!

(3)

الطيف .. آه من طيفها واقف عند رأسي يبتسم.. ينظر إلي بهدوء كأنما يسخر من أولئك الذين انتقدوها حين اختارتني في تلك الليلة العسلية دون أن تنفرج الشفاه بأي كلمة معارضة. بهجة امتدت في عرض البحر زاخرة بالأحلام.. زاخرة بالرؤى التي تطاولت حتى عانقت الكواكب في متاهات الأفق .. هل عرفت الابتسامة طريقها إلى شفتي؟ لا أظن فالخوف ما زال يتلبسني.. يطرق كياني محذرًا.. لا تندفع مع

الحلم كثيرًا حتى لا تصاب بصدمة تقتلع جذور الأمل.. فقد تكون عطفت عليك حين رأت سحنتك البائسة، والسنون تحني ظهرك، فأرادت أن تخفف عنك بعض الوقت وتلقمك سحرًا قصيرًا تنتشي له أوصالك ويطرب له قلبك الضعيف في سنوات شيخوختك المبكرة. تماسك أيها الرجل الرزين ولا تذهب أحلامك مع الرياح العنيفة. فلست شابًا ولا حتى وسيمًا حتى تفتن بك هذه الفتاة الجميلة الصغيرة كما لم تنثر أوراق البنكنوت في صحن الحلبة حتى يُقال إنك من الأثرياء وهيئتك المتواضعة تنبئ عن رجل متوسط الحال جاء ليقضي بضعة أيام سائحًا ربما للترويح عن النفس أو لخروجه من أزمة صحية، فكف عن مد الحبال إلى آماد بعيدة، واقتنع بأنك قضيت وقتًا ممتعًا تلك الليلة المجزوءة من العمر .

هل أسلم بهذه الحقيقة المخيفة فأتواضع بالآمال السرابية التي غرقت فيها حتى الرأس ؟ يا إلهي ألهمني الصبر حتى أرى صدق النظرات العاشقة في ذلك الوجه النوراني الرقيق بعد أن يفيق من نشوة الانتصار الحاسم على إرادتي الضعيفة عقب أن أسلمت مقدراتي إلى ذلك الشعور الناعم مثل قارب اندفع بي إلى وسط التيار المتلاطم وأنا لا أجيد العوم.

يا لي من بائس محاصر برياح مريرة من كل جانب فكيف بي أمرق إلى ذلك الكوخ القابع في وسط البرية وأنا متشبث في هذه الحفرة الجانبية ؟ كدت أبكي حظي العاثر.. والبكاء لا يليق بالرجال إلا حين اليأس والاستسلام للقوة العاتية. وتذكرت موقفًا حدث لي مع بعض الرفاق قبل حوالي نصف قرن حين اعتزمنا الهرب إلى جزيرة بعيدة فركبنا سفينة شراعية يقودها رجل مخيف الهيئة أسود اللون له نظرات شريرة وأسنان ناتئة مثل أنياب النمر. وفي الليل تمددنا على ظهر السفينة بعد أن أشبعنا أنظارنا بمرأى الليل. وكان القمر بدرًا فإذا بذلك

الرجل الضخم يتمدد بالقرب من مكاننا فأوجسنا خيفة منه إنما لم يكن باستطاعتنا الاحتجاج لأننا صغار السن. كنا ثلاثة صبية فكان وضعي في وسطهم، ومضى الهزيع الأول من الليل، وقد زايلني النعاس فإذا بزميلي الذي كان موقعه في الطرف يرسل صرخة مكتومة فهطلت دموعي بسرعة وقد أدركت بأن القبطان آذاه أو اعتدى عليه فشكوت أمرنا إلى الله من هذا الهمجي الشبقي الشاذ الذي كان مع الأسف يؤم البحارة في أوقات الصلاة، وهكذا قررنا قطع رحلتنا والعودة من حيث أتينا بعد أن أهينت كرامتنا وديست رجولة أحدنا في عرض البحر. ومنذ ذلك الحين كرهت الرحلات البحرية، وإن تعلقت بالبحر كنت أجلس على الشاطئ حين عصفت بذهني هذه الأفكار التعيسة وصورة الفتاة تتهادى على صفحات الأمواج بشعرها الناعم الذي ينسدل على ظهرها وقامتها الفارعة ممشوقة القوام وصدرها الصغير الذي بدا بارزًا جميلاً ينهض فوقه الوجه الملائكي الباسم الوديع. وتساءلت بقشعريرة: ماذا ترى سوف يكون موقفي لو أن حادث الصغر تكرر مرة أخرى وكانت رفيقتي الحسناء تتمدد بجانبي ؟ هل سوف تواتيني الشجاعة لأقذف بالقبطان القذر إلى البحر أم أبكي ضعفي وأجبن مرة أخرى؟ ووجدتني أنفعل بسرعة والتفت بحثًا عن مكان لبيع الكحول حتى أتناول ما يبث الشجاعة في أوصالي. وكان زميلي قد ضجر من صحبتي لاسيما ولم أكن أتبادل معه الحديث إلا لمامًا في ذلك الكازينو الذي سحبنا أقدامنا في أرضه، طلبت زجاجة بيرة فأحضرتها لي فتاة صغيرة ابتسمت لي بترحاب فضحك زميلي قائلاً لها: تعالي عندي، رفيقي مرتبط بأخرى. فعلقت الفتاة ضاحكة (وما له نكون اثنين .. وإلاّ ما يقدرش علينا أرجو إعطائي علبة سجائر مستوردة) فزمجر صديقي قائلاً:

- إذن اذهبي فلن أعطيك علبة زفت.

سخرت منه معلقًا:

- لماذا هذا التصرف الهمجي يا أخي.. لا تنسى أن السائح ينبغي أن يكون متأدبًا فلا يجرح شعور الآخرين.

- فخجل من نفسه ونادى الفتاة ليدس في يدها مبلغًا من المال جعلها تبدو سعيدة لهذا المكسب.

- قلت له: لم أستطع النوم في الليلة الماضية.

أجاب:

- كنت أسمع فحيحك وأنت تشعل السجائر بينما الكؤوس تترى بالقرب من سريرك.. فهون عليك .. إذ لن تراها مرة أخرى.

فصمت وأنا أغلي من الغضب.. ثم تمتمت:

- حبيبتي سوف تخيب ظنك .

فدوت ضحكة معلقًا:

- منذ متى أصبحت حبيبتك. ليلة كل من كان بالمرقص سكارى.. أيها العجوز المسكين.. كف عن الهذيان.

- فصرخت فيه:

- بل أنت حاسد غيار فاسكت حتى لا أخنقك بهذه الربطة الخائبة.

فابتعد عني وهو يتمسك بالربطة معلقًا بتهديد:

- لا أستبعد منك أي تصرف.. فحذار حتى لا أبلغ البوليس بأنك فقدت عقلك أو أسلمك للسفارة.

فوجئت بلهجة وعيده واعتزمت أن أفترق عنه عقب عودتنا إلى القاهرة. فالملابس الأنيقة لا تخفي حقيقة الإنسان أو طريقة تفكيره. فهل أسأل في بلد عربي لأنني تعرفت على فتاة صغيرة ولماذا يتدخلون في حياتي الشخصية وأين ذلك التوجيه الصارم الذي صدر عن الخليفة العادل عمر بن الخطاب إلى عامله في مصر عمرو بن العاص (متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا)؟ أفليست عواطفي حرة في أن تميل إلى من تريد؟ .. على أن الغريب في الأمر اكتشافي بأن

الإنسان حين يقترب من الكهولة يصبح أكثر حذرًا وخوفًا، وبهذا تصدق عبارة "طيش الشباب ورعونة الكبار لا شجاعتهم". وتساءلت: كيف يجتمع الحب والخوف، وأين جسارة فرسان العصور في الذود عن حياض القبيلة والأسرة التي تضم محبوباتهم وعشقهم التاريخي من هذه القوانين الوضعية التي تصد حتى عن انتزاع الحق الخاص قبل العام؟ هل الأنظمة تزرع الخوف والجبن في نفوس الأبطال لتجعلها من حق الحكام فقط وهم الذين يحتمون بالمتاريس والرجال المدججين بالسلاح؟ يا له من زمن تعيس أفرز الظلم والكراهية وعبادة الأصنام! كانت أمي تراع حين تسمعنا نصرخ في أعماق الليل وقد ركبتنا الكوابيس فتأخذ في قراءة سور من القرآن لطرد الأشباح وطيوف الج، وأذكر أنها أعطتنا سكينًا أو عصا لنقارع بها من يحاول اقتحام أحلامنا التي تخضل معها دموعنا الواجفة. فالخوف إذن هو من إفرازات طفولتنا المعذبة فيا لها من ذكريات كئيبة.

أمضيت الليل بالقرب من الهاتف حتى أسمع صوتها في الطرف الثاني من الأسلاك الناعمة. كان الليل قاسيًا في فصل الخريف الذي تتساقط معه أوراق الأشجار الصفراء وأحلام الكهول المتعبة. وفي الظهيرة سمعت باسمي من فم أحلى فتاة عرفتها في حياتي:

- متى أراك؟
- في أي وقت تشائين.
- ما رأيك في الخامسة؟
- كل الأوقات ملك لك.. أين؟
- في المهندسين.. أتعرفها؟
- المهندسون والأطباء.. كلهم أصدقائي.. عرفت المكان.
- إلى اللقاء .
- قبلاتي.. وأحر التحيات لك .

كاد يغشى علي حين رأيتها تبرز من سوق جانبية.. لقد بدت أجمل مما رأيتها وأكثر نضارة وحيوية.. يا إلهي، ارأف بحالي فلست أحتمل كل هذه العاصفة من الجمال والبهجة.. أنا عبدك ابن عبدك ابن أمتك يا إله العالمين. وجلسنا في شرفة المطعم متقابلين.. عيوني ستأكلها حتمًا وستذوب في فمي حلاوة لها ألف طعم. أخرجت من حقيبتها بعض الوثائق.. رخصة قيادة.. بطاقة الجامعة.. جواز سفر عليه أختام أجنبية. قالت موضحة:

– لقد عدت من أيام قليلة.. كنت مسافرة إلى أمريكا لزيارة والدي المغترب.

– وحدك؟

غردت ضحكتها لتجيب:

– طبعًا.. أنا في الثانية والعشرين.

– لا يبدو عليك هذه السن.

تململت:

– أنت تجاملني .

حفرت بعيني الصور وأنا أحملق فيها.

ووقف أمامنا النادل فقلت:

– ماذا تشربين يا عطر؟

– أي شيء.. هات عصير.. عصير ليمون.

– وأنا برتقال.. كلا .. بل نسكافيه.

مضى النادل بعد أن سجل طلباتنا وانحنى قليلاً.

سألتني باهتمام:

– كم ستبقى هنا؟

– ثلاثة أيام .

– هل تحب النيل؟

- بل أهل النيل .. وبنات النيل .

علقت ضاحكة:

- آه يا شقي.. لا يبدو عليك المكر .

- بل أنا طيب.. وأخاف من النساء.

- ولكن ها أنت جئت مسرعًا لمقابلتي.

- لأنك .. لأنك ملاك.. ولست مثل باقي النساء .

- وكيف عرفت..؟

- قلبي لا يخطئ.. عرفت ذلك من دقاته وهو ينتظرك.

- إنهم يصطادون النساء بمثل هذه الكلمات المعسولة.

- لست أنا منهم.

- عفوًا .. لم أقصدك.. فأنت تختلف عنهم.. حتمًا.

وأوقف حديثنا حضور النادل الذي استأذن في وضع المشروب على الطاولة التي بيننا مما جعلني أركز النظر على ذلك الوجه الجميل الذي يجلس قبالتي ببشرته الناعمة شديدة الوضوح حتى لأرى العروق الخضراء تخترق بعض مسامه الرفيعة، والعينين خرزتي لؤلؤ أصيل تهمس بالعفوية وعدم التصنع وأسئلة محيرة.. وشعرها المنساب على ظهرها يكاد أن يصل إلى عجيزتها التي تمتاز بتكور رائع لمحافظة الفتاة على رشاقة جسمها بعناية.. وهاتين الشفتين الناعمتين تنفرجان باعتزاز حتى لتبدو اللآلئ التي بداخلها شديدة البياض وهي تبتسم بفرح ألجم لساني، وجعلني أذهب من جديد بعيدًا مع الأفكار التي تهاجم سعادتي الطاغية وأنا أتصور نفسي أحلم بمثل هذه الجلسة التي أُحسد عليها حتى من أقرب الناس إليّ.

ماذا قلت عن غموض عينيها؟ بحرٌ لجيّ يتوه فيه من لا يجيد العوم والسباحة. بعد بضع ساعات متقابلين في مكان آخر تصدح به الموسيقى والأضواء الملونة، وفتيان من الجنسين يدورون في وسط الصالة حول

بعضهم مشتبكين بالأيدي، بينما الرؤوس تتمايل منتشية من هذه اللحظة.. ترحل مع أحلام تتشابك في الأفق ما بين الشبق والابتهال.. أيتها السعادة التي لا تعرف لها مستقرًا انثري ضوعك على هذه الأجساد الشابة.. ترجلي عن جوادك الجموح.. فالحياة لم تعد كما تعرفينها منذ ألف قرن.. وحتى عندما تولت بلقيس حكم دولة سبأ.

(4)

لقد مضت حكاية الإنسان بين الجبال والوهاد حيث يلتقي الأنثى فتهرب منه حتى يصطادها في مغامرة أو نهاية كهف فيتحابان سريعًا بلا اختصام سوى انتفاضة اللذة، وهي تطهر الأجساد من إغواء يسري مثل ارتعاشة المس الكهربي. الثياب اليوم أصبحت ثقيلة تنطوي على عدة قطع يصعب التخلص منها.. الوردة الأخيرة تبقى متألقة مدفونة بين تلافيف الجسد الأملس مختفية بين الشعيرات الناعم، رائحتها عابقة بنداء الأنثى تتضوع مثل دغل في أعماق غابة مبتلة من مياه الأمطار.. والعرق النازف يسكر التسابيح التي تنهمر من نداء القلب الذي يطوف العالم بحثًا عن هذه الخدعة التي لا تكاد تحسب من العمر، وقد ذاب في تيار يستحيل أن يوقف جريانه في شرايين الجسد. يا أمنا حواء عليك سلام كافة نساء الأرض منذ قضمت وأبونا آدم تلك التفاحة التي بقيت مذاقًا يتجدد في كل أفواه أحفادك..

كانت الحيادية واضحة على محياها وهي تركز نظراتها علي. بينما كنت أرى في التصاق الأجساد إثارة تحتم الهبوط إلى أدنى مستوى من الشفافية.. سيدتي إنني أختلف معك حتى أشبع نظري من مرأى وجهك الوديع فلم يعد لي في هذه الدنيا من آمال كبيرة سوى هذه الصحبة الجديدة معك. لا أريد أن أفقدك حتى لا يضيع عمري هباء. سوف أبقى عاشقًا لك ما دمت رضيت بأن أحوم حول مملكة شبابك الزاهر حتى من

بعيد.. متعبدًا في محراب الجمال الذي وهبه الخالق لك .. حبيسًا في شرنقة لا أفكر بمغادرتها..

أنظر إلى ذلك الصدر الذي قد تقفز ليمونتاه متمردتين بغضب فأعلم أن العطاء ما زال في أول الربيع مبشرًا بخصوبة سوف تتقمص ذلك الجسد الفارع ممشوقًا يلفت النظر إلى تناسق في كافة أجزائه وذوقه في اختيار ما يناسبه وإن كان جماله يشد النظر ويرغم على توزيع النشوة على هذا الهطول الناعم.. ولذا أريد أن لا يراك غيري. أتمنى أن أخفيك تحت ملابسي فلا يشاركني في التمتع بك أحدٌ من الناس. فالحب الذي أحسه نحوك أناني وجارف بعد أن تحررت من كل ارتباطاتي ما عداه، لم أعد أذكر أن لي وطنًا سواك ولا أسرة غيرك ولا أعرف من حياتي الماضية عدا اسمي . وهذا الرجل الكهل الذي يرى شبابه يعود نابضًا بالحب لعذراء فاتنة وصغيرة لا يعرف ما سبب إعجابها به سوى إنها مجنونة هاربة من عالمها الخاص إلى دنيا هذا الرجل الذي ليس له أي مستقبل واضح ولا عالم محدد.. يريد أن يحتال على الدنيا بهذه القدرات المحدودة. خاضعًا لتقلبات الليل والنهار. أنفاسها العطرة تملأ صدري وأنا أحملق فيها بوله.. باشتهاء أن أقبل الشفتين المكتنزتين بالأفكار التي ترتعش عليها وهي تخرج بهدوء جرسًا ناعمًا يكاد أن يكون همسًا عن ذكرياتها في ذلك البلد البعيد.. عن أحلامها التي لا تخرج عن كونها في نطاق الدراسة.. إنها لا تريد التفكير بأي شيء قبل أن تنهي دراستها الجامعية بما في ذلك الزواج. (قلت في نفسي إذن سوف نبقى هكذا أصدقاء بدون هدف محدد، وهو ما يناسب ضياعي).

في نهاية السهرة طلبت مني إيصالها إلى منزلها ففرحت لهذه الثقة واعتبرتها دليلاً على متانة التعلق وقوة الارتباط . فكم هي سعادتي والعربة تخترق بنا جوف الليل في ذلك الوقت المتأخر، ونحن معًا حبيبتي

الصغيرة والرجل الكهل تضمهما عربة أجرة تنطلق في شوارع شبه مقفرة إلا من عربات مسرعة يتمايل داخلها ركاب قد أثقلت رؤوسهم النشوة وصراع الأجساد في أماكن مختلفة من أطراف المدينة الصاخبة بالرقص ودق الدفوف في نشوة جاهزة تسمح لهم بالارتماء على أسرّتهم صرعى ذلك السائل الذي امتلأت به أجوافهم حتى أفقدهم الرشد والاتزان، أو دخان تلاشى إلا ما خلّفه في رؤوسهم.. بينما رأسي كذلك لا تخلو من تأثير ما يشبه ذلك السائل، ولكن بكمية قليلة تكفي لأن تجعلني محلقًا في أفق بعيد ونفسي تنازعني لأن اعتصر هذا الجسد اللدن القابع بالقرب مني لولا خشيتي من غضبه ومن العيون المتشبثة على جنبات الطرقات تراقب ما يحدث داخل العربات المسرعة.. في ذلك الهزيع من الليل مستعدة لأن تقلب تلك النشوة إلى يقظة خانقة من الأسئلة البليدة: أين كنتم وإلى أين أنتم ذاهبون؟ وكأنهم تجاهلوا المراقص المصرح بها حكوميًا حتى تفرغ جيوب السواح من العرب بالذات الذين لا تحلو لهم السهرات سوى في مثل تلك المحلات الملغومة التي يمتد افتتاحها إلى ما بعد منتصف الليل.. لتستقبلهم عقلاء وتلفظهم في حالة شبه جنونية معربدين بأصواتهم في تلك الشوارع الخامدة.. لا تكاد عيونهم ترى سوى موضع أقدامهم حتى يتكوموا فوق أسرتهم بكامل ملابسهم. لماذا أنتقدهم وقد أغدو مثلهم ذات يوم؟ إنه اليوم الذي تلفظني فيه هذه الفتاة الكاعب التي تمارس تجربة لا أدري كم ستدوم إنما أتوقع لها نهاية أشفق على نفسي من آثارها. فالفرح الذي يعصف بين جوانبي لابد وأن يهمد ذات يوم حزين!! يهمد حين تستيقظ الفتاة من الحلم الذي انغمرت أو تورطت فيه مثل ما كنا نفعل حين نصحو في الفجر نتلفت حولنا ونحن في أسرّتنا نبحث عن بقايا الحلم الذي كنا نظن أننا نعيشه في اليقظة فإذا نحن متفردون بلا أي آثار للحلم مهما كان .. أحيانًا نفرح لاكتشاف حقيقته بعدما مر بنا في أوضاع مثبطة لم

نستطع خلالها أن نظهر كل ما نختزنه من شجاعة خيالية أو حب مكتوم. أما عند انقطاع الحلم وقد نجحنا في تضاعيفه بإبراز قدراتنا فسوف نحزن حتمًا ونمسك برأسنا بين راحتينا، نحاول أن نستعيد تلك الفصول التي محتها اليقظة المفاجئة بل نلوم أنفسنا لاستيقاظنا بسرعة.

توقفت العربة لتهبط حبيبتي مغردة بصوت ناعم (تصبح على خير).. استقرت رائحتها التي تضوعت في أنفي فأسكرتني حتى ضاع لساني في الرد عليها لولا أن يدي ارتفعت وهي تتابع خطواتها القصيرة لتبتعد مع ابتسامة كبيرة منحتني إياها وأنا أتابعها بنظرة قائلاً:

- عد بنا يا سيد من حيث أتينا.

- حاضر.. واستدارت العربة من جديد إلى الشارع العام مخترقة الزقاق الجانبي الذي وقفنا عنده. وأراد السائق أن يجاذبني أطراف الحديث فقال وهو يتناول سيجارة قدمتها له:

- متى نفرح بزواجكم يا بيه؟

فاجأني السؤال لأجيبه دون تفكير:

- في الوقت المناسب إن شاء الله .

فعلق:

باين عليها بنت طيبة؟ وأضاف بعد أن أشعلت سيجارته .

- أيوه.. طيبة وأموره كمان، ربنا يوفقكم.

هل تراها وجدت أمها مستيقظة .. أم غارقة في نوم عميق؟ أخبرتني أنها تحتفظ بمفتاح باب المنزل لأنها تذاكر مع زميلة لها كل ليلة، ولا تريد أن تقلق راحة أمها حيث لا يوجد سواها وشقيقتها الصغيرة في المنزل. هذه الأسرة الصغيرة من النساء ألا تخشى على نفسها من شقي يحترف الإرهاب والبلطجة في بلد اشتهر بمثل هذه البطولات الناشزة؟ فكم يلزم لهن من الأقفال حتى يكن في مأمن لعدم مداهمة تلك النوعيات الفاسدة؟ حقيقة، إنهن لا يخافن على متاع مغر؛ لأن حياتهن البسيطة

ودخلهن المحدود لا يكاد يفي حاجاتهن الضرورية، فكيف يمكن شراء ما يرتفع ثمنه عن قدراتهن المادية؟ ورغم فقرهن المدقع لا يتذمرن كثيرًا . فالغالبية العظمى من السكان في مثل هذا المستوى المتواضع من المعيشة لا يعرفون الشكوى.. ولله في خلقه شئون.. لست مهتمًا بمن يحكم لأنني فقدت الثقة بكل الأنظمة، وليس في ذهني في هذه اللحظة سوى أنني أعيش بآمال تطاولت بعد أن كانت ذاوية بل كانت داكنة تتلمس الأجساد الشابة عقب تعثرها بالمدنية، مع أن عيني ما برحتا غارقتين في عالم "فادية" الذي تنسج حوله خرافات الماضي الذي عانته مع زوجها السابق حتى رأت في شخصي ذلك الفارس الذي يثير غبار معركة جديدة ثم يختطفها عنوة ويقاتل من أجلها جيوش الظلام. هي فاتنة بلا شك وسيئة الحظ لولا أن التحفظ في سلوكها يجعلني أتوقف عند مجرد النظر العاشق. لا تريدني أن أتقدم خطوة إلا عن طريق المأذون بعد أن نستكمل استعدادات الزواج وهو ما يثقل كاهلي وأنا أريد الفرار من أي التزام يقيد حريتي والمتبقي منها في خضم الحياة الصعبة التي أعاني من جروحها . ترى ماذا تفعل حبيبتي في هذه اللحظة ؟ هل تمددت في سريرها وعيونها تثقب جدار الغرفة كما يفعل الحيارى في هذه الدنيا؟ هل أيقظت أمها أم تركتها تحلم بالمستحيل؟! زوج غير متوقع .

إنها إذن مثلي لا تخطط لزواج قريب فماذا تنتظر إذن من كهل كثير الثرثرة قليل النتائج؟ إننا نتفق إذن في اتجاه واحد نحو بوابات الحلم الذي غالبًا ما يكون مجرد سراب في هذه الدنيا الشاحبة لاسيما بالنسبة للذين لا يملكون رصيدًا ضخمًا من البنكنوت.. هي نقمة الأحياء والإرث الذي يتقاتلون حوله باستماتة ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ﴾[النحل: ٧١] تلك إرادة الله التي يمتحن بها عباده، فزيادة الرزق ليست دائمًا من علامات السعادة بل قد تتحول إلى شقاء.. تذكرت هنا أحد الأصدقاء، كان زميلاً لنا نقضي الوقت معه في لعب الورق ثم

اختفى عنا مدة من الوقت فقابلته صدفة فإذا بي أذكره بالأيام الخوالي التي كنا نجتمع فيها حول نار هادئة وشرب القهوة.. فتنهد قائلاً:

- تلك أحلى أيامي إذ لم أكن أملك سوى مرتبي أتقاضاه آخر كل شهر.. أما اليوم وبعد أن أصبحت أملك عدة قطع من الأراضي في أنحاء من المدينة وبضعة مئات من الأسهم فإنني أفكر مذعورًا بانخفاض أثمانها وهبوط أسعارها ففقدت راحة الذهن والبال.. أصبحت لا أجد تلك النعمة الهانئة بدون تفكير وانزعاج.. عندما أضع رأسي على الوسادة يمتلأ الذهن بالمخاوف والقلق، فلا تظن بأن الأثرياء ينامون مرتاحي الذهن والفؤاد.. أكثرهم يرى أشباح الخسائر بل والإفلاس في يقظته ومنامه!! وكان في حديثه لي بعض العزاء لإرضاء الخاطر الذي يتساءل بدهشة لماذا نحن في خانة الفقراء؟ هل لأننا نكره بأن نمد أيدينا إلى الفئة الثانية فاحشة الثراء؟ أم أن التعاسة ولدت معنا؟

بالتأكيد نحن نحسدهم عندما نحتاج إلى المال للضرورة، ودعك من شعار القناعة فإنه مراوغ لا يفيد سوى العاجزين عن نيل الثراء .

(5)

كم تعذبت في سبيل الحفاظ عليها من الذئاب. شعرت بأنني مكلف بالدفاع عنها من العيون المتلصصة التي تكاد تزدردها من الشهوة الفاسقة، وليس ذلك من الصعوبة مادامت الفتاة تمارس حريتها في اختيار ما تريد من الملبس والتأنق حتى تبدو عصرية تعيش كإنسان كامل الحرية والاختيار. أصبح همي الأول ألاّ أجعل أحدًا يقترب منها فيحاول أن يقتطف من بستانها وردة هي من حقي وحدي. أشعر بتوتر متواثب وأنا أسير إلى جانبها خوفًا عليها واستعدادًا للنزال دفاعًا عنها . والناس ينظرون إلينا، وأكثرهم يتصورن بأنها ابنتي وليست حبيبتي، وكأنما يقولون لي صراحة: دعها أيها الكهل تختار من تريد مادامت هي في سن

ناضجة.. لماذا تقف في وجه مستقبلها مثل ديدبان غير مرغوب فيه؟ غدوت مثل أم لا تغفل عن متابعة حركات ابنها إشفاقًا منها وخوفًا عليه.. تخشى عليه من الانزلاق في خطأ إن تركته حرًا بعيدًا عن نظراتها الحارسة. قلبى يكاد أن يكتئب حين أتذكر هذه الحقيقة المؤلمة، ليست أكثر من ديدبان على كنزه من السرقة خاصة حين أتوقع خفوت هذا الإنجذاب وتسرب قوته مع السنوات التى سوف تسلُّ منه خيوط الالتصاق، بالتدريج حتى يغدو مجرد خيط رفيع لا يرقى إلى شعرة معاوية التى ترتعش ذات اليمين وذات الشمال. أشعر بالرعب ساعتذاك مثل من ينتظر انحسار النور وهو في وحشته داخل كهف كبير تسكنه الوحوش والزواحف والجن والكوابيس. فما الذي يحدق به إن واجه الظلمة مع تلك الوحوش تحيطه من كل جانب.. إنه لن يستطيع وقتها حتى الدفاع عن نفسه المتوزعة الخوف من كل جانب. إنه التشاؤم أو الحقيقة.. أما الأول، فإنني لا أحبذه.. فالتفاؤل هو نبراسي منذ وعيت الحياة. حتى قيل إنني خيالي يتقلب في الرومانسية دون أن يدرك مدلولها.. والثانية أخافها وأخشى تسلطها فهي التي تبعثر كافة أوراقي فأسميها حين تسيطر علي بالحالة العدوانية.. وكم هي رهيبة تلك الحقيقة حتى قيل إن القائد الذي هزم والتجأ إلى حفرة صغيرة إنه استفاد من سرب النمل وهو يحاول أن ينقل حبة قمح كبيرة إلى منزله دون كلل حتى نجح وتمنى لو كانت له قدرة النبي سليمان على فهم لسان الحيوان وخوف النمل من حوافر الخيل.. ذلك القائد أحس ببسالة جديدة فانتضى سلاحه وعاد إلى جنوده في ميدان المعركة يثير فيهم الحماس لجولة أخرى فاصلة، فانتصر بحماس النمل وتصميمه على عدم التسليم بالضعف، فأين الحقيقة يا ترى من هذه الحادثة؟ الحقيقة هي النهاية.. بالتماهي ألاّ يكف الإنسان عن المحاولة مهما كانت الصعاب حتى وإن انتهت بهلاكه مادام قد أمن ووثق أنه يستطيع فصادف ما هو

أقوى منه فسقط مدافعًا عما آمن به حتى الموت. فيالمعجزة الحب كيف ستسير الأمور؟ من ذا سيخبرني سوى الأيام الحبلى بالعجائب المدفونة في طيات الغيب .

عدت إلى موطني محملاً مفعمًا بروح شبابية تقمصتني حتى أخمص قدمي.. شعرت بأنني قذفت بثقل السنين خلفي وعدت صبيًا أعبث في أزقة الحي في قريتي شأني دائمًا، أركض وراء الكلاب والقطط الضالة وأستمتع باستنشاق الغبار الذي يعلو رؤوسنا ونحن نجري في كل اتجاهات الحي الذي نمتّره يوميًا عشرات المرات باعتباره كل عالمنا في هذه الدنيا الصغيرة حتى إننا لا نخطئ الغريب حين تقذفه قدماه إلى حيّنا أو الأحياء القريبة. نعرفه من سحنته وملابسه، نتراكض إليه بفضول الأطفال متسائلين عن وجهته، لا نتردد عن خدمته إن كان ثابت الوجهة، أما إن رأينا منه ترددًا ومعابثة لنا فلا نحرمه من تحيتنا له عن طريق حصبه بالحجارة الصغيرة في محاولة لطرده عن محيطنا باعتباره لصًا أو ينوي اختبار حصوننا؛ لينفذ إلى أضعفها وأسهلها لنيل مرامه الإجرامي.

وكانت بعض التساؤلات تطوف حول ما فعلت في هذه الرحلة إذ بدّلت الكثير من ملامحي وسلوكي. فلم أعد أحتمل مرأى الشعر الأبيض يتقافز فوق جمجمتي أو سالفي وحتى ذقني وشاربي فإما يختبئ أو تدوسه الصبغة السوداء ليبدو في أول ابتعاثاته، كما أن البسمة آخذت تعلو شفتي بدلاً من تلك التقطيبة الدائمة وأتحمس لمن يسألني عن فوائد السفر فأجيب بأنها سبعون وليست سبعة فقط أهمها أن الإنسان يمحو من عمره ما يشاء من السنين العجاف، فهي لا تحتسب لأنها عديمة الجدوى. العمر إن امتد في الأفراح والليالي الملاح يعتبر محسوبًا من الأيام السعيدة. وبعكسه نتاج الموت أو الانسلاخ من الحياة الإنسانية التي هي فعل وليس الانزواء في الظل، وهذه فاتت على كثير من

الفلاسفة في الأزمان السحيقة، أما في عصرنا الحاضر فقد طرحت معادلة الحياة والموت بالإنتاج مهما كان ضئيلاً، فإن لم تفعل شيئًا فأنت في سباق العدم .. مثل جسد بلا روح .. ووجدت نفسي أبحث عن الروايات الشبابية .. الغرامية كما هي مؤلفات إحسان عبدالقدوس ويوسف السباعي. كما بدأت أترنم مع ألحان عبد الحليم حافظ وأم كلثوم ونجاة الصغيرة في أغانيهم العاطفية من كلمات الخيام وحافظ وشوقي وحتى نزار قباني. وفي الليل أرتقي درجات السطح حيث من فوقي القبة اللازوردية الصافية أفتش في أفقها عن النجوم والقمر الذين يسبحون بملكوت هذا الكون الجميل. أبثها لواعج الحب الذي اقتحمني من جديد على حين غرة، وجعلني أهبط السنوات التي تجاوزتها منذ عهد بعيد وأستقر في سنوات الصبا، يوم كنت أشكو إلى أحد هذه الكواكب - قبل أن يقتحمها الإنسان فيلوث أديمها أو يطوف حولها - ما أعانيه من إحباط وتعثر رغم إيماني المطلق بالمستقبل الذي هو نافذتي النورانية إلى العالم، منها أبصر ما لا يرى وأعيش الحلم الذي أنتظره كل ليلة، فأفقده في لحظة يقظة وخفقة حزن أو رعشة هلوسة. كم نرغم أنفسنا على الحياة فيما تكره لأن ما تتوق إليه حجب عنها بفعل القوة الغاشمة، التي تمثلها السيولة المالية والأطيان، ولهذا نبتعد عن طريق الأغنياء الذين لا تشبعهم أموال قارون كما يقول المثل الشعبي: من الجشع الذي لا حدود له. أبي الفقير لا يظهر الضعف وقلة الحيلة إنما يجاهد ويصرح بحمد الله على نعمائه فاسخر منه في داخلي من محدودية أحلامه وتواضع آماله، كما أن النساء كلما أوغلن في السن تدنت مطالبهن حيث تتركز على الدعاء في توفيق الأبناء لا سيما البنات في أن يسترهن الله في بيوت أزواج صالحين لا يظلمونهن بما لا يطقن حمله واحتماله. يالهذه الدنيا التي ضاقت حُدودها بما رحبت في دنيانا البائسة وكأنما خيمة سوداء تعلوها دون أن تفرغ لها

القليل من الغيث. الفتيات المهملات والنساء عامة وحدهن يجدن تسليتهن في اختراق حاجز الأسوار والهروب إلى السطوح حيث الأفق الذي لا يستطيع أحد أن يصدهن عنه ترتفع آهاتهن وشكواهن من خلاله إلى رب السماء مباشرة لكثرة ما يعانين من الشقاء والعذاب الذي لا حدود له، لا يشغلهن سوى التفكير بالإنجاب حيث تكون فرحتهن مع الأطفال هي الحبل الجميل الذي يربطهن بالأحياء ولا شيء سواه . إذ الباقي متاعب وشقاء يمتد طوال النهار في الكنس والطبخ والغسل فيا بؤسهن!!

في الليلة الكئيبة الأولى انهمرت دموعي مثل طفل فقد حنان أمه. أغلقت علي غرفتي الخاصة وتركت الدموع تنسكب وأنا أقبّل صورة صغيرة لها دسستها في قعر محفظتي كانت فيها تبتسم . الجاذبية وهي بداية الحب أمر محير.. إنه اختيار مدفوعٌ بعوامل لا إرادية تمامًا، مثل أن يجذبك منظر طبيعي معين أو تنحاز إلى لوحة دون أخرى وراقص دون غيره، وصوت معين من حنجرة أو آلة موسيقية .. كذا صورة فتاة أو بيت شعري. إنه انحياز لا تفسير له. وطالما سألت نفسي فلم أظفر بإجابة شافية.. الجمال لا يحتكره وجه معين ولا منظر لأن لكل جزء من الجسد جاذبيته المميزة. إذ هكذا هي العيون واستدارة الوجه والوجنتين والفم والأنف وانخراط الشعر وتناسق الجسد، بل وحتى نبرة الصوت وبقية الشمائل. قال لي صاحبي: تصور بأن إحدى الفتيات جعلت كافة العيون تتركز عليها حين تأخذ في الرقص، وكنت ضمن هؤلاء الناس إذ استقرت هي وأنا أحييها كل يوم بعد انتهاء رقصتها المثيرة مما جعلني أدعوها للجلوس إلى مائدتي بعد محاولات مستميتة، ولكن أتدري ماذا حدث بعد أن سمعت حديثها؟ لقد لمت نفسي واتهمتها بالنزق والطيش فهربت!!

شعرت بالوحدة لأول مرة وبأن حياتي خاوية من أي معنى. حقيقة،

إن لكل إنسان مسئولياته الاجتماعية والأسرية، ولكن ماذا عن مسئوليته الذاتية؟ أليس لقلبه وحتى لجسده حقوق مثل باقي مكوناته. هو نفس إنسانية تبحث عن مستقرها العاطفي؛ ولذا تتراكض وراء ما يملأ ذلك الفراغ الذاتي في لواعج الروح الظمأى إلى ما يبل كيانها ويروي عطشها، وليس هناك سوى إكسير الحب ذلك هو رحيق الحياة يتضوع من زنابق دوحة البيادر. فهل أن حياتنا كذبة مغلفة بالوهم، نتظاهر بما نحلم به كواقع بعيد المنال؟؟ والأحلام الليلية لها وقع آخر في حياتنا فهي لا تمثل ما نفكر به إلا ما ندر، وهو ما يحدث لي على الأقل فما أراه في النوم لا أكاد أتذكر منه بعد اليقظة سوى معالم جانبية أحار في تفسيرها وكيف سقط عليها ذهني دون غيرها؟ إذ لا أذكر قطعًا أن حلمًا جانبيًا رأيته واقعًا لأن علاقته واهية بأحلامي الحقيقية وبما أفكر به، ومن يكترثون بتفسير الأحلام لا يخرجون منها بشروى نقير.. فما هي أكثر من فقاعات تتطاير مثل الرياح. على أنني لا أنكر تمتعي بطيوف الأحلام التي تزورني في أثناء النوم فأعيش معها فترات ليست واقعية دائمًا إنما هي متوازنة في أكثر الأحيان ولا تخرج عن المعقول، وهو ما يحيرني إذ المفروض أن أتحرر من الاتزان لاسيما في تلك الفترات؛ فأنطلق على سجيتي بيد أن سيطرتي على تفكيري تحرمني من انطلاق تلك المتعة وقد طرحت التساؤل عن أسباب هذه السيطرة على بعض من توسمت فيهم خلفية علمية واسعة. فكانت الإجابة المتوقعة: إنك تشعر بالجبن والخوف من إطلاق العنان لمشاعرك. وهكذا وصفت نفسي بالجبان من شيء وهمي يستولي علي لا سيما وجوهرتي تتراشقها النظرات الطامعة. فهل هذه بوادر الحب الأفلاطوني الذي كنت أنتظره في سالف حياتي؟ لست أدري، فقد اكتظ به قلبي أكثر من مرة ثم تلاشى مع مرور الأيام التافهة.

(6)

وجدت الحيرة والوحدة تلفني من كل جانب لولا ذلك الخيال المبهر.. خيال الفتاة التي استولت على كل تفكيري الحالم.. تفكير الرجل الذي فقد عمره في ممارسة لم يخرج منها بتجربة تهز مشاعره إلا لفترات قصيرة سرعان ما طوحها الزمن باستثناء هذه العقدة المستحكمة التي ربطته إلى امرأة كان يتصور أنها تمثل أحلامه، فتحولت إلى عصي تضرب مشاعره من خلال العلاقة اليومية البائسة في حل مشكلات الأطفال التي لا تكاد تنتهي إلا بشجاري مع تلك المرأة التي قدر لها أن تكون زوجتي.

لبثت أفكر هكذا والخوف ما زال يسيطر علي فماذا أفعل حتى أجعل الحبل مستمرًا بيني وهذا الوافد الكاسح من غليان المشاعر؟ هداني تفكيري إلى إرسال مجموعة روايات عاطفية لحبيبة العمر حتى أجعلها تحس بارتباطي العاطفي معها. فكان ذلك التفكير سببًا في جعلها تتذكر ذلك الرجل الغائب. الرجل الذي اقتحم حياتها على الرغم منها . والخوف من الأمور التي لا ترتبط في حياتي بحادث معين، إنما هو بمثابة سلك مشدود إلى تفكيري بل إلى أعماق التفكير من أنني لم أجد نفسي بطلاً في أضغاث أحلامي بل هاربًا مرتجفًا يخشى طعنة نجلاء من تراكم إحباطات الطفولة وتداعياتها أو قبضة تحطم رجولته فيا لها من طفولة نالت التحطيم والتهشيم على جوانب عدة من ذلك المرفأ الصغير.. الباهت.

على أن المثالية استحوذت فيما بعد على تفكيري إذ ما زلت وحتى هذه المرحلة من العمر أبحث على غير هدى عما تبثه المثالية من مشاعر تجعلنا نميل إلى النقد بحثًا عن تلك الرومانسية الغارقة في الخيال - كما يقول الخصوم - لأنها لا تستطيع أن تعيش في مجتمع كالمجتمع

العربي ما زال التكافؤ فيه محدودًا، وبين الحق والباطل عداء سافر لا يقف عند حد! وحتى أكون أكثر شجاعة وتجاوزًا لعقدة الخوف المستقرة في أعماقي تجرأت على كتابة رسالة بإيحاء منها إذ أخبرتني أنني أستطيع الكتابة لها على عنوانها ولكن تحت اسم (أنثى - المرسلة). ولما كان من صفاتي المعروفة موهبتي في الكتابة التي تنم عن شاعرية ورومانسية؛ فقد أوضحت للحبيبة مبلغ غرقي في حبها وعدم استطاعتي الابتعاد عنها مهما كلفني ذلك من ثمن لما تبقى من عمري الذي أكافح بأن يمتد حتى أهنأ بفترة سعيدة حقًا . أنا الإنسان الخيالي الذي أعيش فوق صفيح ساخن من الواقعية التي تأبطتني منذ شرخ الشباب لولا فترات من التحريض نحو الفلسفة فتمزق تفكيري بين الواقعية الصلبة المعيشة والمثالية الحالمة الشفافة.

وكانت عصارة الحب اللاهب هي محور الرسالة الأولى التي لم أكتب أرقّ منها من قبل بتأثير قوي من قراءاتي التي لا تكل في مصائر البشر. فهل الأدب هروب بطريقة أو بأخرى من الواقع، والابتعاد عنه إلى مصائر البشر في أنحاء متفرقة من المعمورة؟ ربما لأن البحث عن الالام من صفات الساذجين الحالمين الذين تربطهم بالضعفاء والبسطاء أواصر ووشائج لا تنقطع مهما اختلفت المواقع والأمصار. انتظرت على أحر من الجمر تأثير ما كتبت إلى فتاتي التي لا أعرف عنها سوى أم مطلقة تعيش بمفردها مع هاتين الابنتين رزقت بهما من أبوين مختلفين يتولى العناية بهما شقيقان لها اثنان، ويحكمان السيطرة عليهما لاسيما هذه الكاعب الجميلة التي من السهولة اختيارها كهدف ناعم لطيف من فريق الشباب العابث أو الوافد الذي يبحث عن المغامرة مع جنس فاتن له مثل شمائلها وصفاتها المميزة ذات الجاذبية. والغريب أن الخوف عليها استبد بي بسرعة وكأنما سنواتها الماضية مرت بدون حماية ربانية. بل أخذت أتحدث مع نفسي عنها. القراءة والرسالة وتأثيرها على حياتها اليومية

ودراستها الجامعية. شعب طيب كثيف يتزاحم حول مواقع محدودة بموارد ضيقة أيضًا . البطالة تحكم عليه الخناق وكثرة الإنجاب صفة ينفرد بها عالمنا العربي المزحوم بالأمراض والفقر والمنافسة المتكالبة على الرزق، وتذكرت كيف أن حقيبة السفر تنتقل من يد إلى أخرى قبل أن تستقر في عربة أجرة وربما مرت على يد عسكري أيضًا لا أعرف ما دوره في هذه العملية! سيطرت عطر على تفكيري ليل نهار فلم أعد أستطيع أن أستلها من برنامج الهموم اليومية التي أعانيها لاسيما وقد بدأت أتضايق من خطواتي اليومية المحصورة في أفق ضيق لم أعتد عليه في العلاقات المتشابكة . وقد وضعت لنفسي خطوات قصيرة تضايقت منا وإن لم تكن غريبة علي فأنا بطبعي أميل إلى الوحدة وأحاكم نفسي من هذا المنطلق بل وأحاكم الدنيا والعالم وأضع سؤالاً كبيرًا يؤرقني في الكثير من الأحيان، ما هي جدوى حياتنا في هذه الدنيا؟ أليست لنا رسالة نؤديها نحو العالم من حولنا؟ وما هي الأشواط التي قطعناها في هذا السبيل؟ ألسنا سجناء برغبة منا في هذا النطاق الضيق؟ ورحلتي هذه هل أضاعت مني عقلي أو أضافت إليه تجربة جديدة ما الجدوى من تحملي لها؟ الحب قول جميل ومثالي ولكن هل نعايشه نحن بتعقل وروية أم باندفاع أهوج؟ والناس من حولنا لماذا ينظرون إليه بمثل هذه الريبة والرعب؟ هل هو حلال في عرفهم أم جريمة كبيرة لا تقترف إلا بشروط محددة؟ وما ذنبنا نحن الذين نقع فيها دون احتساب وترصد لها ؟ لقد سألت نفسي أكثر من مرة: لماذا اختارتني هذه الكاعب دون عباد الله الآخرين؟ ما هو الفرق بيني وبين الآلاف الذين التقتهم على مدى عمرها العشريني. قطعًا لا توجد صفة واضحة في سلوكي أو هيئتي فما الذي أغواها ورماها إلي؟؟ أسئلة محيرة طرحتها أكثر من مرة لعلي أظفر بجواب يجعلني أتمسك بتلك الصفة الوحدانية، فلعلها تفيدني في أوضاع أخرى مادامت تلك ميزة

فريدة. أصبحت نهبًا للأسئلة التي تنثال دون توقيت محدد إذ أراها ماثلة أمامي في سيري منفردًا أو واقفًا بين مجموعة من الناس. لبثت أنظر في عيون الناس وهم يتحدثون إلي، لعل أحدهم يفلت كلمة يكون فيها بعض الجواب لتساؤلي الممض. وفي تصوري أنها لابد واجهت نفس الأسئلة التي لن تجد تفسيرًا لها، فما هي حكمة الله يا ترى في تركنا نواجه ما لن يتسنّى لنا معرفة أبعاده إلا بعد عذاب طويل من المعاناة؟ وما هو وقع الأمر لدى أفراد أسرتي عند معرفة هذه الحقيقة هل اتهموني بالجنون الكلي أم وجدوا لي بعض المبرر باعتبارها نزوة يقع فيها أمثالي من الكهول الذين ينظرون إلى الحياة من ثقب واحد هو دافع الخير في السلوك وليس تغلغل الشر في كل تصرفاتهم وهذه الاعترافات التي أسجلها على نفسي من الذي سوف ينصفني حين يقرؤها؟؟ ما نسبة الذين سوف يتعاطفون معي أو يرجمونني بأوصاف العبث والتسكع والنزوة؟ ثم من الضحية في النهاية.. هي .. هو.. هم؟ وجاء الرد عن طريق البريد.. رسالة هزت كياني وإن كانت عباراتها بسيطة رقيقة قلقة تدل على أن كاتبتها لا تحسن التخاطب الكتابي. تتكلم عن الحب ولكنها تهرب من تأثيره ولا تعلم ما نهايته. ولن أبالغ في القول بأنني تلوت الرسالة عشرات المرات، بل حفظتها عن ظهر قلب فانتقلت إلى ذاكرتي مع أهم الأعمال التي قرأتها في حياتي المريرة، دروس الماضي القاتم، الروايات العالمية، القصائد المبدعة.. أحداث التاريخ التي أثقلت على وعيي، الابتسامات القليلة التي منحتها لي الحياة، السعادة المطعونة قبل أن تكتمل.. الأحلام المدفونة في بيادر لا نهاية لها، الضجر الذي عانيته منذ طفولتي المسحوقة.. الفشل الذي تكبدته بصبر الأنبياء والحكماء، أيوب الذي أحبه لأنه لم يتذمر رغم كونه من الرسل. وأكثر ما كان يؤلمني أن الدموع لم تسعفني حتى تخفف من وقع التعاسة على قلبي المطعون بالفشل. ويعود السؤال من جديد: ما نفع البشرية من وجودي بينها؟ هل

كان دوري أن أزيد العالم في تعاسة هذه الفتاة الجذابة التي لا تعرف عني سوى المستقبل الكئيب، والاندفاع نحو النهاية الفاجعة مهما بعدت في نظري أو أحلامي ؟ هل كتب علي أن أحمل معي إلى القبر هذه الهموم التي لا يحتملها سوى اليافع وليس الغارق في لجج لا تحدها شواطئ من الأحلام والكوابيس. وتذكرت في هذه اللحظة أبي - رحمه الله - الذي كانت أمنيته أن يزور المسجد الأقصى ويصلي فيه، وحين رأى أن العمر يفلت من بين يديه ولم تكن حالته المالية تسمح له بمثل هذه الخطوة اضطر إلى رهن منزله حتى تتحقق له هذه الأمنية، بالفعل أدى تلك المهمة التي حلم بها وخسرنا نحن المنزل الذي لم يرجع لنا ثانية بعد تركنا له عدة سنوات. فهل تتحقق لي أمنية في نهاية حياتي حلمت بها ؟ المشكلة أنها أمنيات عدة وليست واحدة فكيف سوف تتحقق لي؟ على أنه للحقيقة لم أحلم بتجربة حب كبيرة سوف تحدث لي في حياتي مثل هذا الانقلاب العاصف مما كنت أحلم به قط رغم مروري بتجارب حب ساذجة فهي فوق التوقع مما لم يجعلني أفكر بها على نحو عقلاني أو موضوعي!! ولكن هل الحب يأتي في العادة متمهلاً متلبسًا يسير بعقلانية ويخطو خطوات محسوبة أم إنه يأتي مثل حالة مفاجئة لا تلبس وأن تستحوذ على كافة شعور المرء مثل جاذبية لا تقاوم؟ فالتفاحة التي على الشجرة بعد أن أصبحت ناضجة لم تستطع احتمال وزنها فسحبتها الجاذبية لقوتها القاهرة. وهكذا الحب في تقديري، إنه ينطوي على جاذبية لا مجال لكسر شوكتها وعلى حين غرة مهما كان الإنسان قوي الإرادة بدليل أن أعظم الزعماء ومن العتاة الشرسين والعسكريين بالذات أدركتهم هذه الجاذبية فانحازوا إليها. فهل تحمل مثل هذه الجاذبية جرثومة (معذرة لهذا التعبير) لم يعرف الإنسان مضادًا علميًا لها، وهل تستقيم الحياة بدون هذا التلاحم بشكل أو بآخر؟ إذ إنه منذ الخليقة تواجد آدم وحواء في مكان وشعور واحد ربطت بينهما الألفة

- الانجذاب، الحب - ولولا ذلك لافترقا حتمًا. كما أن الشيطان سيطر عليهما بالتساوي ليأكلا من الشجرة المحرمة في الجنة فكان جزاءهما الطرد منها لاقتراف هذا الذنب - المعصية الأولى - أمام إرادة ضعيفة لا تحتمل المقاومة. فالحب - العشق - العداوة تزامن مع استقرار الإنسان على الأرض مطرودًا من الجنة. وقد عانيت من انفضاض الأقارب من حولي عندما علموا بهذه الجرثومة، التي أصابتني وتلبستني فتركوا لي احتمال وخزها وعذابها بينما الوجه الجميل يفيض علي بإشعاعه وحنانه لأسمع من وراء الحجب كلمة كدت أنسى معناها، وإن شعرت بدبيبها يسري في دمي إلى قلبي "حبيبي" يوقظني من شرودي ليعيدني إلى أحلام وردية كانت غائبة عن الوعي. غائرة في أعماق السنين العجاف يوم رحلت من عالم الطفولة إلى دنيا الحياة الواسعة. وكان حب بنت الجيران يخيّم عليّ، فالاقتراب منها يحتّم الابتعاد المرحلي حتى أعد نفسي لاستلام زمام مستقبلي الضائع الذي أنقب فيه عن استقرار قد يلوح بعيدًا . تلك صفحات مطوية في أعماق ذاكرة مكدودة ننبشها بين الحين والآخر لنستضيء بها من تعاسة العمر وقتامة الواقع . فماذا أفعل في هذه العاصفة التي توشك أن تقتلع جذور الصبر الذي أجبرت نفسي بأن أعانقه؟ لابد أن أعد نفسي لمرحلة جديدة تطفئ لهيب القلب المشتعل بنبضات تخترق جوفي وتوشك أن تندلع خارج صدري. وكلمتها لي "سأنتظر عودتك بفارغ الصبر" تلوح لي من وراء السحب.. من وراء الغمام حتى لم أعد أهتف إلا باسمها مع كل من أخاطبها من أفراد الأسرة فتهامسوا بأنها صنعت لي عملاً محكمًا مع وسطاء الجن حتى تسيطر علي!! فسخرت منهم قائلاً:

- وما هو هذا الكنز الذي ظفرت به من وراء كهل محدود الدخل؟

وكنت قد أعلنت لها صادقًا بأنني لا أملك من الدنيا سوى مورد ضئيل لا يكاد يشفي غليلي فردت على الفور: لا قيمة عندي للنقود ولم

أحفل بها في يوم من الأيام فلا تحدثني عن هذا الجانب مرة أخرى إنما اخترتك لصفاتك اللطيفة. طيفها يناجيني: أين أنت يا صاحب القلب الكبير والرفقة الماتعة. تسرح شاردًا حتى وأنت تحاول أن تنسجم مع الرقص الذي يجذب الشباب من حولك في صحن لاستعراض الفنون الجديدة على أنغام موسيقى تعلو تارة وتنخفض أخرى في جو يعبق بالمرح ويصدح بالحرية التي لا يعكر نشوتها حتى بعض الذين متحوا الكثير من الكحول حتى الثمالة؛ فتاهت عقولهم في نوبات من التأوهات أو تعثروا في خطوهم بين كتل الأجساد المتعانقة. أو باختطاف قبلات سريعة لا تصيب موقعها آو مكانها المحدد. والليل في الخارج يتعقبه نهار يبزغ بالتدريج على حواف هذه المدينة الهرمة التي شاخت العقود في جنباتها حتى تجاوزت المئات من السنين، وقذفت ملايين البشر خارج أحضانها بعد أن سئمت من صراخهم بين ظالم ومظلوم، تعيس وجائر فيالبؤس الأحياء من صراخ الأموات واستغاثاتهم.

ومن جديد وجدت نفسي أمام السؤال الحائر إذا كانت الأحلام التي تتفشانا في منامنا بعيدة عن سيطرتنا الذهنية. فلماذا أجد نفسي مقيدًا في الغالب على النحو المألوف في حياتي المعتادة؟ لماذا لم أصبح جبارًا عتيًا يشار إليه بالبنان بدلاً من هذا الاستسلام والرضوخ لتحكم العقل الواعي اليقظ؟ تمنيت مرة واحدة أن أجد نفسي ذلك الباطش الذي يواجه الأمور بصلف وكبرياء، فلا تخضعه الضغوط والالتزامات الحياتية والسلطة الدنيوية لذلك الاستسلام بعيدًا عن الآمال المجنحة التي تذهب في الخيال السرمدي لأتهم بالغرور العذب والتمرد مرة واحدة في حياتي إذ لم يعد هناك فارق بين الصحوة والمنام وهذا منتهى الشقاء بأن يفقد الإنسان سيطرة التحكم من داخله ليطلق العنان لأحلامه؛ حتى تخفف عنه معاناة الواقع المرير الذي يرزح تحت كاهله كمجاثم لا يرحم مثل الرحى التي نهرس بها قمحنا ليتحول إلى دقيق نتغذى منه يوميًا. وذات

مرة كدت أفقد عقلي فقد استيقظت في منتصف الليل من النوم لأقبض على بقايا حلم يتبدد. كنت قد رأيت نفسي مع أحد الأصدقاء - نسيت من هو تحديدًا - نتحرش في مكان عام ببعض الحسناوات. فرحت تلك الليلة وبقيت ساهرًا حتى الصباح لأن الله استجاب لدعائي بالتحرر - ولو بالحلم - من سيطرة العقل على كامل تصرفاتي حتى وإن كانت ساذجة وملتبسة. إنما أرجو من الله أن تكون بداية لتحرر أحلامي من هذا الكابوس الجاثم.. كابوس العقل المتجبر مثل دكتاتور طاغية لا يتزحزح من موقعه مهما اشتدت من حوله المصائب .

(7)

كم أمضيت من الليالي الكئيبة بعيدًا عنها ؟ لا أعرف حيث تلازمت الأيام على وتيرة واحدة كهموم جاثمة لا تحصى.... وأمل بعيد في لقاء مع أعز مخلوقة تعرفت عليها في الوقت المتناسل من العمر الذي يحتضر حسب مقولة العقلاء من أسرتي بأن أبتعد عن هذه الفتاة حتى لا ألطخ آخر أيامي بأفعال تزيد من ميزان سيئاتي.. بينما أحتاج في آخر العمر إلى ما يرجح كفة الحسنات خاصة أنني كنت على عداء شبه سافر مع تعاليم الدين في الحقبة الأولى من العمر القصير الذي التوى ما بين خصام لواقع المجتمع أو مضادة مع التعاليم التي كنت أسميها "معلبة" لفرط تأثري بالمذاهب الفلسفية الوافدة من المعسكرات العلمانية (بزعامة روسيا الاشتراكية التي لا تعترف بالأديان السماوية) مع أنني أديت فريضة الحج وطفت بالكعبة المشرفة للعمرة أكثر من مرة، وها أنا أختم صلواتي بالأدعية والضراعة أن يهيئ لي ربي استقرارًا وتصرفًا يقبله الناس بعد أن غمر نفسي إحساس بأنني لم أفعل ما يغضب الله، وأن الحب - حسب معرفتي - هبة من الإله لعباده والذي لا تستقيم الحياة بدونه على الأرض. وهكذا استجبت لنداء الحب وهيّأت حقيبتي

حتى تكون جاهزة لاحتواء بعض الهدايا التي تعزز التصاقي بهذه الفتاة محتملاً نظرات السخرية التي تغشى باطن قلبي مع تلفتي بحثًا عن طير يحوم حولي لا يرى له طيف وإنما يعبئ أفقي بضوع لا يستطيبه سواي. يقولون عني همسًا ألمحه تصريحًا:

- يا لتعاسة هذا الرجل .. يكاد أن يفقد عقله في آخر أيام عمره. ترى ما الذي سوف يستفيده من فتاة تائهة ضلت طريقها إليه. ما الذي سوف يستطيع تقديمه لها حتى تلتصق به. كتب تقرؤها ثم تمل من تقبلها. ما فائدتها من معرفة كبار العشاق الذين فتنوا بمحبوباتهن ثم افترقوا عنهن بسبب الجنون والخبل. ألن يحاسبه الله على إصراره في غواية هذه الكاعب، وسحبها إلى محرابه المتآكل فيجعلها تنصرف إلى ما ينفر من هذه العلاقات البائسة القائمة على الشجن وسهر الليالي الطويلة؟ هل العشاق من طينة غير سواهم من عباد الله، وأين المتعة من عذاب مقيم لا نهاية له؟ ماذا جنى قيس العامري من حب ليلى؟ ألم ينته العذاب به إلى الجنون بعد أن فقد حبيبته مرددًا:

أمرُّ على الديار ديار ليلى أقبل ذا الجدار وذا الجدار

ألم يجعل تصريحه هذا كافة المحبين يذرفون الدمع لنهايته البائسة. ثم في بلاد الغرب ماذا حدث لأنطونيو وعشيقته كليوباترا ألم يدفنا كما يقال في قبر واحد لأن نهايتهما الفاجعة كانت في لحظات دامية . إذًا هذه نهايات بعض المعذبين بالعشق فلماذا يتدافع الناس نحو أسباب هذه الخاتمة ؟ أهو قصور في النظرة البعيدة أم قدر لمصير محتوم؟ بالنسبة إلي لم يتخلل ذهني مثل هذا السؤال المشاغب لأن ما يقع في حدود القلب يرفضه الذهن الذي يحتكم إلى الأسئلة المزعجة فالقلب لا يحتمل مقاضاته؛ لأنه يتحكم في نزوة المشاعر وعذاب الجسد. إذ بدون الحب تتهاوى المعاول وتسقط القامات فتفرغ الإنسانية من محتوى إكسيرها الوهاج. وحين اكتشفت أمها وجود هاجس جديد في تصرفات ابنتها

صارحتها فتاتي بأنها وجدت وظيفة تشغلها في المساء لقاء أجر مغر مما أدخل السرور إلى قلب الأم الطيبة؛ لأن في ذلك تخفيف عما تعانيه من شظف العيش.. على أنها اقترحت بأن يكون الأمر سرًا بينهما حتى تتضح الرؤية عند أخوالها المشاكسين مما جعل اتصالي بها هاتفيًا على منزلهن ميسورًا - في الخفية من الأخوال الذين كانوا دائمي التردد على منزلهن بحجة حماية الأسرة من الذئاب البشرية المحيطة بها - حتى نستطيع التلاقي والقيام بنزهات محدودة يكتنفها التبضع لأن أسواق الاستيراد التي حرص عليها عهد السادات كانت كفيلة بجعل النساء يتوقفن كثيرًا أمام الواجهات التي تكتظ بالبضائع الأمريكية والفرنسية الحديثة ويتهدن متحسرات؛ لأن غالبية الطبقة الوسطى لم تستدل بعد على الأبواب الخلفية لتسرب أموال الدولة. فكنا نكتفي بالتبضع المحدود، ورغم ذلك فقد كنت أرى السعادة تطوف على محيا حبيبتي مما يجعلني أطمئن إلى شعورها بمقدرتي المحدودة ماديًا واقتناعها بأن القليل قد يكون مدخلاً إلى الكثير .. واستمرت اللقاءات البريئة في الأماكن العامة: مسارح، فنادق فخمة، حدائق، حفلات.. حتى تسرب النبأ إلى أخوالها الذين نبهوا إلى أن الاختلاط لا ينبغي أن يتعدى حدود المكتب، ولكن كيف يرتاح المحب بأن يرى حبيبته تتقاذفها وسائل المواصلات منفردة؟ أفلا يحق له المحافظة عليها بإيصالها إلى المنزل وأخذها منه، وما دام الأمر في حدود المعقول وعلى مرأى من جميع الناس فلا خوف من أمثال هذه الخطوات الرسمية .. وامتلأت أمعدتنا بصحاف المطاعم المشهورة على أنغام الموسيقى والتي كنا نختارها بعناية إمعانًا في احترام أنفسنا بين أفراد الطبقة الموسرة، وكنت أحرص على ألا أطيل المكوث في الخارج تحسبًا للانتقادات الاجتماعية مع أن عنواني الثابت لا يبتعد عن الفنادق المعروفة وصار من الميسور علي أن أتصل بها من منزلي لأطمئن عليها في خفية من الآخرين ثم نقلت حبيبتي إلى

أمها رغبتي في خطبتها بعد أن دعوتها إلى وجبة غداء احتفالاً بمرور عام على علاقتنا، فكان الجواب حياديًا أي معلقًا بموافقة أخوالها رغم خوفي من خطوة الارتباط هذه لفارق السن بيننا. وقد استمالت هي أحد أخوالها للموافقة. فكان أن أقمنا حفلاً باذخًا في كازينو مرموق استمر حتى الساعات الأولى من النهار جعلني أرتشف الكثير من كؤوس الراح ابتهاجًا حتى تعتعني السُّكْرُ وأفقدني رشدي بينما طنين أوتار الموسيقى يعج في رأسي وحبيبتي تحاصرني في رقصات الفرح وهي تزهو بقلائد "الشبكة" والأساور التي احتوت على الكثير من القطع الذهبية المطعمة بالألماس حتى أنني في اليوم التالي حين استيقظت مشوش الذهن، بادرت بالاتصال بخطيبتي معتذرًا عما بدر مني من تصرفات صنعتها الخمرة فإذا بها غاضبة كثيرًا لولا أسلوب الكياسة وصريح الاعتذار بالخطأ الجسيم الذي ارتكبته، وأمضيت يومي أعض على نواجذ الندم لأن الخمرة لا تفيد في مثل هذه الحفلات الساهرة لاعنًا من اكتشفها وصنعها، حتى تذكرت أنها وجدت من أيام الجاهلية في ديارنا. فيالنا من قوم يبحثون عن ضياع عقلهم منذ آلاف السنين! وما زال الرجل يتخبط بين سيقان النساء وموائد القمار حتى يرتوي ظمؤه من الموبقات لولا أن الحب الصادق يقف حائلاً دون انهيار قواعد الخير بين أبنائه.. هكذا توصلت إلى مرافئ الطيبة في هذا العالم الذي ينشد السعادة في أغنيات الحب وأحلام الغد، تنهمر عليه رقراقة بالنبل ورفرفة الزنابق مع رياحين البيادر المتضمخة بالعطور ورضاب الندى. وكان الدمع عصيًا فلم أذرفه لأن شقائق النعمان غمرت قلبي بحسنها وعطرته بزخرفها. والعشق لا يبتئس فمهلاً يا أغنية الغد تسفين الورود على أضلاع مملكة الهوى التي تضفر جدائلها حول حلمنا الصغير الذي تطريه تلك الهمسات في ليل بهيج يبزغ نوره مع شعاعات الفجر الوليد؛ ليضفي على المعمورة أنشودة الصفاء وانسحاب تراكمات الرماد من عالم المقهورين

والتعساء. وعندما انزاح ذلك الغمام أشرق وجه حبيبتي بالضياء واحتضنني عشقها فأمطرتني بعناق الجزع من كلمة الفراق وانهيار أحلام الأمل الذي أشرق يومًا في سماء حياتنا وما زال يضيء دروبنا المتكلسة بعثرات الآخرين وخيباتهم في منحنيات لا تستقيم بغير المعاناة والعثرات!!

أعترف بأنني كدت أفقد عقلي بمجرد التفكير بابتعاد ضيائها عني وعطرها من حولي. رأيت أحلامي وأنا أدفن طاويات قدري معها. إنها لي بقلبها البكر الذي لم ينبض بالحب قبلي باعترافها ولم يراوغ في توصيل رسالة الانجذاب نحو مخلوق آخر. فما هو هذا الخيط الذي امتد منها حتى التف على جذور قلبي في لحظات قليلة حين دعتني لمقابلتها في يوم آخر بعد ليل لفظ أنفاسه في عيون الساهرين؟ أي شعاع احتواه قلبي في نظراتها البريئة فجعلني أتنسم ضوعها حتى رأيتها وقد انكسر النعاس في العينين السوداوين فتألقتا بذلك البريق الموشي بجاذبية الصدق بعيدًا عن المخاتلة وذبذبات الافتعال، وما أحلى لغة العيون عندما تعكس ما ينطوي على صدق أعماقنا. إنها تتحدث بلا حجاب أو فاصل مهما كان نوعه. كما لا تستوحي أي عنصر غير شفافية أعماقها. ولهذا نتوخى دخيلة الآخرين من تركيزنا على العينين قبل التباس الألفاظ وتناثر الرؤى، فهل انحزت إليها لأنها باحت لي بسريرتها دون تلكؤ أو مواربة متوسلاً اقتلاعي من حفرة الفناء إلى دنياها الواشية بالكثير من الأحلام الوردية التي ما زالت تحت طيات الغيب مفعمة بحيوية عمر ما زال يبدأ صفحاته البكر بعبق الزهور وإشعاعات الوعي. هي الأنانية يا فحل الرجال فأين تذهب من الحساب الذي سوف يطاردك مهما سرقت أو تاجرت بأعمار الآخرين، الطيبون والأخيار يُمتدحون بالمنح والعطاء وليس الأخذ والاستحواذ، فماذا أنت فاعل في انتهاز تاريخ غيرك. التشبب ليس صفة أخلاقية حتى وإن أضمرت ببيع

عمرك بلا تردد في سبيل إسعاد من اختارتك لتستند إليك بطواعية ملتهبة. إلهي ارفق بي إن كنت ضالاً وأحسن جزائي إن أخلصت لمن اختارني بمواصفاتي الضعيفة إذ لم يعد لي من العمر الكثير حتى ألهث مندفعًا وراء سراب يدخل البهجة إلى نفسه المترفعة وإخلاصه لنبضات قلبه الكبير مندفعًا بكل ما أوتي حتى يراني صنوًا لتضحيته وملاذًا لغده.. إن قلبي لينفطر حينما أعجز عن مجاراة أحلامه وتخوم طموحه ومع ذلك لا أماري عن المراهنة بأن قلبي تحت أقدامه ورهن لمشيئته إذ لم تعد أمامي منافذ لدنياي لأقفلها أمامه أو أشب فوقها بمفردي فهو الأمل الذي يغمر كل ما ضاع من العمر البائس الحزين !! واستدعاها والدها إليه في المنفى وأقفل عليها أسوار منزله عازمًا على احتكار غدها بين كفيه، ومع ذلك استطاعت أن تنتزع لحظة انفلات من أجلي، وفي هذه اللحظات الموجعة بالمرارة وتمسك حبيبتي بشمائل حبنا ودفاعها المستميت عنه صرخت الرجولة المقهورة في أعماقي.. قائلة :

- ليحيا الحب .. لقد انتصرنا نحن العشاق.

(8)

ورثيت لحالة الضعف التي تعتريني فلا أستطيع مجاراة كاعب في إقدامها على مواجهة سلطة والدها والتحكم في مصيرها فبكيت قلة حيلتي وانكفائي على نفسي المتواطئة في ظلامية المصير وفكرت باللحاق بها ولكن كيف سيتسنّى لي معرفة مكان اعتقالها، وليس لدي عنوانها سوى أنها في القارة الأمريكية اللعينة. وشاع في الأسرة أنني أقترب من الجنون مادمت أبكي لمجرد سماع صوت الفتاة التي أحبها عبر الأسلاك في هذه السن، وتحلقوا حولي يسألون عن العلاج؛ وأنا الغارق في بحر الضياع والتيه ولم أكن أجيب؛ لأن الدموع التي تذرفها عيناي أبلغ من أي كلام تلفظه الشفاه.

انقطعت المكالمة وقلبي يحترق ولم يكن أمامي من ألجأ إليه سوى أمها المسكينة التي طمأنتني بقلبها الطيب ولسانها الصريح أن علي الاتكال على الله والبحث عن أجر ركوب الطائرة، حتى تعيد ابنتها إلى وطنها؛ فدب الأمل في قلبي المفعم بالرجاء بأن تتجاوز حبيبتي الصعاب التي أمامها وتعود سالمة إلى وطنها، ولكن كيف وهي محاصرة في منزل والدها الذي يصر على تزويجها رغمًا عنها؟ وأمضيت عدة أيام لا يعرف النوم إلى عيني سبيلاً وإن أرقني السهر والتعب لبعض ساعات فكنت أغفو هنيهة؛ لأهب بانفعال متسائلاً: هل من مكالمة خارجية لي؟ وكنت أجاب بالنفي لتنهمر دموعي من القهر والخوف على حبيبتي وما تتعرض له من هوان في كنف والدها الفظ.

وألغى هذه الذكريات الكئيبة صوت حبيبتي تدعوني عبر الهاتف بأنه ليس أمامنا سوى إعلان حبنا للعالم أجمع بالزواج. وارتعدت فرائصي أمام تصميم هذه الكاعب أن نمضي حتى نهاية الطريق دون أية استعدادات سابقة خاصة ونحن نسير في نهاية العام الثانى من حبنا المتأجج فلقد عادت هاربة من اعتقال والدها المغترب بعد أن تهيأت لها سبل الإفلات من ذلك السجن في نهاية الأسبوع إذ يصطحب الرجل بدونها أسرته أسوة بالمغتربين في رحلة تدوم طيلة النهار وهو ما أتاح لها فرصة لتنفيذ مخطط الهروب بمساعدة قريبة لها من الأسرة المغتربة. وكان علي أن أختار بين حياة جافة لا أثر فيها لأي تجديد وبين مغامرة للهروب نحو المستقبل بمعية فتاة صغيرة فتحت لي قلبها فدخلته طائعًا حتى تنسمت من خلاله عبير الحرية والحيوية المتدفقة من منافذ الحب الجامح، واعتزمت أن أقفز مراحل العمر حتى أصل إلى طموح لم أفكر به من قبل. . طموح يشبه الرياضي المقدم على تجربة إما أن ترفعه إلى مستوى المبرزين أو تطحنه في خيبة الأمل. وقررت ركوب موجة التجربة العنيفة التي أتحدى بها بعض الأجيال دون تحرش شخصي. وعقدنا

زواجًا مدنيًا ينقذنا من عنق الزجاجة ويحقق لنا حرية انتظرناها طويلاً تحت مظلة القانون؛ لأن الزواج الرسمي يحتاج إلى موافقة جهات حكومية متعددة. على أنه لم يشاركني فرحة القرآن بكل أسف سوى صديقة لها بحضور صديق لي والمحامي وشاهد من موظفي الفندق الذي أنزل فيه . وعلى الفور انتقلنا إلى شقة مفروشة حتى نهيئ لنا وحدة بعيدًا عن عيون الحاسدين. ولم يدع لنا دم الطمث أن نسعد كثيرًا إذ اقتحم علينا أسبوع شهر العسل من أوله فجعلني أسافر لجمع بعض النقود لمتابعة شهر العسل من وسطه أو آخره لأن نفقات حفلة الخطوبة استنزفت كافة ما بحوزتي من نقود. ودّعتني حبيبتي إلى المطار: حيث انهلت عليها أقطف القبلات الشرهة الوالهة.. وكان علي أن أكفكف الدموع في الأفق بعيدًا عن عيون الركاب.. يذهب بصري عبر النافذة إلى الغيوم التي تتشكل تماثيل وقصورًا وأشجارًا وأنهارًا ووديانًا، بينما مركبتنا الفضائية تخترقها وهي تئز وتلفظ دخانًا سريعًا في هذا التيه اللامحدود من الفضاء كان في الأبد تشكيلات متغيرة عبر ملايين السنين خلال زحف الكواكب نحو بعضها أو التحامها وتصادمها. فلم يظفر بالحياة من سكانها سوى أهل الأرض بأمر الله حين دفع بآدم وحواء إلى الأرض ليتناسلوا فيها: ﴿قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ مع احتمال وجود حيوات أخرى على كواكب غيرها إلا أنه لم يحدث اليقين في هذا الاعتقاد لاسيما والإنسان يحاول جادًا اكتشاف الكواكب المحيطة بالأرض، ولقد أعلنت وأنا أتخفف من القدرة على التصرف بمصيري بأنني أميل بكل ما تبقى لي من خير إلى هذه الكاعب البريئة أتحمل ما أستطيع من وزرها ولا أطلب منها سوى أن تعفو عني لكون أنانيتي أوثقت بعض حريتها بدون عدل.. فيا نجواي كوني قريبًا من رفاتي حتى أتنسم بعضًا من طيب ضوعك.. إذ لست أنشد بعدك سوى رحمة ربي الذي أفاء علي بسحر

لقائك ونقاء حنانك.. رغم ما بيننا من بون شاسع في العمر، لولا أن الحب النزيه والانجذاب الرفيع ألغى تلك المسافات وجعلها تذوب في صدق المودة والعطاء؛ لأن قلبك استمر نقيًا يجوب البراءة ويتفاعل مع الخير، فقد رضي بقلب جعلته الأعوام طريًا بعد أن عصى الخيانة وارتضى البعد عن المنكر فمنحته بياض الرداء وبساطة العطاء، فبقيت إلى جانبه تذبين عنه وتدافعين عن نقائه فلم يرتب بفيضك عليه وتسامحك معه، فخذيه إلى حيث تريدين، لك خاتمة نظيفة في مقعد العاشقين في الحب البريء. .

(9)

ما قولك يا صاحبي بأن الدنيا صراع غير متكافئ يميل في الغالب إلى القوة حتى وإن كانت غاشمة، ولولا ذلك لاكتسح الخير عدوه الشر ولما تقاتل الأخوان في سبيل منفعة محدودة ينال الباغي في نهايتها شر الجزاء.. فالمال القليل قد ينمو في الوعاء الضحضاح ولكن الخزائن لا تفتح أبوابها إلا لصفائح الذهب وقلائد الألماس مجلوبة من وراء البحار حيث كان أجدادنا يحترفون صيد اللؤلؤ في بحور الخليج والهند.. ليتزودوا بثمنها الأطعمة لبلادهم الفقيرة في كل شيء، وقد استغرق هذا الوضع زمنًا طويلاً قبل أن تتفجر خزائن أرض الجزيرة بما تخفيه في جوفها من خيرات عمت المشارق والمغارب وأصبحت قبله الفئة العاملة في أنحاء الدنيا وكذلك المغامرين والمخادعين والنصابين.. وكان شعب اليمن أقرب الناس إلى اجتياز الحدود وأحبهم إلى الناس يحملون على أكتافهم المعاول ويحرثون باطن الأرض فأقاموا المباني الحديثة والعمارات الشاهقة بنقود أهل البلد وأحيانًا بالاشتراك معهم في الخفاء فكانت نهضة شامخة في المظاهر أقل منها في العقول والمخابر، والحرية في الغالب تكون هي الضحية؛ لأن إطلاقها قد يفسد بها النظام المتداعي؛

إنه الخوف ولا شيء سواه.. صفة عامة في عقول الناس في كافة أنحاء الدنيا.. الخوف من القادم مثل الشبح المتلفع بالظلام لا أحد يعرف ماذا يطوي تحت عباءته السوداء، ولهذا تجدني أصحو من نومي فزعًا في الكثير من الأحيان بعد أن أغرقني كابوس الخوف من ابتلاع صاحبتي في تلك الطرق الطويلة ما بين الحارات الشعبية التي يسهل اختفاء الناس فيها عندما يعتزم أحدهم الإيقاع بعدوه أو صيده من البشر. كثرة الناس وميل العدد نحو الزيادة جعلت البشر لا يهتمون كثيرًا للموتى، وقد سمعت هذا الرأي من طبيب زائر. قال: إن المريض لا يجد الرعاية الكافية لإهمال الأطباء وعدم وجود من يحاسبهم على عدد الموتى؛ لأنهم في النهاية يعرفون أن موت الإنسان أفضل من تعذيبه لأسرته بالعلاج الذي لا يملكون ثمنه.. في الدول المتحضرة تقوم المظاهرات عند فقد أحد أفراد المجتمع وحتى الحيوان بسبب الإهمال، أما في ربوعنا الطيبة فلا نملك سوى أن نقول "إنا لله وإنا إليه راجعون" هي النهاية الحتمية لكل إنسان "وكفى بالله حسيبا" نعم أخاف عليها من المقربين والبعيدين على حد سواء. الفقر جعل القلوب قاسية فظة لاسيما في مجتمع يتراكض الناس فيه نحو سد حاجاتهم التي لا تنتهي من المطالب، جعلت فئات كثيرة منه تنزع نحو الغربة. وتلك الشرائح اتجهت ما بين الدول الغربية وهي تملك إمكانات علمية وإبداعية مرتفعة، أما العمالة فقد احتضنتها دول الخليج تمارس أي عمل يعرض عليها للأسلوب المجامل في التعامل الذي تمتاز به من بين العمالات المختلفة الأخرى. عدت إلى الوحدة والتيه فقد دفعني ذلك العشق العاصف إلى أن أنزوي في أي ركن لأنفرد بذاتي وكأنما خشية من مطاردة الآخرين لما يحمله قلبي من جوهرة أذود عنها بكل طاقتي رغم العذاب الذي أعاني منه.. على أن نظرة من حولي تتفاوت ما بين الإذعان لهذا الذي لا أستطيع احتمال رده أو اتهامي بالضعف وعدم تحريك الإرادة لمواجهة هذا الداء الطارئ

وإنكار قوة الحب وسلطانه.. على الناس، خاصة وأنني في مرحلة الوقوف على قمة النضج مما يعني التساؤل: هل أستطيع تحمل تبعاتي العائلية بكفاءة؟ قالت الحبيبة لي عن اقتناع: لقد نلتُ كل ما أتمناه. سهرت طويلاً حتى تعبت من الرقص.. ارتديت أغلى الملابس، وتناولت أفضل الأطعمة في الأماكن الفخمة، وحصلت على الرجل الذي وثقت به وارتاح إليه قلبي، فماذا أريد أكثر من ذلك سوى زواج سعيد يجعلني أنسى كل ما كابدته في حياتي؟؟ فهل هذا اعتراف كامل أم ينطوي على المجاملة حتى أطمئن إليها من ردة فعل الانقلاب في العواطف؟ كنت أحاول في مناسبات مختلفة أن أجعلها تثق بعمق حبي لها إلا أنها بين الحين والآخر تفاجئني بكلمات عابرة عن خيانة الرجال، وسرعة تقلب عواطفهم ورغبتهم الجارفة في تغيير النساء ما بين الحين والآخر .. ومع موافقتي على أن ثمة طائفة من الرجال وخاصة الذين تتبدل أمورهم الحياتية وأوضاعهم الاجتماعية تحاول تغيير النساء حتى تكتمل لهم تطلعاتهم مع المسار الجديد، واقتحام مجتمعات ترنو إليها الطبقات الفقيرة من حيث السلطة أو النفوذ إلى جانب الثروة، هذا التغيير إنما يحدث في الظاهر وليس في الأعماق فهؤلاء يفتقدون الحب ولا يؤمنون به إنما يعتبرون المال هو كل شيء ولا تقف مع توفره أي عقبة.. والطبقة الأرستقراطية بالذات تدين بهذا المبدأ ولا تتخلى عن سلطانه في الدنيا إذ إن تفكيرها ينسجم مع تقاليد العصور السابقة والتي لا تخلو منها المجتمعات الحديثة أيضًا، فالرفاهية المراوغة والحياة الهامشية تكفي بالنسبة لهذه الأوساط إذ إنها تكره التعمق في فلسفات الحضارات وتقلب النظم الاجتماعية في أطراف العالم مبررة ذلك بضعف السلطات وعدم تمكنها من إخضاع الرعية الشريرة التي تحاول الإطاحة بالطبقات العليا ومزاحمتها في مراكزها الرفيعة. كانت مقولتها تلك تبث الطمأنينة في نفسي وتجعلني أشعر بالانتعاش النفسي لاسيما اللغة المشتركة.. لولا

أن المخاوف لا تلبث وأن ترفع رأسها حتى تحرك الوساوس الثاوية في أعماقي من أن كارثة عاطفية سوف تدفع بي بعيدًا على مشارف جرف هار يبطش بي في السراديب القابعة في أعماقي.. ويا لها من نهاية تراءت لي وأنا أطالع فصولاً من حياة ذلك القائد الروماني المدعو "أنطونيو" الذي دانت له المعارك التي خاضها ببسالة، وعزيمته التي لا تقهر، وكم يأسف العشق الجارف أن تكون محبوبته أو معبودته كليوباترا من أسباب انتكاسته حين أخذ يصغي إلى مشورتها وينحاز إلى رأيها الصفيق دون مستشاريه الحكماء ومن العسكريين الذين يميلون إلى الرزانة والكياسة وبعد النظر؛ حتى بدأت الهزائم تلاحقه الواحدة تلو الأخرى فلم يجد أمامه حفاظًا على تاريخه المجيد وأسمه الناصع سوى أن يطعن نفسه منتحرًا .. بيد أن ميله للحياة حال دون موته وبقي جريحًا تصرخ الأوجاع في أنحاء جسده المدمى والقهر الكظيم، فتحاول كليوباترا أن تنقذه من هذه المصائب التي حلت به ولكنه يرفض الحياة بائسًا مهزومًا بعد أن كان إمبراطورًا عظيمًا هزت انتصاراته الشرق والغرب معًا عندما كان عسكريًا صلبًا وليس عاطفيًا تلعب الهواجس الناعمة في تفكيره وتطلعاته مع أن بطلنا العربي عنترة بن شداد قد وفق بين الحب وتسيد المعارك.. وهكذا الرجال مهما علت همتهم وتجاوبت الأمصار مواقفهم، فإن نهايتهم لا يقررها سوى الله بناء على تصرفاتهم وأفعالهم في الحياة، وحتى لا يضحك مني أحد وقد حشرت نفسي بين هؤلاء الرجال الأفذاذ أتراجع مسرعًا إلى مكانة الإنسان البسيط الذي كاد الحب أن يضيع رشده بعد أن استحل المشيب قمة رأسه. وماذا في الإنسان من المشاعر الطيبة سوى العاطفة إنها مهماز الخلق القويم، فإذا لم تكن تجيش بالنبل والسمو انمحى ذلك الفارق وتلاطمت البحور بين قلاع تسعف المنكوبين وأخرى تتغنى بأمجاد المكاسب وانتصار الشر.

ارتحت لمقولتها ورفعت أكفي متضرعًا إلى الله أن تثبت على هذا

الاتجاه الذي يجعلني مطمئنًا إلى انتصار الخير وعدم اندساس الشيطان في أفكارنا ليحولها إلى هواجس تنبذ الطمأنينة والصفاء. أي غموض هذا الذي يكتنف نظراتنا وكنا نتقابل بعد مرور شهور عدة مكتفين بقبلة سريعة نطبعها على جانب من الخد ثم نبتسم لنقول، فيما بعد: كان اللقاء حارًا .. أنا لا أوافق أن القبلة السريعة تطفئ حريق جنون القلب الذي اشتعل ثم انطفأ عشرات المرات في أثناء الفراق.

قالت إنني لا أكف عن التفكير وانهمار الدموع الثكلى في وحدتي. إن عيني لا ترفان إلا في حومة الذكرى الحزينة في قيام ذلك السد من الأميال تراكمت كحاجز بيننا . إن الحب بدون وجع يتحول إلى لغة ميتة مثل آلة موسيقية بلا أوتار تعزف اللحن الذي يسيغ امتداد الأحلام النازفة في أوقات الفرح مثل الأشجار التي تعيش في الصحراء بلا طعم أو رائحة. وحين أحاصرها بالسؤال الساذج: لماذا اخترتني بالذات دون سائر الناس وليس في شخصي ما ينفرد به؟ تجيب شاردة النظرات وقد اعتراها شحوب مفاجئ وربما ذرفت دمعة متقهقرة.. تعلمت منك أشياء ما عرفتها من قبل مثل الثقة بالنفس والاعتزاز بأنني فتاة مستقيمة وحنانك وخوفك علي إلى درجة الغيرة.

هذه اللغة التي تطرق سمعي من امرأة أو بالأحرى فتاة في مقتبل الصبا لأول مرة؛ جعلتني أرفع لواء الحب على أية نوايا خبيثة تحتل زوايا من الغريزة نحو المنحرفات. ذقت من جديد طعم الحب الذي عرفته قبل بضعة أعوام في مرحلة الشباب حينما كنت أعمل في وظائف مختلفة نعابث الفتيات ونرتبط بهن في نوبات عاطفية نخجل أن نعلنها أمامهن مكتفين بالتلميح.. ومع ذلك فإننا حين ننفرد بأنفسنا نكتشف ذلك الشعور الذي يتململ في دواخلنا حين نتسامر مع زملاء العمل في أوقات الفراغ فإذا كل واحد يعلن عن حادثة تقارب مع زميلة له قد تتلاشى في موقف آخر في اليوم التالي وربما تنحو إلى خناقة، فنرشّ ذلك الزميل

بسخريتنا الخشنة حتى يثور علينا فتتحول الجلسة إلى معركة بالمساند و(المراكي) وبعض أدوات أعقاب السجائر وفناجين الشاي، فإذا بالخادم يتربص بنا طالبًا الكف عن استعمال أدوات المنزل الذي نقطنه سوية تحت مسئوليته. إنها حصيلة السنين التي مرت دون أن تخلف لدينا سوى الطيبة والصراحة حسب ما تعودناه من طفولتنا . على أن إحداهن قد تقامر وتأتي إلى المنزل فتسأل عن زميل لها تغيب ذلك اليوم لأنها توليه اهتمامًا خاصًا؛ حيث ينال كلمات التوبيخ عقب انكشاف أمر هذا الحب المختبئ فيدافع عن نفسه بأن الفتاة ترتمي عليه دون رغبة منه في الزواج منها؛ إذ كيف لبدوي أو قروي أن يعيش مع فتاة متمدنة لا تعرف حتى أن تستر نفسها عن الآخرين سواء في وجهها أو أجزاء من جسمها مثل نسائنا؟ الفارق الاجتماعي لا ينسجم مطلقًا بينهما.. إذًا فالارتباط فاشل منذ الأساس والاختلاف قائم في كافة التفاصيل فيالها من دنيا نتعابث بها إلى حين انتهاء غربة أي طرف منا وافتقاده إلى الأبد. كما أن اختلاف اللغة واللهجات من عوامل ضياع العواطف التي تهرق على مذبح الالتقاء في مساحات شاسعة من المعمورة. ضبابية تكاد أن تكون تلك البراري في مداراة العشق، يمنح تارة دون مقابل بينما يحتاج إلى إراقة الدماء في مواطن أخرى. رغم أن ذلك يحدث على الأرض ذاتها، إنما الاختلاف في الأزمان والتقاليد السائدة . العصور تتعاقب فلا يبقى سوى الإنسان بتلك العواطف الجياشة والرؤى المؤرقة تحتدم في داخل الذات حتى لا يبقى ظاهريًا منها سوى تلك التأوهات تتدافع في الآفاق مثل رفات ضل طريقه فلم يجد سوى الفضاء عالمًا يتسع لمناجاته. يسطر على لوحة الضباب أسطورة العشق الذي انعتق من زبانية القهر فطار بعيدًا ينثر من الأعالي عبق زهوره حتى تتنسم الأرض المشرقة برضاب طائرها المحلق. ذلك الإنسان الذي أهدر العمر هائمًا في الأعالي ، يتباهى باصطياد العالم الذي كان يرنو إليه صغيرًا حتى ظفر به دون أن

يهجع أو يتوانى. ولم تشله أو تعِقه تلك الأسوار البليدة التي افتعلها الجبناء لحماية مكاسبهم الضحلة في العصور الضبابية التي سرعان ما تتكشف عن الخواء والخديعة كلصوص في الزمن المقهور من المعاناة الذين ينبغي أن يساقوا إلى محاكم الضمير لأنهم اجترحوا على كافة القوانين النورانية والفطرة وارتموا في بلقع الظلام حماية لمفاسدهم. فكان الحب السرمدي هو الوعاء الذي لفظ كافة الأكاذيب البشرية فنشر النور في بقاع الأرض حتى تنبت السنابل خضراء، تغمر الصحارى في كل مكان ويعم السلام كافة الأوطان.

(10)

وأشعر بوخزة في جانب من قلبي وأنا أنظر إلى بحور العينين الهائمتين في المدى الذي لا أستطيع أن أصل إليه مهما حاولت العوم في ذلك التيه.. أعدم عشرات السنين ولا أبلغ مداه! نظرات تلك الفاتنة البريئة دفء حائر.. فيه رجفة مثل أن تهاجمك لحظة سعادة في أعماق حيرتك فتتطلي عليك حيلة الضياع تلتبس عليك لحظة السعير فتذهب بك الموجة العاتية لترى من فوق ظهرها الأديمي كم أنت مروع.. مفتون، هائم في اللحظة الموجعة.. تتماسك بصعوبة حتى لا تتفتت مزقًا بين قبضتي الزمن الصريع بالمفاسد. القلب وحده يرتجف.. يرتعش من الزمهرير الذي يشتعل في جحيمه هاربًا إلى خارج الجسد الذي انفصل عنه مخلفًا إياه للذكرى يوم كان مشجبًا له يحتمل الخطايا والحسنات فلما ناء بها انتفضت أوصاله وتمددت الأعضاء فسار كل في سبيله.. قلب يتوهج بالخصال وجسد يمتلئ بالنصال فأمتثل مشهدًا مسرحيًا من أعمال شكسبير ! أيتها السماء أمطري علي رحمتك، وخذي عذابي فقد ضاق به سبيلي.. وها أنا أركع في محراب الحب الذي لا نهاية له أسابق الريح في عدو أحلامي فلا أظفر سوى بوخز الأحزان تهاجمني من كل

جانب.. فهل هذا مصير أم تجربة لمدى احتمالي؟ إنها تكافئني بنظرة دافئة أشم فيها رائحة التسامح والعتب.. يا مراحلنا الوفية المعذبة بالصدق والصراحة، يا من أطلقت حمامات الحب في آفاق زمن مضيء حتى تمتلئ عيون الشمس بالحياة المفعمة بالإبداع. كم أخطأنا بعصر أنواركم الخالدة حين جعلت الأدب والفن عنوانًا؛ لتقدم الحضارة في عهدك المليء بالبهجة والعطاء..

فانطلقت طيور الشعر تعطر آفاق عصر لا ينسى تمرد على الجاهلية في ضيائه وسعة أفقه ورحابته فتفجر إلهام أبي نواس في شوارع بغداد وأزقتها ينثر الحب بين الصبايا الغيد يسكبن دموع الفرح من النوافذ المشرعة وزبيدة الجميلة تنثر باقات الورود من شباكها متفائلة في بواكير الصباح بيوم يعد بعطاء رغيد من عمر الترف التليد. يوم تزفّ فيه الزغاريد عرائس الشاطئ موشحات بالزهور وشعورهن الحريرية تنسكب على الأجساد الناعمة مغمورة بالطيوب والرياحين. تلوّح لقصائد شاعر الحب في زمن مضى حين كان عمر بن أبي ربيعة يتغزل بالغيد الفاتنات في مطارح الحب والهوى، بينما حزم النور تتناثر بالشذا مضيئة بالعيون الفسفورية الدافئة وحتى تعانق البسمات الحبلى بالحب والياسمين عسل مصفى تشق القلب النقي لتضفر من جدائله أنشودة مطرزة بالأحلام السعيدة..

أين أنت يا رفيقتي؟ فبسمة وجهك الأبيض المستدير أضفت على عمري مددًا انهمرت أنهارًا من التفاؤل في لقاء عذب في سماء وطنك دمشق الخضراء قبل بضعة أعوام.. عندليب أطرب سمعي بالشجن. يا محبوبتي رجاء وأنا أعتصر الذاكرة.. تقفين أمامي بجسدك الصغير وشعرك الأصهب اللماع لا تتكرين ما بيننا. أعجبني إعلانك باستحالة زواجنا خوفًا على هذا الحب الوليد.. قلت صراحة إنه بلورة نادرة سوف يهشمونها مهما طال الزمن. الحب إما أن يكون نجمة في الأفق نركض

وراء شعاعها أو جوهرة ثمينة ليس لها مثيل نحرص على تخبئتها في الخزائن التي لا تطالها العيون، وأسرتك أعدّوا لك مستقبلاً دون استشارتك، ولكنك تخافينهم ولا تعرفين سوى البكاء للدفاع عن أحلامك فكيف تقفين أمامهم تدافعين عن آمال نبعت ميتة بدون سياج يحميها.. ولا تريد أن تعترف بنهاية سريعة إنما تحاول جاهدة أن تبقى علاقتنا وثابة حتى لا تفقد عنصرًا زخم حياتها بضجيج الوقت.. صديق لم يخذلها أو يضايق رتابة أيامها في هذه الغربة الضجرة.. تنظر إلي بعينين براقتين يشع منهما ألق حزين يسألني بتوسل أن أغفر ضعفها وأمنحها قوة تتسيد بها أيامها الموحشة التي تستطيع أن تختمها بالانتحار؛ فأرتعب لهذا القول ناظرًا نحوها بعتاب يفجر يأسي وإعجابي بها..

- كلا يا رفيقتي .. علينا أن نعيش قدرنا ونمنح عمرنا حرية يتقاسم بها أشواقه وأحزانه مع الآخرين .. الحياة يا عزيزتي ليست تراكم السنين الجوفاء إنما هي عطاء متبادل فلا تذعني للرق في عصر الثورات..

وتسيح دموعها تلتمع بحبات لؤلؤية تذرفها متوهجة فوق خدها الأسيل حتى تشعرني بالاضطراب وارتخاء الأوصال وأتمنى ضمها ودفنها بين ذراعي لأغمرها بالقبلات.. بيد أنني أتماسك حتى لا أسيء إليها لتأكدي بأن ثمة العشرات من العيون تراقبنا بشراسة . فتخرج كلمات متحشرجة شأن المآتم التي تقتحم أفئدتنا بمواقف الحزن فلا نجيد التعبير عن انصهار الألم في قلوبنا سوى بالدموع.

- رجاء.. اذهبي فاغسلي أحزانك عسى أن تذهب عنك هذه الأفكار التشاؤمية. وثقي بأنني سأبقى إلى جانبك مهما حدث إلى حين عودتك إلى وطنك مهما كانت الرؤيا.

واستحوذت الأفكار النابتة بالخير على عقل الصغيرة الناعمة حتى

طردت غيوم الخوف؛ فاتخذت موقفًا صلبًا معلقة بأنها ستبقى في الغربة مهاجرة حتى ترتوي من معين الشجاعة والمقاومة!! وتطاولت الأشواق الهامسة لأبقى مصيدة للناعم من القول في ذلك الخضم النسائي قليلات الحيلة. تتهاطل أشجان الدموع من وجناتهن عند أهون الأسباب . وحدك يا عطر عرفت أن تقوديني إلى دروب أطبقت علي غيومها حتى لم أعد أعرف صحو أيامها من داكن ليلها.. أهيم في هذا الملكوت الذي يحيط بي ولا أدري أية محطة ينبغي أن أتوقف عندها في هذا التيه.

سألت الليالي المتعاقبة تدفعني إلى سواها أهي حياة جديدة قدر لي أن أحياها متقافزًا ما بين حقول لا سقف لها. . ساعاتها رصاصية ودروبها تفضي إلى هضاب الصحاري حيث لا يطالها سوى الجن والأبالسة بينهم لغة لا تسمع ولكن دمدمتهم يكشفها السكون المطبق. وجدت هناك عجوزًا عجفاء تجلس فوق صخرة رمادية ذات شعر رصاصي يتكوم عند قدميها وآثار السنين زرعت أخاديد على خطوط وجهها الذي لا يلمع فيه سوى عينان براقتان تخيفان الأطفال. أشارت لي بيدها النحيفة أن أقترب منها ففعلت ولما أصبحت في مواجهتها فتحت فمًا تتمايل فيه الأسنان حتى تستقبلني ابتسامتها الشاحبة قائلة:

- (اجلس.. ما خطبك يا رجل؟)

أجبت بسرعة:

- لست أكثر من عاشق ضاقت به الأرض بما وسعت ولم يعد لي من ملجأ يحتضن قهري سوى هذه الصحراء. ضحكت بصوت مرتجف لتجيب:

- هل تعرف فتحة الإبرة؟

هززت رأسي .. فقالت:

– أنت تدخل بوابتها الآن ومهما مشيت فلن تصل إلى منتهاها . فتحة الإبرة هي بوابة الصحراء التي تسير فيها.

ولما نظرت إليها ببلاهة أضافت وأسنانها تتراقص في فمها:

– لست أسخر منك فلقد أمضيت من عمري سنين، أخفقت في عدها أنتظر تحقيق آمالي حتى غمر الشيب رأسي وكنت قبلها جميلة من سلالة غجرية أحبني إنسي وآخر جني فوفرا لي الحماية ولكنهما أضاعا عقلي وقلبي حتى أصبحت كما ترى مجرد امرأة بلا سلاح في صحراء العمر والمكان. لا أستطيع مساعدتك لأن الذئاب تحوم من حولي كل ليلة ولكنها تهرب مروعة من شرارات تخرج من عيني مثل سهام النيازك فتلوذ بالفرار، ولن أطيل عليك؛ لأن حكايتي لن تفيدك بشيء إنما أردت أن أقدم لك نصيحة ذهبية وهي ألاّ تستسلم للقهر والإذلال، إنما جاهد بحبك والتمس منه قوة تعينك على خصومك فأنت المنتصر مهما طال الزمن.. هكذا علمتني التجارب والأساطير.

– وحين رفعت رأسي إليها لأشكوها همي لم أجد أثرًا لها ورغم أنني داومت على زيارة المكان فلم ألتقها أبدًا فأضافت إلي اقتناعًا بأن لا مخرج لي من قدري الذي هو مستقبلي حتى الممات. فاعتزمت أن أحتمل أنصال الرماح مهما كانت عنيفة حفاظًا على حبي، ولست يا عطر أطلب منك سوى ألاّ تخذلي احتفائي بك وهيامي بعالمك وملكوت وفائك.. نظرت بعيدًا لتجيب مشرقة بدمعها:

– أنا لك بكل ما أملك فماذا تريد مني أكثر من مقاومة خالي الذي ينشد الاستئثار بي حتى يستغلني لأنه جشع مفرط الأنانية؟ فلا أملك سوى خطف قبلة سريعة على خدها من قبيل الامتنان لهذه الإجابة .. ونمضي متهادنين نتطلع إلى البعيد البعيد.. متبادلين الملاحظات الجانبية ونحن نحلم بالوصال الدائم غير المنقطع مقسمة أنها سوف لن تجعلني هكذا في رحلات مستمرة ما بين المشرق والمغرب ضائعًا من

عمرنا.. طاعنًا حبنا الذي لم يعد وليدًا بعد أن كبر واستقام صامدًا وتوجناه بزواج مدني لا يحمل قوة صمود الارتباط الشرعي ولكنه يذب عن واقعه بالاختيار الشخصي فمادامت قد تجاوزت العشرين من عمرها فهي حرة التصرف بمستقبلها وهي فعلت ذلك حتى تقفل الطريق أمام من يرغمها على الزواج من غيري . إنها وسيلة حديثة لتسهيل عملية الارتباط العاطفي خاصة حين تكون الأنظمة حائلاً دون تحقيق آمال رجل وامرأة في الزواج البسيط حتى لا يقعا في نطاق المعصية والارتباط المحرم. وكانت إمكانياتي المادية قد بدأت في التقلص بسبب ضعف دخلي الشهري الذي ارتكز على مرتب محدود أنفق منه على أكثر من أسرة خاصة بعد أن استقلت زوجتي الصغيرة في نزل خاص بها مع جدها وزوجته إلى جانب خادمة تسليها وتعينها على قضاء لوازمها البيئية حيث إن زوجتي الصغيرة لم تعتد على إدارة منزل بمفردها . وسألتني بعفوية إن كنت أسمح لها بمواصلة دراستها الجامعية للسنة الأخيرة إذ إن استدعاء والدها لها حال دون إتمام دراستها، وقد وافقت على الفور حتى لا يكون زواجنا عقبة في سبيل نيل الشهادة الجامعية إلى جانب انشغالها بالدراسة عن التفكير بوحدتها بعيدًا عني . أعرف بأنني أنحت في حجر الأيام تخومًا لعلّها تقيني من عواصف أرى بوادرها في الأفق المدلهم. بينما الضباب يلف بسياجه اللا مرئي مكامن لتغدو متاريس من الرياح تجفل تارة وتحتدم أخرى. ألوان الطيف تتهاطل من سحب حبلى لا نعرف عن وجهتها سوى تكشيرة تبدو شاحبة تحتمل الصمود إلى أمد ليس سرمديًا فالوجه الطالح للحياة يجرف في ريقه تلك الشذرات التي نحسبها قادرة على الاحتمال فإذا بها تتقوقع في أصدافها شأن المحارة التي تذب عن جوهرتها من عاديات الأمواج وجموحها المتوثب.

(11)

لم تمض ثلاثة أشهر على بدء الدراسة النهائية حتى أخبروها أنهم سوف يبدؤون بتمارين علمية عملية عن طريق الدراسة السياحية إذ إن تخصصها كان السياحة الداخلية ما بين الشمال والجنوب مما يعني بأن يكون اتصالنا عن طريق الهاتف المحمول. يا إلهي كيف أحتمل ابتعادها عني في تلك الرحلات الخطرة بمفردها متنقلة من مكان لآخر تحاصرها العيون تتلذذ بجمالها الأشباح؟ بحيوية شبابها يلقون عليها الأسئلة الجوفاء.. كيف تستقبلين السائح ؟ تجيب:

- مع الابتسامة .. أصافحه !!

فيقال لها كلا .. بل تهزين رأسك منخفضًا إلى أسفل برشاقة.. انتبهي إلى معنى الرشاقة اجعليها مصاحبة لكل حركة من يديك وعينيك.. أظهري فيهما الارتياح لهذا اللقاء كأنما استقبلت إنسانًا جاء ليمنحك الكثير من الوعود! يحمل نقدًا أجنبيًا يحتاجه وطنك في القادم من الأيام. الاقتصاد في بلادك يهتز إن لم تدفعي هذه الوفود إلى معاودة زيارة بلدك؛ وليكونوا دعاية ناجحة للسياحة القادمة. انثري ابتساماتك بعد كل تحية تلفظينها حتى ليعتقد الواحد منهم بأنك أحببته من أول نظرة، وحين يتلهف إلى سماع صوتك وأنت تشرحين له مواقع الأماكن الأثرية من التاريخ سوف يتحول إلى تاريخك الخاص في هذا الزمن وليس قبل خمسة آلاف سنة. انتبهي إلى الزمن نحن هنا أحفاد الفراعنة العظماء.. ولهذا نفخر ونضحي.. نخدم السائح وإن بدا جافًا وغير مؤدب. لا نخاف منه لأن عقلنا يتفوق على كل مجنون سائب. التفوق أننا نستطيع الدفاع عن أنفسنا بالأسلوب الحضاري بالهدوء والكياسة . لا تثيرنا أسئلتهم البليدة أحيانًا عن حياتنا الخاصة لأنها نظيفة وليست قذرة مثل سلوكهم! لا نريد أن نسمع شكوى من أحد إنما

واجبنا أن نجعله يبتسم حتى ولو كان أبله لا يجيد التعامل المتسامي وإنما يتحسس اللفتات.

حين أسمع منها هذه التعليمات أصرخ عبر الهاتف: ابتعدي عن الرجال واجعلي اهتمامك بنسائهم الشقراوات؛ لأن المرأة عندهم هي المسيطرة. أرجوك يا عطر عدم الاحتكاك بهؤلاء الوحوش فأنا أخاف عليك وأغار منهم. إنهم أحفاد الأبالسة المشاغبين. نظراتهم تفيض بالكراهية والعداء. يسرقون طبيعتك الهادئة وابتسامتك الوادعة. ادفعيهم إلى المطاعم حتى تمتلئ كروشهم ويدب النعاس في عيونهم وبعدها تتولى الزوجات دحرجتهم إلى أسرتهم عن طريق ضربهم على مؤخراتهم باستهتار. إنني أخاف عليك من هؤلاء المناجيس الثعالب، فخيانة الأزواج للزوجات، وكذلك العكس من مظاهر الرفاهية للنجاح في عالمهم لذا فأنا أخاف عليك من فتنة هؤلاء الأبالسة وألاعيبهم النجسة؛ ولأن النساء أقل جاذبية للتأثير عليك أطلب منك أن تظلي في خدمتهن وإلى جانبهن بعيدًا عن أولئك الأشرار الذين يأتوننا بصفاقة الحضارة لا شمائلها.. بتعاستها لا وعيها.. تداعياتها لا جذورها، الوقاحة لا السمو هي حصيلة ما ينثرونه بيننا عند رحيلهم. ونحن لا نريد سلوكهم وسوءاتهم في ديارنا النظيفة من قذارتهم. يا عطر يا هبة الخالق في ختام وداع الحياة أنت تمثلين لي نفائس الدنيا التي قطعتها مهرولاً وأنا أنظر إلى خيرات الأرض في أكداس القمح تتناثر في الحقول حتى تأتي الآلات وتحصدها بدون رحمة. تجزها بعنف وخشونة. وإلى مساحات الجمال في عواصم العالم الرحبة تملأ القلب بحيويتها وبواكير غدها . الحسان الكواعب تتقدمها حدود شامخة تتحدى الخوف والتراجع. إن السمو هو الذي يثيرني وليس الشبق . العمر يرتجف دفء مقامه وحنان يومه قبل أن يفلت مغادرًا إلى رحيل نهائي. إذ لازلت أنظر إلى ترامي العصور وتحول الأيام في حياة الأمم والشعوب وفي مشاكسة الأزمان.

والدك أسلم زمامك إلى أم طيبة ليس لها من سند سوى إخوة منافقين يكرهونها على المذلة لهم، وتسخيرها لأغراضهم ولهذا يزداد خوفي عليك من هذه الحماية المخيفة وتداولك كسلعة لهم. وكم بكيت انقطاع وترك الخفي بي حين يتوقف ذلك الجهاز الشيطاني الذي يربطني بك عبر آلاف الأميال فأصرخ باسمك منتحبًا في غياهب الظلام، لأن أشواق الحب فاضت عن حدود القلب الذي لا يحتوي سوى شذرات نعيم الذكريات وأحزان الفراق. أقضي نهاري مترامحًا المسافات شاخصًا البصر الذي يسأل شأن قيس في حنايا الأطلال عن ليلاه التي فاضت روحها وتلاحد جسدها في مثوى التراب قبل آلاف السنين . ذهبت الأجساد وبقى بوح الحب فخورًا مزهوًا كمثال للنقاء والإخلاص لمن هواه القلب واختاره العشق رفيقًا. وحين أسمع صوتك يزداد النبض وتسري الفرحة في شرايين الجسد المتراخي تواقة إلى نسمات صدرك وعبير روضك تفوح منه رائحة الياسمين؛ لأنتشي بفيض هذا العطر الذي ينقلني إلى جوار روحك التي تتقمصني بين جناحيها مرفرفة في آفاق عالم سحري لا يشاركنا فيه أحد. نرحل معًا في ميعة البسمة المنعتقة من سفافيد جراح الأيام المارقة .

أخذتك الدراسة يا حبي.. صارت تغتال وحدتنا وتشرنق اصطبارنا.. أتلمس عن بعد محراب تكوينك الذي لا يشبهه أحد. إذ إن الجواهر لا تتطابق إلا بذلك الإشعاع النوراني المثير يخطف الأبصار لأصالته.. حملوك ما بين موضع أثري وآخر يسرقك مني وهم يمتحون من رزقنا بضعة آلاف في كل انتقال.. هكذا دام الحال حوالي العام وهو ما تعرفينه جيدًا، إنما سرقوه من عمري المشحون بوجودك وإن كنت بعيدة عني.. فالمسافات لم تفرق بيننا قط طالما القلب يرتع بهذا الربيع متجدد الخصوبة. على أن تواجدك بالقرب من الإسكندرية كمرحلة أخيرة في تدريبك في قرية "مارينا" أتاح لي أن أقيم بالإسكندرية وأهنأ بإطلالتك

السريعة لي وبالاتصال الدائم هاتفيًا. لقد كنت ألاحقك في أثناء التدريب وفي عنابر النوم وحتى وأنت تتناولين وجباتك أو تغتسلين.. إذ إن همي الأول ألا ينقطع هذا الحبل السري بيننا إلى درجة أن ضايقتك أو أحرجتك اتصالاتي اليومية وفي منتصف الليل؛ لأن قلبي لم يكن ليجد الراحة ما لم يكن قد امتلأ بسماع ما عانيت طوال اليوم. صوتك الذي يغرد في قلبي يشعرني بحيوية الحب الذي ما زال يتغلغل في روحك في سماء عالمك محلقًا بالزي الذي ترتدينه مثل طائر النورس الذي أرقبه وأنا على جرف الشاطئ مع تلك الأجساد المطروحة هناك على الضفاف لا يغطيها سوى رداء هفهاف وهي تغتسل أو تتطرح هربًا من حرارة الجو. والذكور يتلصصون النظر إلى سيقان النساء البضة أو صدورهن الناهدة بتلك الرمانتين الساحرتي الملمس، وحتى لو سمعت صوت العندليب من بعيد فهي لا تكف عن النظر إلى تلك الأجساد الناعمة ذات الوجه البلوري، والعيون التي تخفي بريق الرغبة الحبيسة تغلي متمنية المتعة وانتفاضتها. ما عداك أنت يا عطر تكرهين ملمس مفاتنك مرددة كلمة العيب، ولا أدري لماذا تضخم معنى العيب مع نموك الجسدي ولم يتوقف المعنى بعد البلوغ ليتبدد مع سنين الطفولة فتكون المضاجعة بين الزوجين في عرفك من الحرام!! من حسن حظك أنني رومانسي النظرة فليس لممارسة المضاجعة من أهمية في حياتي سوى كونها عادة تطرزها الأيام.. ممارسات صغيرة يحبها البشر، إنها مثل اعتياد الطعام والشراب في مواعيد ثابتة أو مختلفة ترفع رأسها ثم تهمد إن تجاهلها الإنسان.. تبقى حبيسة متذمرة تنتعش حين تنال مرادها وإلا تبقى مولولة بسكون واكتئاب. فالجوع والرغبة صنوان لحاجة في الجسد إن لم تتغذى تبقى عليلة دون الموت. . ولقد أرغمت نفسي على الصبر بعد أن شبعت من ترف الدنيا ومارست الحلال والحرام.. الكفر والاستقامة.. فكذبت كثيرًا وقلت الصدق لاحقًا.. أتظاهر بالشجاعة

رغم جبني.. أحب ربي وأكره الشياطين.. أضاجع الفاسقات والتائهات حتى استيقظت من ذنوبي لأغسلها ندمًا بالطواف حول الكعبة المشرفة عشرات المرات.. فيا عطر لقد تطهرت من الرجس وتبرأت من الغواية في تلك الرحاب ولن أرغمك على ما لا تشتهين وستكونين بقربي أمينة على صداقة تدوم طول عمري نقية من الذل صافية من المهانة جعلها الحب النابع من قلب مفرط في الإيمان لا ينشد سوى السعادة أرتشفها من نظرات عينيك البريئة من الخداع الناضحة بالإخلاص مثل حورية يستحيل خدش حيائها . وكانت رئيساتك اللاتي لا يعرفن الترفع يسخرنك في الحضور إلى الإسكندرية حتى بعد منتصف الليل لابتياع احتياجاتهن اليومية فتفرين من رقابتهن لمرور خاطف على سكني أكون فيها مرتخي الأوصال، وقد ارتويت من السائل الأصفر الذي يؤنس وحدتي يبدد طاقتي فلا أجيد حتى استقبالك ولكونك مسامحة لا تضيقين بحالتي إنما تلقمينني ببعض رضاب فمك انتزعه من شفتين لم تعتد على التقبيل من رجل قط.. وتشعشع إشراقة الفجر البازغ على وجهك الوسيم وأنت تتحدرين من سلالم المبنى العتيق، وقلبي يخفق بالخوف على جوهرتي من الطرق الطويلة والتي تبلغ بضع ساعات لوصولك إلى المرفأ .. ولذا يتبدد نومي ويركبني أرق الوجيب نائحًا من العاديات إلى حين يقتحم صوتك الناعم حجاب ظلامي معلنًا وصولك فأضع رأسي أينما كنت عساي أن أغفو وأتوشح بطيفك بقية النهار، والضياء يتراقص أمام عيني .. ألهث وراءه فلا أستبين منه سوى الأحلام الكالحة تطارد فجرًا يمسح ستار الظلام الراعف مرتجفًا من سهام الشمس التي تنبثق من وراء امتدادات البحر قبل أن تصحو طيور النوارس فتنشر ضجيجها متغنية بيوم جديد من عمر الدنيا وهي تطارد فلول الفشل حتى تعود الابتسامات إلى الوجوه الحيرى التي تدب على رصيف الحياة تمتشق سلاح الصبر بعد أن عانت من الفرجة لموات

أحلامها عبر النكوص والتردي في مهاوي الخيبة. من يسعف الإنسان حتى يجدد يقينه إن كان ثمة يقين من شيء هلامي يتطاير متناثرًا في الأفق؟ وفي مرمى الساحل تبدو من بعيد صواري السفن تلفظ مداخنها ذلك الهواء الفاسد ليغطي سيرها الوئيد باتجاه المرافئ المحتشدة بالعمال، وقد تقاطروا من كل فج بحماس اليوم الوليد تملأ جوانحهم برؤية الغد الضبابي الزاحف مع غبش الأمواج في مدها وتدافعها نحو الشاطئ حيث ترتمي لافظة الزبد مع الأسماك النافقة. وترتعش النوارس الكامنة في فجوات أوكارها محتضنة صغارها أو أعشاشها في أكنان تكافح الريح والعطش ورشيش الأمواج المنتحرة على الضفاف تلسع المداخن والطيور الراقدة ذات العيون المرتعبة بالخوف من هذا الضجيج الزاحف نحو الهدوء الذي تقاطر مع الندى الصباحي يطرد فجرًا أراقه ليل متباطئ وقد ولى هاربًا من الأشعة الذهبية تتناسل خيوطها عبر ذلك المدى نحو القارات البعيدة لتشكل خيمة من الضياء الوافد ليوم جديد، يوم يصرع الآمال ويبدد هشيمها.

(12)

وذات يوم كئيب جاءني نحيب زميلتك منى باكيًا عوضًا عن موسيقى صوتك الأثير إلي. كانت تنقل إلى نبأ حدوث اصطدام بينك وبين حافلة شحن كبيرة حطمت عربتك ونقلوك إلى المستشفى مصابة بكسور .. هويت من الكرسي الذي أستند عليه بعد أن فقدت توازني من هول الصدمة، وأصبح قلبي مثل شمعة ترتجف لتيار ريح سريعة.. لم أعد أقوى حتى على التفكير .. سألت منى متوسلاً بتوتر.. ماذا بيدي أن أفعله؟ أجاب نشيجها: ادعُ لها بالسلامة.. وصرخت في ظلام الليل لماذا حبيبتي تصاب بهذا الحادث؟ ألم يكن في الشارع سواها؟ إنها إرادة الله.. هكذا تموّج نحيب صوتها.. ياللزناديق في قرية مارينا الخبيثة

أفسدها اليهود الفجرة.. إن في أقدامهم المكر والخديعة.. احتموا بالنبي موسى حتى أنقذهم من فرعون ثم انقلبوا عليه! بذرتهم فاسدة أينما وضعوها. يالبؤسي وألمي. كيف ستقضي ليلها بين الروائح التي تفغم الأنف وهي الوردة الناضحة بالعطر.. الممرضات الجافات لا يعرفن الابتسام. إنهن يعملن مثل الآلات المسيرة بدون روح.. يتحركن بقلوب مثقوبة لا تعرف الرحمة، مشاكلهن الخاصة تطغى على كل سلوكياتهن وهن وإن أظهرن لطافة ونعومة في الحديث فشرهن أسوأ.. ولن أنسى علاقاتي الطيبة معهن وحبي لهن في فترة من عمري، فإن التجربة معهن قاسية نوعًا . وحبيبتي لا تدري هذه الخلفية التي تتوجس المكر.. إذ إن صغر سنها لا يبيح لها اختراق السدود في العلاقات العامة بين الناس. إنها ترتجف من الخجل ولا ترفع صوتها إلا عندما يطأ أحد على كرامتها فهي تتحول إلى نمرة ضالعة في الكبرياء.. وحتى كلماتها لا تختارها قاسية مهينة إنما تترفق بمن أمامها وتدع له فرصة الاعتذار لأنها لا تود أن يكون لها أعداء يمزقون رخاء حياتها التي مرّت سريعة لا تحفل بالكثير من الآثار السيئة الذكر. صديقاتها يلتحمن بها ويكثرن من السؤال عنها ويستدرجنها لحفلاتهن، ولكنها تعتذر في الغالب ما لم يكن لديها ملبس يليق بالحفلة ومن عطائها لهن مبادرتها للمشاركة في حفلة الرقص الذي تجيده ليضفي جوًا عبقًا من المتعة والمرح. فأين أنت يا حبيبتي من ذلك كله ؟ أحسب أن المهدئات التي تعطى ضمن وصفات الدواء في الغالب تجعلك الآن في حالة اللا توازن معلقة في السديم. وربما نسيت الإنسان الذي وضع جيشان عاطفته بين يديك؛ لأن التركيز تلاشى من أبخرة الأدوية فلست الملومة إذن!! وقد قالوا جملة لا أتوقع صدقها منسوبة إلى الخالق عز وجل وهي "إن الله جميل يحب الجمال" إذ إن الخالق خالق الجميع فلماذا ينحاز إلى نوع دون الآخر.. إن قد تكون مبالغة ممن فتنهم جمال الخلقة وأنا أميل معهم إذ إنه يلفت النظر

في كل شيء وليس جمال الوجه فحسب هناك جمال الروح.. جمال الطبيعة، جمال الجسد.. وجمال اللوحة.. وأنا أنتقي الجمال الأول.. فالروح هي الأصل في كل أمر.. تغذي الجسد وترقق العطاء وتبث الإحساس.. إنها ظاهرة في الشعر بالذات . فثمة العشرات بل المئات والملايين من ناظمي الشعر يجيدون العروض وينمقون الكلمات ويحسنون تعبير القافية بيد أنهم نظامون وليسوا شعراء .. طالما يفتقد جهدهم ذلك الإحساس الذي ينسكب طواعية دون تكلف.. يتناثر بفعل العاطفة.. يتدفق طواعية دون عناء.. والمؤسف أن هذه الأغلبية التي تنظم تغضب إن نالت هذا اللقب مدعية أنها طالما تحافظ على الموسيقى الشعرية فقد كسبت النسيج، والعرب هم شعراء في السليقة ورغم ذلك فلا يوجد سوى سبعة معلقات ما زال لها التذكر على مدى التاريخ. لبثت أهادن الألم الذي استحال إلى سفافيد تنغز في روحي الهائمة فوق البحور البعيدة التي شهدت طواحين الحروب الرومانية تضج بها أمواج هادرة مثل الحروب الصليبية أجداد بونابرت.. أسأل طيور النوارس الهائمة وراء قرص الشمس الهارب خلف الغسق المتناثر الألوان تجوس بخراطيمها اللامعة ماذا لديك من أنباء سواحلك الوسطى حيث ترقد حبيبتي التي تمزقت بعض أوردتها في ذلك الموقع اللئيم والسائق الأبلة ربما كان منتشيًا من سيجارة الكيف حتى يسابق الريح في قيادته للشاحنة الضخمة فلا أجني سوى اصطفاق أجنحتها المهدلة تعابث بعضها غير عابئة بما يحترق في أعماقي. صوتها جاءني واهنًا بعد بضعة أيام من العذاب متقطعًا بفعل اضمحلال القوة "ادعُ لي .. كنت سأموت.. ربنا ستر! كيف أنت؟ ولأنني كنت ضعيفًا أمام جبروت الحب الطاغي فقد بكيت من أجل شبابها الذي ينال منه الألم حتى يخمد جذوته ويهد من عنفوانه. في حين تاقت نفسي إلى مرآها حتى وهي مطروحة على سرير أبيض تقيدها المشدات والأغطية ، الساق مرفوعة

إلى أعلى والرأس مربوطة بأحزمة وليس سوى العينين وقد، فتر ضياء شعاعها.. باذخة الحنان يتمايل رأسها الصغير بضيق الحرية المقيدة بسلطان الجروح والقروح.. تبًا للدواء إن لم يكن بلسمًا على ذات المروج، حسناء النيل.. معذرة يا صغيرتي إن لم يهتم بك أحد شأن أهل المراكز والمقامات التي يقولون عنها رفيعة وإلا لانهالت عليك الأسئلة ولظهرت صورتك في الصفحات الأولى من وسائل الإعلام الفاشلة في وطن عرف أفراده مؤخرًا بالنفاق، وتصيد الأحداث والفضائح وإن كانت تافهة بقصد الإثارة واختطاف الجديد حتى وإن كانت البطلة راقصة من الدرجة الثانية أو فاجرة احتك بها وزير فاسد.. نعيب زماننا والعيب فينا. كم أردنا ذاك الزمان بمدح فشغلنا بذم هذا الزمان. فصمتًا أيها الجهل في وطن البوم والغربان. فالنعيق علامة الموت لعصركم الوضيع فطريق الشرفاء لن يمر بالقرب من دروب الفاسقين .

قلت لنفسي: من تكون حتى تريد أن تقلب الموازين بمجرد أنك عشقت فتاة صغيرة أصبحت زوجة لك بعقد عرفي. هل أنت متأكد من استمرار حبها لك وعدم تفجر اليقظة ذات يوم لترميك خارج قلبها؟ قد تكون مخلصة بهذا الزواج العرفي ولكن هل هذا يكفي أن تستمر السعادة مفعمة بالرضى الكامل بالشروط التي تضعها أنت، وليست هي شريكة حياتك.. وإلى متى سيدوم الطريق الذي تسلكانه، توقفت عند مراسي السفن التي تنوي أن تدرك القلاع.. وشواطئ البحر بابتسامة شاحبة تستقبل القائد المكدوني الجهم.. يوجه منجنيقاته وسهامه في ذلك الموقع بصرامة العسكري لا تلين قسمات وجهه.. دائمًا مشدودة الأطراف.. تبًا للعيش معه في كنفه..إن انتصر صمت وإن انهزم غضب.. الانتصار شهادة تفوق ترفرف مثل راية باسقة تتقدم الصفوف ببسالة لا تعرف الخوف..

أتمنى أن أكون شجاعًا مثل ذلك الصنف من الرجال، لا يهابون الموت

ولماذا أكره الموت سوى لأنني أحب الحياة! نعم للحياة طعم لا يقاوم .. هو الحب .. هو السعادة.. ولذا نكره الموت؛ لأن له وجهًا كالحًا لا يعرف الابتسام.. لأنه يأخذ ولا يعطي.. يسرق ولا يمنح.

تتراقص الحروف أمامي ولا أكف عن القراءة .. قراءة التاريخ.. قراءة الأمس. كان أحد المعروفين يتحدث عن حفلة عيد ميلاده.. طرد ضيوفه المشاركين؛ لأنهم ذكروه بضياع عام من عمره.. وعمرنا كله يضيع فكيف لا نحزن عليه خاصة وأن أكثرنا لم يترك أثرًا يتذكره الناس به. ملايين البشر ذهبوا بلا ملامح أو هوية.. المقابر ملأى بالعظام من الأجساد المتفسخة بقايا حياة ليست أكثر من كومة عظام قد تداس إن اقتربت من الطرقات والشوارع الرئيسية. تعافها حتى الكلاب وتتجنب موضعها.. وهذه نهاية كل إنسان رغم محاولة الفراعنة تحنيط عظماء موتاهم بقصد الخلود ..أخفوهم في أماكن موحشة بعيدًا عن العيون بضعة قرون، ولكن الإنسان الذي تجول فوق سطح القمر هبط قبلاً إلى قاع الأرض يبحث عن المخبأ فيها ولم يبق سوى قيعان البحار.. ماذا تراها تكتنز غير اللآلئ في جوف المحارات. ألا يزال هناك الكثير منها؟! أجدادنا اخترقوا البحار منذ عشرات السنين في السفن الشراعية حين جابوا البحر وحرثوه حرثًا.. والكثير منهم ماتوا تحت ثقل الصخور التي أنزلتهم حتى الأعماق.. أنفاسهم لم تحتمل فقدان الأكسجين فتهاووا في تلك الحفر بين الكهوف المرجانية فتناهشت أجسامهم أسماك القرش وغيرها من الحيتان المفترسة ومضوا إلى غير رجعة.

لك الله يا جميلتي المسكينة.. احتملي مباضع الأطباء وتخبطهم في تحديد مكان الوجع.. بعضهم يتعلم من صراخ مرضاه، فلا يرف له جفن. هناك مقبرة في مدينتي سميت باسم الطبيب الذي ملأها بمرضاه الذين ماتوا على يده.. المريض ليس أكثر من رقم في سجله سواء مات أو صارع الحياة، والحي أبقى من الميت. هكذا ينظرون إلى الإنسان ..

بلا قيمة. وإذن فالجميل أغلى من القبيح.. والغني أثمن من الفقير. ولو استمررنا بهذه الموازين سوف نصل إلى أن الحيوان أكثر فائدة من الإنسان.. نعني بذلك الحيوان الذي يضاهي في وزنه عقل الإنسان.. ثم ننتهي إلى سؤال جدتنا حواء: من الذي قتل شقيقه من أبنائك؟ فإذا غضبت فنسألها من أحب إلى قلبك منهما؟ وإذا حثت في وجوهنا من تراب الجنة نكون قد ربحنا هذا التراب الثمين. وقد يكون هذا التراب مرجعًا للعلماء كي يحللوا محتوياته.. قبل أن تطأه أقدامنا يوم القيامة. فأي الكواكب أقرب إلى الجنة بعيدًا عن نيران الشمس اللاهبة التي تنتظر أرواح اليهود المتوحشة.. قتلوا مئات بل الآلاف من أبرياء شعب فلسطين.. نساءً وأطفالاً . لم ينجُ منهم حتى الشيوخ والعجائز حيث السلطة تميل إلى جانبهم خوفًا منهم.. سوف نبقى رغم الدماء التي تسيل نتذكر بأن معدننا يأبى إلا السلام، هكذا أمرنا ديننا الحنيف. السِّلم يفتح الذراعين ويواكب القبلة حين تنهال على من أتى لك محبًا ينشد الارتخاء والتخفف من أعباء الدنيا. الجميع يشكون في كافة أنحاء الأرض من هذا الذي يجثم على القلب في موكب الهموم. لفظة صغيرة قد تخفف من ذلك العبء تدفعه إلى خارج الذات؛ حيث تقوقع ما رفضته الحياة. طردته خارج نظامها أو استنفد أغراضه مثل الزفير الذي يدخل إلى الجسد كهواء نقي ثم نلفظه فاسدًا يثقل على النفس متى احتشد في الأعماق، ولولا تلك المقدرة الجسدية من تركيبة الوجود لهلك الناس من فساد الهواء في الأعماق قبل فساد الأمكنة.

(13)

همومنا أكثر من أحلامنا في هذه الدنيا .. ولهذا نقترب غالبًا من التعاسة . كنت أجتمع مع رهط من الرجال تساوت بينهم الدروب رغم الفوارق الاجتماعية تملأ أحاديثهم أحداث الماضي وحكاياته.. يتبادلون

حكايات التراث ثم يغرقون في الضحك. حكايات الماضي زاد الحاضر والشعر العامي البليد يقوى من ترديدها، الجيل الجديد لا يستسيغ تلك الذكريات.. ينفر منها لأنها لا تلبي طموحه المتصاعد بالهروب من الواقع الذي لا تفاعل معه.. نظرته تجاوزت الحدود حيث العالم الصاخب من حوله.. عالم العنف الذي لا يعرف الرحمة أو الضعفاء (إن لم تكن سبعًا أكلتك الضباع) وهذه حقيقة تعلمناها من البراري إذ لا سيادة فيها سوى للأقوياء.. يفتكون فيها بالضعفاء من أجل العيش.. لا يكبر الصغار إلا بشق الأنفس.. وهناك الصراع الأزلي.. والغلبة للصامدين.. البراري تتسع لخوض معارك البقاء والصراع الذي لا نهاية له حتى يضيع ما تمتاز به الحياة ويتفق مع نواميسها.. إنه الحب الذي يتدثر به الإنسان والحيوان معًا، إنها خصلة يلتف حولها كافة الأحياء؛ فتجعلهم يتكاتفون من أجل الدفاع عنها.. الحيوان يدافع عن صغاره؛ لأنه يحبهم ولا يريد لهم الموت كما أن الذكور مطالبون بالدفاع عن إناثهم وأبنائهم.. وتفاعل الحياة أينما يكون بين الحب والكراهية والخير والشر.. إنه الصراع الأزلي بين هذه المتضادات في دنيا الفناء، ولا ينتهي إلا بنجاح عنصر القوة واستتباب الأمر له. إنما هو خداع وتظاهر بانتصار أحدهما على الآخر.. وقد فسر ذلك بأنه تضارب في الرغبات ومجابهة لابد منها عندما يحاول أحدهما اختراق صفوف الآخر، وهي البداية لاشتعال فتيل الخلاف. ورغم محاولات أطراف أخرى ليست منحازة أو أنها تؤمن بالتسامح بكبح الجماح فالنار تبقى تحت الرماد خامدة لا تنطفئ، وقد جاءني هاتف مطمئن بأن الخطر زال عن حبيبتي وتجاوزت العملية الجراحية بنجاح وأعطيت المضادات والدماء التي خسرتها.. وهذا الإجراء الأخير أقلقني لأن نقل الدم يعتبر في الطب بمثابة نقل مصائب كثيرة من شخص إلى آخر.

وقد ظهرت أعراض أمراض كثيرة على العديد من الناس بسبب نقل

الدم من مصاب إلى سليم كما أنها احتاجت إلى نقل "ضلع" اصطناعي بدلاً من ضلع فقدته في الحادث. وحمدت الله على هذه النتيجة، وإن كان القلق ما زال يستبد في تفكيري ولن أرتاح ما لم أرها أمامي سليمة معافاة. وبما أنني متقاعد فليس ثمة ما يمنع امتطاء الطائرة مسافرًا في أيّ وقت من الأوقات وهي الفائدة الوحيدة لمتقاعد إذ لا شيء يقيد حريته أو حركته في الانتقال من مكان إلى آخر، وما عدا ذلك فالعزلة هي السجن الباهظ الثمن. أعرف أن المرتبط بعمل ينتظر نهاية الأسبوع حتى يستمتع بإجازة قصيرة تريحه من عناء العمل خلال أسبوع ولكنه يجهل مأساة إجازة طويلة بما تختزنه من ملل وتفرزه من سأم مزعج. ولعل من حصل على إجازة طويلة لمس تلك المعاناة وضاق بالفراغ بدون عمل مثمر. مع أن العالم أخذ يضيق بازدياد البطالة خاصة بعد أن حلت الآلة بدلاً من الإنسان في الكثير من المرافق لتوفير الوقت والمال لرب العمل وهو اتجاه فرض نفسه في معظم المجالات وفي كافة بلاد الدنيا..

والغريب أن ولادة طفل جديد تعني على المدى الطويل أخذه مكان رجل شيخ في موقع من مواقع العمل. ولعل الأماكن الوحيدة التي لا تقبل التجديد إلا بمواصفات خاصة فهي في ساحات الإبداع حيث التلاحم للوصول إلى ما يخطف البصر ويثير الألباب .. إنه الارتفاع بمستوى الذوق وتجاوز المعتاد في أي مجال تمر عبره حياتنا المعتادة. هذه الموهبة اكتسبتها عندما كنت أمارس عملي الوظيفي فأقتطعها من سرقة أوقات الفراغ وربما من اختصار النوم والانقطاع عن الزيارات وغيرها؛ لأن أمتع الأوقات كانت تلك التي أنتزعها للتفرغ لهوايتي في القراءة التي تحولت إلى إمتاع الناس بقراءة تجاربي المفيدة، ومع أن المكتسبات التكنولوجية المختلفة جعلت الناس ينصرفون إليها مثل: البث الفضائي والألعاب الإلكترونية والإنترنت وغيرها، فإن للكتاب أنصاره الذين لا يحبذون التعويض بسواه إذ يخلق تلك المشاعر ويرهف الإحساس ويوفر عبقة

هادئة لا تحتاج سوى إلى الانفراد مع العمل الإبداعي .

ولعل هذا هو المجال الوحيد الذي تأخذ فيه المنافسة المبدعة حقها دون تكاثر أو شكوى من البطالة المزعجة.. وكانت هوايتي التي تشاركونني في متعتها تجعلني أتجه لها كلما شعرت بالضيق من الفراغ والرتابة والملل من تكرار الأيام وفقدان الأحبة الذين فرقتني عنهم ظروف الحياة. وهكذا، فإن حبيبتي التي ابتعدت عنها مرغمًا لا تفارقني صورتها وأنا أؤرخ لتلك العلاقة السامية منذ التقيتها حتى تزوجتها ولكن أوضاعنا الاجتماعية تفرض علي أن أدعها بمفردها بعيدًا عني مع اشتعال الشوق إلى ضمها إلى صدري ثم تقبيلها والجلوس بقربها نتسامر ونسترجع الذكريات مهما كانت صغيرة أو قصيرة عبر اللقاءات وما انتزعناه من الوقت لنتجاذب أطراف الشوق إلى أيام ماتعة مرت كمثل السحاب سريعة خاطفة..

وشددت الرحال حتى أهنأ برؤية حبيبتي بعد هذه الحادثة المريعة فأطمئن إلى أن المفاجأة النابعة من قلب لا يعرف المجاملة أو التظاهر إنما يطرح مشاعره الصادقة ولهفته المخلصة فتذوب الكلمات في النظرات الصامتة والمعبرة عما تطويه الأعماق، وتدافع عنه المشاعر وقلق الليالي المشتعلة بالخوف والرؤى المرعبة. فالحب لا ينظر إلى الجسد كمؤهل نهائي إنما هو التكوين الكامل الذي يستوعب القلب الصادق الطوية الدفاق المشاعر بالحنين والشوق. ومن هنا فلا سبيل إلى الارتواء من الحب إنما يبقى القلب مثل وخزة صغيرة من مضغة سمكة لذيذة.. كيف يكون الارتواء من الحب.. إنه المستحيل.. نعم إنه يجافي المنطق لرفضه الارتواء وهو يحرث في فضاء العمر. أرغمنا عقولنا لتلفظ كلمة المستحيل ولترفضها في الوقت ذاته. لا شيء مستحيل.. كما ليس ثمة ارتواء في الحب.. يبقى ثابتًا لا امتلاء له مثل وضع الماء في الأواني المستطرقة .. الكمية تتوزع في الأواني وتبقى ثابتة على ارتفاع

واحد. وهكذا الحب يتوزع القلب في كل نبضاته ويبقى محافظًا على ذلك المستوى مهما تشمم حبيبه. الحب ضوع واستشاق متواز ثابت الكمية يتوالد ويتجدد بالعطاء مع الشوق والحنين. . وهكذا يبقى الظمأ.. مهما تطاول البوح.. وتسامر القلبان يخفقان بالحنين وبالشوق المتعطش للمزيد من ضوع الحبيب متغلغلاً بالدم! قبلت خديها بشغف، وامتلأت أنفاسي بعطر جسدها الناعم فنسيت المستحيل ودخلت محراب الظمأ والانجراف اللاهب وأن أشعل جسدها بقبلاتي الولهى إلى كل عضلة فيها مهما كبرت أو صغرت.. أنقل حرارة الحب ما بين اللمسات والضم الهادئ إلى تطريز الموقف في جلسة عائلية تتقيد العيون ولا تكف عن الوميض بالسعادة التي تنتظر انفجارها تحت ثقل حرارة الجو الماكرة في نهايات فصل الصيف. لم تعد الكلمات التي نتبادلها تكفي للتعبير عن البوح الراشح من أعماقنا يئز بقلق الليالي التي مضت كئيبة بالنواح الخامد المضرج بالدموع والصمت والآهات الحبيسة. الذكريات تنقلنا إلى أودية سحيقة عانينا خلالها من عيون الفضوليين التي تأبى إلا أن تفرز ظلالها السوداء على انزواء البراءة حتى في المنتزهات العامة.. تحدثت لغة العيون كثيرًا حتى أفرغت بعض شحنات القلوب المتيمة بالعاطفة وسوف تبقى تمتح من هذا المعين المتجدد، وإن لم تشعر بالارتواء مطلقًا فهذا قدرها؛ لأن الحب عاطفة مجنونة لا تتقيد بأية صفات انسيابية أخرى ورغم أفضالها الكثيرة في التمسك بالحياة. فإن سلبياتها ليست قليلة حيث تجعل الإنسان ضعيفًا أمام سطوتها حتى تحبسه مسلوب الإرادة ضعيف الحيلة، وهذا منتهى الاغتواء في بحور الحب ولا أقول نزوته لأن العاطفة ليست نزوة بل انجذاب إلى عالم الإنسان السوي.. عالم التفتح على خبايا النفس التي تنشد صفو الحياة مع الطرف الآخر الذي يجعل لوجودها ذلك المعنى الإنساني السامي بالمشاركة العاطفية وجاذبية المتعة السامية. في مجتمعنا يسخر بعض

أفراد الجيل الماضي من تبادل كلمة الحب وتداولها في المجالس مؤكدين أنه لا وجود لها في حياتهم، وهي مقولة مجروحة لا تستقيم مع الواقع، وإلا كيف يعيش اثنان تحت سقف واحد دون أن يكون بينهما ألفة وتفاهم بل انجذاب وتقارب؟؟ وهذه عناصر فطرية في طبيعة الإنسان تنضوي تحت لواء الجاذبية إن لم نقل إنها من علامات الحب وأولياته.. فالانسجام لاسيما بين ذكر وأنثى تربطهما علاقات أوثق - قبل ميلاد أطفال - منها الاستئناس والارتياح وتبادل اللذة، ولولا ذلك لدب الخلاف والتباعد من اللقاء الأول، إن لم نقل النفور وهذا يعني ظاهرة من دلائل الحب في بواكيره تتطور وتتعمق مع زيادة الالتحام والالتصاق والتفاهم.. بما في ذلك عامل الجنس الذي هو من طبيعة الحياة، به تزداد وتتكاثر البشرية وتحافظ على نوعها من الانقراض كما هو شأن المخلوقات الأخرى ، والانفصال هو من علامات إخفاق ذلك الانسجام بين الزوجين وهي إجابة شافية على الذين ينكرون الحب في حياتهم الزوجية مهما كان مداه؛ إذ إنه يبدأ مثل الولادة طفلاً يحبو ثم ينمو مع الأيام ويكبر، فيستحيل إهمال فقدانه أو التغاضي عن تغلغله في كافة العروق. أنا قارئ نهم، عشرات الكتب تتكدس أمامي.. تحرجني الصفحات التي ما زالت مطوية.. اختياري لما أقرأ صعب جدًا.. أتناول الكتاب ثم أدفعه جانبًا.. حالاتي النفسية ليست دائمًا على ما يرام.. أفكاري تتطاير محومة في فضاءات لا نهاية لها ثم تنصب في عالم حبيبتي .. أحاول جعلها لا تفتقد شيئًا حتى لا تتضايق من وحدتها بعيدًا عني. أخاف أن يفسدها الفراغ والضجر.. أفعل لها ما تطلبه مني حتى لا تتذرع بإهمالي لها ونسياني لاحتياجاتها .. هي الشابة المتقدة شعورًا.. أحلامها متطاولة وبلا نهاية .. في الحياة إغراءات كثيرة لا حدود لها.. الجديد يطرح نفسه كل يوم والعاجز يتألم؛ لأنه لا يقوى على تحقيق ما يريد إلا بثمن غال. والنساء غيورات .. من طبعهن التنافس والتسابق.

والأسعار الباهظة لا ترحم من لا يستطيع، إنما تضاعف من عجزه وخيبته.. والأحلام الليلية تمتد مع القهر حتى الفجر.. وتنفجر الحلول الصعبة مع النهار الجديد. فإما تأتي على عاتق الرجل أو تتولاها المرأة نيابة عنه.. ولكن كيف سيتم الحصول عليها؟ هنا مربط الفرس.. والفرس هي السيدة الجميلة التي تستطيع أن تلمح أو تسقط في بئر الحرمان لتدفع الثمن.. وقد يكون ثمنًا غاليًا من كرامتها وسمعتها ومستقبلها وهي مأساة الفقر في كل بلاد الدنيا .

والفقر عدو لا يرحم وقد تهدده أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه حين قال : لو كان الفقر رجلاً لقتلته!! إذن فهو امرأة لا تخجل من إغواء النساء ليقعن في حبائلها.

وذيول حادثة العربة لم تنته عند دخول حبيبتي المستشفى وإجراء عملية تكلفت الكثير، بل جاءت إحدى صديقاتها لتهمس لها قائلة:

– لماذا لا تعيدين العربة إلى وكالتها وتأخذين غيرها جديدة؟ فنقلت إلي الفكرة التي لم أجد مانعًا دون تنفيذها مادمت أدفع أقساطًا لعربة مستعملة مع مضاعفة القسط في هذه الحالة. وهكذا ابتعنا عربة جديدة بالتزام مالي ضخم سوف يزيد من الأعباء على عاتقي، إنما يدخل السرور إلى قلب حبيبتي . ومضت الأيام ورصيدي المالي يتناثر حتى توقف معينه.. تسرب من بين أصابعي مثل الماء الذي أغتسل به كل يوم ومع ذلك لم أتذمر.. لم أضطر إلى فضح واقعي حيث لن أجد من يقف إلى جانبي حتى لو رفعت شكواي إلى السماء . إنها مشكلتي الخاصة ليس لأحد دخل فيها . واقترضت خصمًا من راتب التقاعد المحدود .. ضغطت على مصاريفنا.. تهربت من بعض الالتزامات السابقة حتى لا تهتز صورتي لدى حبيبتي البعيدة عني. سمعت لفظ الشكوى من "بخلي" بعد أن كنت مسرفًا .. وهل يتحول المسرف إلى بخيل؟ مطلقًا؛ لأن موازين الحياة لا يمكن أن تنقلب على عقبيها.. وبدأت

أخطط حتى أحصل على دخل جديد يخفف الأعباء، فأنجح مرة وأخفق أخرى. والحب يزداد اشتعالاً في قلبي كلما تصورت ابتعاد من أحب عن مجرى حياتي المتمزقة؛ لأن ذلك يعني الجنون لي بكل أشكاله فلا سبيل للحياة بدونها. هكذا وقر في ذهني وفي تفكيري.. فاللهم رحمتك بعبادك العشاق الذين ينسون في معضلة التخفف من أية أعباء سوى العشق أن لهم منازل وأسرًا وزوجة وأبناء يتذكرون سوءاتهم أكثر من حسناتهم. خيرهم مضى ولم يبق سوى شرهم وهم لا يعلمون أن هؤلاء المسحورين بالصبابة التي طمست الماضي وأشعلت الحاضر هي شهادة البراءة والطفولة. فقد منحهم الله صفة لا تعطى سوى للذين لا يحملون أحقاد الماضي أو معاناته وقسوته.. رموا ذلك خلف ظهورهم وأعلنوا بقوة وإصرار .. نحن أبناء اليوم.. وما ذهب انقضى وانتهى إلى غير رجعة.. ليس لنا علاقة بما مات أو رحل.. نسفته الأيام من تاريخنا .. نحن نتفرغ لحصاد اليوم لاقتحام الغد؛ لأن الماضي دفناه في خزانة التاريخ.. نعود له إن شئنا مع أننا سنكون مشغولين عنه بالحاضر والمستقبل. فالزمن سريع التقلب.. لا يعرف الراحة والانتظار.. الضعفاء يتساقطون في الطريق. والمجرمون يتمسكون بصيدهم.. والعصاة يطورون أسلحتهم.. الأبرياء يتفرجون مذهولين . . والعلماء ورجال الفكر وحدهم يقرؤون ما استوعبوه في هذا الصراع المذهل بين اللصوص والصادقين في حراسة التاريخ .. حراسة المثل والقيم الإنسانية. الثراء ليس من علامات الانتصار والنجاح إنما هو خفقة صغيرة نجت من قفزة واسعة.. استوعبنا الماضي الذي لفظناه؛ لأنه قاتم ضعيف.. استهلك قدراته بسرعة.. والجديد هو هذا الحيوي المتفاعل الذي استل قدرته من ضعف الماضي وتراخيه.. استمدها سلاحًا يذود به عما آمن به.. والإيمان صخرة قوية لا يقوى على التصدي لها سوى الأبالسة والأشرار الذين يطيحون بما لديهم في معركة واحدة ثم يتشبثون بالبقايا

المهترئة.. الخيوط الدالة على وقائع المعركة بتفاصيلها التي توشي بالغلبة للحق والصدق، وليس النكران والتدليس. أشعر أحيانًا بأنني قد انفصلت عن الدنيا، وارتضيت زاوية لي تسمح بأن أنفرد بأحلامي التي تجنح دومًا في خيالات قاتمة غامضة أتوه فيها بعيدًا عن العالم.. أخاطب مخلوقات لا يراها غيري ليست من الجن، وإنما مخلوقات فضائية تغريني بأن أتعاطف معها وأتلذذ سلوكياتها المؤدبة جدًا.. إنها لا تتكلم كثيرًا وبصورة واضحة إنما تكتفي بالإشارة والإيماءة وأرى دولاب حياتها يسير بانتظام نفتقده في أمورنا الدنيوية.. ولم تكن لتستكر وجودي بينها إنما تعاملني باحترام وترفق كضيف مرغوبٍ فيه.. لم أفتقد سوى حبيبتي ولولاها لبقيت ملازمًا لتلك المخلوقات المدهشة واللطيفة. ولكن عطر تحول بيني وبين أي تغيير في حياتي.. لا أستطيع نسيانها أو إهمال التفكير فيها. أعترف أمام العالم بكامله أنه لا يربطني بهم سوى هذه المرأة الصغيرة.. زوجتي بالعقد العرفي الذي أباحه الإسلام لمن هو في مثل وضعي.. يكره الخطأ والزنى ويحب الصدق والحق والشرع بأقل تدابيره إذا افتقد بعض عناصرها.

أعلم أن انجذابي إلى المخلوقات العليا لن يؤثر على مسيرة العالم بدوني ولكن أعلنها صريحة ترفعني عن كل سيئات الدنيا حتى أن زوجتي تكره الممارسة على سرير الزوجية، ولم تعطني تلك اللمسات الأنثوية الساحرة بل تضيق بكل ملامسة قرب فخذيها قائلة إنه عبث شيطاني لا ضرورة له. وقد رضيت بهذه الجفوة منها؛ لأنني أعشقها ولا يهمني الجنس في علاقة شبقية ملتبسة معها وهي متمسكة بي وتشعر بالغيرة من أية نساء يقتربن مني أو يحترمن سلوكي المتزن. وكانت أمها تعرف بأن ابنتها تصدني حين أشتهيها وقد ألمحت لها بأنني سوف أمل تصرفاتها وأنصرف عنها ذات يوم إذا ما استمرت في هذا السلوك غير الطبيعي، بيد أنها سخرت منها لأنني شغوف ومتعلق بها جدًا. في وحدتي

أبتلع الكتب التي تزخر بها مكتبتي إذ أبقى مستيقظًا حتى ما بعد منتصف الليل. لا أشعر بالضجر ولا الملل ما دام الكتاب استولى على اهتمامي، أضاجع الصمت ولا أسمع سوى وشيش أحلام بناتي تتطاير في أنحاء البيت.. ذات ليلة وقد استبد بي الحزن؛ لأنني لا أستطيع السفر لرؤية زوجتي حدث ما لم يكن في الحسبان.. كنت شارد الذهن حين شاهدت غمامة بيضاء صغيرة أمامي تحمل أحد الكائنات الفضائية الذي هبط مبتسمًا وجلس قبالتي.. ابتسمت له محييًا ثم رأيته يناولني كتابًا الذي أكتشف أنه مصحف. تلمع أطرافه بضياء مشع. حملت القرآن بعد أن طبعت عليه قبلة فاختفى الشبح الذي أهداه لي.. وشعرت ببعض الخوف.. هل يعني هذا قرب موتي.. حاولت إخفاء المصحف ولكنني كنت أرتعد وأنا أحمله بين يدي فأين أخفيه.. بين الكتب؟ لا يجوز.. في سريري.. لا يجوز .. في ثيابي؟.. لا إنما أستطيع إخفاءه بعيدًا عن العيون، حتى وجدت مخبأ في أقصى زاوية من النافذة وضعته فيها بعد أن لففته بقطعة قماش مزركشة من القطيفة.. عقب أن أديت صلاة الفجر مضيت إلى سريري وأنا أرتجف لأن ملك الموت سوف يأتي لانتزاع روحي. فماذا سوف يحدث عقب ذلك؟ هل سيتولى الملائكة محاسبتي عما اقترفت من معاصي؟ . أصابني ذعر جعل جسدي يقشعر ويرشح عرقًا. يا إلهي، هل كنت على استعداد لمواجهة ملك الموت في هذه المرحلة من عمري؟ الواقع أنني لم أفكر بالموت قطعيًا بل تناسيته ورميته خلف ظهري، كأنما الخلود سوف يكون من نصيبي. فتذكرت بأن المقابر تزدحم بالأموات وأن بينها أناسًا يستحقون الخلود ومع ذلك فقد تخاطفتهم الملائكة . أبناء آدم تضج بأرواحهم الطبقات العليا من الكواكب. الكواكب عددها لا يحصى وليس لبلوغها من وسيلة. إنها تفوق التصور. ثم شعرت بأنني أسبح في تلك الآفاق، ومع ذلك فقد تمكنت من التساؤل: هل هي نهايتي؟ حتى رأيت ذلك الشبح يضمني إلى صدره ويبتسم.

(14)

أخبرتني عبر الهاتف وهي تبكي بأن والدها المغترب انتقل إلى رحمة الله إثر نوبة قلبية كما أخبرتها زوجته هاتفيًا والتي سوف تُحضر جثمانه ليدفن في وطنه.. نقلت لها مشاعر الحزن والمشاركة وخففت عنها بتعاطفي وبأنني سأكون إلى جوارها قريبًا.

أصدقائي كثيرون ولكنهم مثلي بلا رصيد بنكي، وأتصور أنك كنت أحدهم فلم أضفك إلى قائمة الذين حاولت أن أقترض منهم.. فالحاجة مذلة حتى لو طلبتها من أقرب الناس إليك.. ولعل مقولة رسولنا ﷺ "أنت وما تملك فلأبيك" فإن أبناء اليوم لم يسمعوا بها قط .. وحتى لو سمعوا بها فلن يعوها؛ وبالتالي لن يطبقوها إلا بصورة مقلوبة، أي استنزاف ما يملكه الآباء إن كانوا قادرين، أو الاستدارة إلى الجهة الأخرى وعدم سماع حاجتهم.. وهكذا فقد صدق من دعى هؤلاء الأبناء بالخسران المبين ونسيانهم أجدى.. قوانين الحياة وضعها الخالق منذ نشأة الإنسان، وإذا كان بعض الخلق يريد تغييرها فليس لسنة الله تبديلا.. عاش ذلك الرجل بعيدًا عن وطنه بحثًا عن تغيير واقعه.. كل إنسان يسعى في هذه الحياة بحثًا عن الأفضل.. ولا يدري أي أحد عن مصيره .. إنما عليه ألا يستسلم للكبوة أو للصعوبات التي يواجهها إذ إن لذة الحياة هي في التحدي ومقارعة الخطوب مهما كانت صعبة .. أصبحت الهجرة في دم العرب منذ العصر الإسلامي والدعوة إلى الدين الحنيف.. قبلها كانت الماشية تربطهم بالأرض في حدود الوطن.. والأرض تعني الكلأ والمراعي والغدران وهي جميعًا لا تتحقق إلا بهطول الأمطار.. وكانت الأمطار تشح في الجزيرة العربية في الكثير من السنوات؛ فتهمل الأرض ويجف الضرع وتموت الماشية، إلا مناطق محدودة يدور حولها القتال وتفنى الأنفس؛ لأنه لا أحد يرضى بموت ماشيته وأبنائه أمام عينيه.. والعرب

هم في الأصل رعاة لماشيتهم التي هي عيشهم رغم تواجد الشجعان والعباقرة وكبار الشعراء بينهم.. وحتى الصعاليك الذين ثاروا وخرجوا على التقاليد فلم يجدوا ملجأ سوى تخوم الجبال يختبئون، وبالكهوف يلوذون بها من الحيوانات المفترسة.. فهل كانوا أصحاب مبادئ أرادوا التعبير عنها فاختلفوا مع كبار رجال القبيلة الذين حالوا دون ذلك التعبير؟ من الصعب التأكد وذلك لعدم وجود من دوّن تلك الأمور في ذلك الزمن الباهت، زمن الجهل وضعف الثقافة وقلة الذين يحسنون الكتابة وتدوين الأحداث حيث الجهل هو السيد، لولا أن الشعر ينتقل عن طريق الحفظ والترديد على الألسن لضاع ذلك الزمن وما عرفنا بتاريخ أجدادنا سيئاته وحسناته ورجاله وأبطاله.. وإذا كنا احترمنا أولئك الرجال من كبار الصعاليك فلأنهم أرادوا الخروج على النمط والتجديد في أسلوب حياتهم.. وتحدوا كبارهم وهي خطوة في سبيل تطوير حياة الإنسان والخروج بها من المألوف إلى التجديد. ذهب والدها محملاً بالآمال والطموحات ثم عاد بعد أن أبلى بلاءً حسنًا وكون ثروة لا بأس بها محمولاً على الأعناق في صندوق خشبي من مطار إلى آخر، حتى استقر به المقام في جدث تحت الأرض؛ ليواجه من يحاسبه على ما حصل منه في حياته ولا أحد يعرف سوى الله أين تكون نهايته التي تحكمها أفعاله.. حسناته وسيئاته في الدنيا التي نتمسك بها ولا نحب مغادرتها مهما كان وضعنا المعيشي أو الاجتماعي فيها. قال سبحانه وتعالى: ﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ وهي مشكلة البشر على الأرض تدور الحروب والعداوات والمصائب والخلافات بسبب هذه المادة اللعينة، حب التملك. وإذا كان فلاسفة المعسكر الشرقي قد حاولوا بمبادئهم الاشتراكية إسقاط هذا الجانب من حياة مجتمعاتهم فقد فرضوا عليهم الحرمان وعدم التمتع بمباهج الحياة ولسنوات طويلة. بيد أن الطبيعة الإنسانية سرعان ما تغلبت على نظامهم، فانتصرت الرأسمالية؛ لأنها

أقـرب إلى طمـوح الإنسـان في التـملك والحـيـازة عن طريق جـهـده الشخصي وإمكانياته الفردية. والموهوب ليس مثل العاجز.. والذكي ليس مثل المعوق.. فهي جميعًا حصيلة الجهد وحتى النشأة وما توفر له من فرص أو منحه الله من موهبة.. ولولا ذلك لما كانت المنافسة الشريفة هي الطريق إلى تحسين موقع الإنسان في حياته.. سواء في عمله أو حقله وإدارة مشاريعه.. متى ما توفرت له الحرية الكاملة؛ لتوظيف إمكانياته وعقله.. إذا كانت له زوجة متسلطة فلن تجعله يستفيد من تلك المواهب؛ لأنها في الغالب تتدخل في سلوكه وتصرفاته وتحول دون توظيفها كما يجب.. فانتبهوا من تدخل نسائكم فيما لا يفهمنه من أمور الدنيا وتصريف الأحوال. يا حبيبتي الوارثة كيف ستكون الأمور بعد أن تقبضي ميراثك.. بماذا تفكرين في اختيار طريقك.. هل ستشغلك النقود عني.. ونصبح في طريقين مختلفين.. هل طموحك وأحلامك أن تذهبي بعيدًا في فلسفة المالكين وليس الفقراء الذين تصطدم طموحاتهم غالبًا بضيق ذات اليد فتذهب سرابًا مثل اللاهث في الصحراء باحثًا عن الماء راكضًا نحو السراب ونهاية السماء التي تمتد إلى ما لا نهاية؟!! ما يهمني هو أن يكون اختيارك موفقًا فلا تقعين فريسة للأوهام أو من هم حولك من أقاربك الذين سوف يضعون الخطط لامتصاص ثروتك بل وحتى دمك؛ لأن الفقر جعلهم أشبه بالوحوش التي يناصرها الشيطان. وبعد أن التقينا تحدثنا عن عقبات السفر؛ لأن زوجة أبيها طلبت منها مصاحبتها إلى بلد الأمريكان لاقتسام التركة كما يتوجب عليك اصطحاب محام ورجل قريب منك جدًا ليس أنا؛ حيث إن زواجنا المدني قد يعيق ولا يفيد.. وهم سجلوك كفتاة وليس كسيدة متزوجة. الأتعاب باهظة.. ركوب الطائرة يكلف آلاف الجنيهات للفرد الواحد فكيف إذا كان العدد ثلاثة .. ومصاريف الرحلة ليست هينة أيضًا؛ لأن الحياة هناك مرتفعة التكاليف خاصة للغرباء.. وعدت أقضم أظافري وأبحث

عمن يقف إلى جانبي في هذه الظروف الصعبة.. أستعرض أسماء الأقارب فلا أجد من ألوذ به لأنهم ناصبوني العداء.. أستعرض الأصدقاء معظمهم محدودي الدخل.. والأثرياء ليست لي بهم علاقة متينة، ولمع في ذهني اسم ذلك الرجل الكبير.. الرجل الذي عرفني نزقًا متهورًا في شبابي حتى كانت نهاية مرحلة التحدي الشقوية زنزانة غيبتني عامًا ونصفًا.. خالها الانتهازي أعلن لها أن ليس لها من خيار آخر حتى تحصل على تكاليف السفر سوى تزويجها بصورة شرعية إلى أحد الأثرياء حتى لا يضيع حقها من الميراث، أما ارتباطي بها فليذهب إلى الشيطان؛ لأنه ارتباط ضعيف غير معترف به شرعًا . وهطلت الدموع بيننا .. واقتربت اللحظة التي كنت أخشاها.. لحظة الوداع وتحطم الأحلام التي ضفرناها على مدى أربعة أعوام .ارتفع عويلها محملة إياي مسئولية تحطم أحلامنا بسلبية التعامل مع الظروف الحرجة، وأنا أقدر منها كرجل على تجاوز هذه المعضلة بإيجاد النقود التي تحول دون هذه المأساة.. وجافاني النوم لبضعة ليالي قضيتها في التفكير والدعاء بأن نتجاوز هذه الظروف القاسية حتى لا تضيع منا تلك الأحلام التي بنيناها سويًا للعيش معًا إلى الأبد. وتقدمت إلى تلك الشخصية بخطاب أوضحت فيه بأنني أعاني من ظروف مالية صعبة وأتوسل إليه بإنقاذي من حبال الديون التي تلتف حول عنقي. وقد تأثر ذلك القطب المسئول بما آلت إليه حالتي فأمر لي بمبلغ أخرجني فيه من العسر إلى اليسر بلمسة حنان مادية، وجعلني أتنفس الصعداء، ولا أنسى له ذلك الموقف الذي أنقذني من كافة المصائب خاصة طرد شبح الفراق وتدخل خالها اللعين الذي رأى فيما نحن فيه الاصطياد في الماء العكر عن طريق صفقة يعود مردود فائدتها المادية إليه، غير مهتم بما يحدث لنا من ذهاب آمالنا أدراج الرياح إلى جانب ما يصيبنا من تعاسة وصدمة لن نفيق من آثارها مطلقًا وإلى نهاية حياتنا.. أسرعت إلى إخبارها بأن

الله بعث لنا المنقذ في الوقت المناسب.. ولم تمض أيام قلائل إلا وكان معظم ذلك المبلغ بين يديها.. وتغير الحال من تعاسة وبكاء إلى ابتسامة ملأت آفاق حياتنا، ومن فرط فرحتها ارتكبت بعض الأخطاء التي لم تفطن إليها فابتاعت ما تحتاجه من ملابس مرتفعة الثمن تليق بالوارثة المحظوظة التي سوف تقتحم أجواء ذلك البلد الرأسمالي يحيط بها محام دفعت له مبلغًا كبيرًا لمرافقتها .. وخال قذر يبحث في هذه الرحلة عن صفقة ترفع من مستوى وضعه وتجعله من رجال الأعمال الموسرين إذ إنه يحترف أعمال المقاولات بشكل محدود بطريقة سرية.

بينما دعواتي الصادقة لها بأن توفق في رحلتها التي سوف تحقق أحلامنا في حياة رغدة نتقاسم فيها الحب والتفاهم حتى الممات في رحابها، بعد أن فقدت كل ما أملك في الصرف عليها خلال سنوات حبنا الذي كان يزداد توثقًا وصلابة . وطرأ على ذهني لا أدرى لماذا ذلك النبي إنه سليمان الذي منحه الله القدرة على التخاطب مع كافة الكائنات الحيوانية، بل وإحضار من يريد بين يديه عن طريق تلك الحيوانات كما حدث لملكة اليمن بلقيس التي جيء بها - من مملكتها البعيدة في اليمن- حتى تعرض عليه غالي النفائس والأحجار الكريمة بقصد إغوائه وإغرائه وهي الملكة الفاتنة . هل سوف أتمكن ذات يوم من تقمص شخصية خيالية تستطيع أن تطير إلى تلك القارة البعيدة حتى ألازم محبوبتي في غربتها؟! إنها أمنية توسلت لو تحدث لي لفترة زمنية قصيرة لتحقق أحلامي لولا أنها بعيدة عن الحدوث - هكذا أجبت نفسي بصراحة - بينما تبددت الكثير من الأحلام المماثلة في سالف حياتي.

(15)

اقتضت الرحلة التاريخية مدة طويلة من الزمن قاربت الشهرين خفف من وطأتها أنها كانت تهاتفني كل ثلاثة أيام. بينما كان المحامي

معها يخوضان معارك مع جهات قضائية أجنبية؛ لتثبيت حقها الشرعي من خلال ما خلفه والدها.. والأدهى من ذلك أنها كانت تعاني من وجود قرحة في معدتها فتتناول بعض المهدئات للتخفيف عن ألمها حتى أصيبت بإغماء ذات ليلة قرر الأطباء الذين عاينوها من ضرورة إجراء عملية جراحية مستعجلة لإنقاذ حياتها، وبالفعل أجريت لها عملية ناجحة والحمد لله، وكانت نقودها قد نفدت في مصاريف طعامهم اليومي الذي تتولى هي الصرف عليه، وقد تدخل محاميها فدفع عنها تكلفة العملية عن طريق بطاقة الائتمان التي كان يحملها معه. على أن المفاجأة كانت في إعطائها موعدًا بعد بضعة أشهر لصرف استحقاقها من الميراث وهكذا عادوا بخفي حنين وإن كان تثبيت حقها مدعومًا بحكم قضائي لا خلاف عليه لأنه قرار نهائي، لا أدري ماذا يخبئ لنا القدر إذ رغم ما عرفت عني من تفاؤل فقد بت أخشى المستقبل بعد أن تفرق عني كل من هم قريبون مني.. أو على الأقل أخذوا ينظرون إلي كمقامر في آخر أيام حياته يتمسك بخيوط واهية حتى يتشبث بحياة ليست له، أو بمعنى آخر يريد أن ينسى واقعه ومسئولياته ليختبر وضعًا لا يلائمه سواء من جهة العمر أو الأحلام الوردية التي قذفت إلى الخلف ممن هم في مرحلته العمرية.. فالمفروض أن ينتظر نهايته القادمة التي هي أقرب ما تكون إلى القبر ويحصي أفعاله لعله يغسلها بالأعمال الصالحة التي تكون له سندًا في الحياة الأخرى. أما التمسك بمستقبل مجهول فهو من قبيل الأوهام. رغم هذه التلميحات والتصريحات فقد أهملت سلبها وإيجابيتها متمسكًا بذلك النداء الذي لا يفارقني قط، نداء الحاضر وتلويحه حبيبتي التي أهملت كل النصائح لها متمسكة بالحب الذي زرعته في قلبي منذ التقيتها ولم تخلعه حتى عندما نختصم. وإنما واجهت الزوابع الأسرية بقلب صامد لا يتزحزح قيد أنملة. فهل أستطيع وأنا أجد هذه الفاتنة إلى جانبي مضحية بشبابها ومستقبلها إلا أن أقف معها مهما

كانت العقبات والمصاعب التي تواجهني؟؟ ذلك كان قراري الذي لن أحيد عنه حتى لو بعت عمري من أجلها! أنت يا صاحبي تسمع هذه الرواية ولا تعلق مما يجعلني أتشجع إلى المواصلة؛ لأنها حياتي وأيامي التي عشت كل دقائقها ولحظاتها أيامًا تتنوع بين انشراح وانقباض.. ولا أعلم كيف سوف تنتهي هل أحمل في ثناياها إلى مستشفى المجانين أم للمعالجة مما أصابني، وربما ننجح في تخطي كافة العقبات ونتمسك في السير معًا على دروب السعادة، أيدينا متشابكة ووجوهنا باسمة ولا يهمنا ماذا يحدث ما دمنا قد انتصرنا وتجاوزنا كافة تلك العقبات. فعلقت قائلاً: إن حكايتك تتمتع بالصدق والبراءة لذا فقد شدتني إلى أبعد الحدود.

فرد قائلاً: شكرًا لك على هذا التشجيع ثم أضاف..

- كان خوفي عليها وهي في تلك البلاد البعيدة يثقل قلبي ليس لأنها ضعيفة أو تخضع لسماع أقوال خالها الذي يحقد علي، وإنما لأن تلك البلاد اشتهرت بالجرائم والخطف والاغتصاب وحبيبتي تتجول منفردة رغم إلحاحي عليها بألاّ تكون وحيدة في طرقات تلك البلاد وأزقتها - لأنها تعتد بنفسها وتريد أن تكون قريبة مني عن طريق الهاتف العمومي في الشارع؛ مما يجعلني أتساءل هل مثل هذه الحبيبة المخلصة تستحق مني التضحية والتصادم مع أي كان؛ لأنال رضاءها وأتمسك بحبها الصادق؟ هل الإنسان جبل من دم ولحم أم من معدن آخر يتحمل الصفعات بل والضرب على عواطفه. أعرف أن العواطف في هذا العصر أصبحت معلبة لا يعتد بها، ولكن هذه الحبيبة ارتفعت فوق تلك المظاهر فهي نموذج يستحق أن يوضع لها تمثال من ذهب للإخلاص والصدق حتى تتميز وترتفع عن الآخرين، فوق هامات الذين غدروا بأحبائهم أو باعوهم عند أول إغراء مادي. نعم نقرأ كثيرًا عن الذين تحسروا عندما واجهوا تلك الصدمة العنيفة من أحبائهم أو أقاربهم فكان عليهم الكفران

بالعلاقات المعلبة التي تنطوي على الخداع والمخاتلة.. إنهم ذئاب هذا الزمن الملوث الذي تحطمت فيه المثل العليا والتضحيات التي نسمع عنها في أحاديث الناس في مجالسهم فلا نملك سوى أن نأسف بأن ينحط الإنسان إلى هذا الدرك فيكون "الكلب" هو الذي لا يخون صاحبه ولا يتخلى عنه مع أننا نغضب ونثور عندما يوصف أحدنا بالمساواة بالكلب، رغم أن هذا الحيوان هو أشرف من الإنسان في مواقفه وأفعاله.. ونحن في كل يوم نكتسب شيئًا جديدًا يضيف إلى عقولنا معلومة جديدة.. عسانا نستوعب منها أن الحياة ميدان واسع تتصاقل فيه الأفكار والتمنيات، يبقى منها ما ينفع الناس أما الزبد فيذهب جفاء.. الحكمة الإلهية من وجودنا قضت بذلك.. والمصيبة العظمى أن عقولنا قد امتلأت خلال عمرنا بالكثير من الغثاء الذي احتل رقعة واسعة من طاقة عقولنا فأصبح الجديد المفيد الذي كسبناه مؤخرًا مترجرج الموقع وينزلق .. فلأنها المرأة الغربية - تريد أن تكسر اعتياد أيامها بذلك النمط تطلب الطلاق رغم أنه لا خلاف بينها وبين زوجها .. ثم تأسف وتعيش أسوأ لحظاتها وتعود بعد ذلك تبحث عن رفيق آخر يملأ الفراغ الذي تعاني منه ولإشباع غرائزها الجنسية!! إنه مجتمع الانهيار الأسري والعلاقات الذميمة فأين الترابط والحب في المجتمع الصناعي الرأسمالي .. لقد ضاع في حمى هذه الإغراءات المهينة للمرأة التي غدت سلعة دون أن تشعر تتقاذفها الموائد ومواخير الفساد حتى تعيش بعيدًا عن الإذلال وبيع الجسد علانية أو الاتجاه نحو المخدرات تروجها وتتعاطاها.. ستغدو انتعاشات الحسان مجرد أحلام ضائعة يتمنينها ولا يحظين منها سوى على التفاهات والقذارة. مجتمع الغرب يدفع بالفتاة إلى الاعتماد على نفسها منذ الثامنة عشرة من عمرها بينما هي طالبة أو تبحث عما يسد رمقها .

إنها مضطرة للتردد على أي مكان لتؤمن لقمة عيشها والسكن وحيدة

في غرفة ينقصها الأمان إذ يعتدى عليها وتغتصب أمام الجيران فلا أحد يحاول مساعدتها في محنتها.. هذا ما يُقال عن المجتمع الغربي. وتلقيت مهاتفة بأن زوجتي ستعود إلى وطنها عقب أن أكملت إجراءات تثبيت ورثها. وانطلقت إلى المطار حتى أسافر إليها وأطمئن عليها لأنني لم أكن أملك المال الكافي للبقاء طويلاً إلى جانبها.. وكانت متعبة فطلبت أن نخرج من محيط القاهرة إلى أقرب ساحل حتى نغير جو المدينة ونستنشق الهواء الطبيعي غير الملوث على جانب من البحر يساعدنا على ذلك عربتها التي ستقودها بنا ولم يكن لدى والدتها وشقيقتها أي مانع من هذا التغيير لعدم وجود أي ارتباط لهن. .

وتوجهنا إلى مصيف رأس البر حيث النفقات أقل من غيرها من المصائف. وكان فصل الصيف شديد الحرارة مما جعل الناس يتخففون من أي ملابس، فظهرت الأرداف باستدارتها وهم منطرحون هناك والسيقان بلمعانها والصدور الناضجة متزاحمة على طول الساحل حتى يقهقه الشيطان لهذا الصيد الجميل والنظر المباح. وكانت هي معبأة بالحياء الأمريكي المفقود فارتدت ملابس تكشف أكثر مما تخفي من الجسد. الصدر بارز من تحت الغلالة الشفافة والأرداف تتأرجح من وراء كيس صغيرة تكشف عن الأفخاذ والسيقان البيضاء المثيرة والشعر يتطاير مع النسيم الذي يتخلل الأجساد المكشوفة في ذلك المصيف الشعبي.. والشباب تترامق نظراتهم حول ذلك الجسد الذي عاد للتو من الغرب الذي نبذ الفضيلة منذ عدة قرون. وكنت أقضم غضبي حين أرى تلك العيون المشدوهة يتملين ذلك الجسد الأملس، وإن فكرت في زجرها فسوف يقال عني متخلف من أبناء الصحراء عاشر بنات المدينة وضحايا العصر الجديد فأسكت على مضض وإن كنت أحاول حمايتها لعدم تركها تسير منفردة.. حتى لا تغريها همسات الشباب الجارحة الذين تستقر نظراتهم على جسدها الجذاب؛ فيتحول إلى كلام مائع يحمل معاني

الإفساد لرأسها التي ما زالت ترفض أية إغراءات هابطة أو دعوة ماجنة. إنها تترفع عن تلك الغمزات لأنها لا تميل بطبيعتها إلى الخضوع الجسدي كما ليست بحاجة إلى تدنيس نفسها الطاهرة مادام لديها تلك العربة الفاخرة والزوج الذي تميل إليه بكل عاطفتها، رغم أنه لا يملك الكثير من المال ولكن العقبات المالية لم تقف في طريقها خاصة وأنها تنتظر ميراثًا ضخمًا في الطريق إليها.. رغم الذين يترصدون حركاتنا بعيون حاسدة.

(16)

بعد أشهر قليلة سوف تتسلم حصتها من الميراث، وهي ليست بحاجة إلى أية مشتروات مستعجلة بعد أن طافت بالأسواق الأمريكية وامتلأ نظرها بأحدث المعروضات الجديدة. وشاهدت هناك أن معظم الشابات الأمريكيات يكتفين في نزهتهن بالبنطلون الجينز الرخيص الثمن والقميص المشجر المتواضع بينما هي تملك ما هو أثمن من ملابسهن في الوقت ذاته والرخيصة البسيطة ولهذا لم تتساهل مع شاب نزق خبط على مقدمة عربتها بل أطلت من النافذة وشتمته قائلة: "ابعد يا متخلف عن العربية" ثم مرقت مسرعة من جانبه حتى أخافته.. لتذكرك بعربات الليموزين في شوارع الرياض فى أثناء الإجازات الرسمية حيث لا يحتاج الناس إلى خدماتها كثيرًا؛ لهذا فإنهم بمجرد أن يلمحوا ظل رجل من بعيد يتسابقون نحوه حتى وإن كان مجرد عابر طريق الذي قد يؤدي إلى حادث تصادم بين أكثر من واحدة بينها ويدعون ذلك بأنه اللهاث وراء الرزق.

وبنفس السرعة ما أن هبطت من الطائرة العائدة من وراء البحار البعيدة حتى تحركت أصابع الشيطان لتقتنص فرحتها بالمطاردة. إذ أقامت الشركة المالكة للعربة التي ابتاعتها بالتقسيط دعوى ضدها لعدم

سدادها الأقساط لعدة أشهر ولم تصرف الشيكات البنكية لعدم وجود الرصيد الذي يغطي . إذن فقد أعطت شيكات بدون رصيد، وهذا يخالف القانون الذي اعتبر الأمر من أنواع الغش أو النصب والاحتيال في إحدى الدول العربية التي اشتهرت بالتلاعب بالقانون إلى درجة السخرية بالنسبة للفئات المتنفذة والقريبة من السلطة. ولكنها في الوقت ذاته شديدة على الضعفاء الذين لا سند لهم حيث يتهمون بالنصب والاحتيال وتطبق عليهم روح القانون وحرفيته لوقاحتهم!! وربما أن زوجتي من الفئة الثانية التي لابد وأن تحترم القانون للأسباب الآنفة فقد أصبحت ملاحقة قضائيًا وكان الإجراء المبدئي هو حجز العربة وإيقافها عن الخدمة لعدم تسديد أقساط استحقت عليها. والخطوة الثانية الملاحقة عن طريق الجهات الأمنية لإصدارها شيكات بدون رصيد (رغم أن الشيكات حررت في زمن سابق وذلك عند صفقة البيع) وعندما استجارت بي مما يهددها لم يكن في مقدوري تحقيق الأمن لها بإيجاد المبلغ المطالبة به، وهو إلى جانب شركة العربة مطالبة صاحبة الشقة التي كانت تسكنها أيضًا بإيجار فترة سفرها إلى الخارج. كانت من الأيام الحزينة التي تكدرت فيها بما لم يحدث لي من قبل لاسيما وأن قرار توقيفها أصبح جاهزًا فكيف أتصور أن هذه الحبيبة الناعمة الرقيقة تتحمل خشونة التعامل مع القائمين على التوقيف سواء كانوا رجالاً أو نساء في هيئة رجال إذ إن أولئك فقدن العاطفة الإنسانية وأصبحن مجردات منها قسوة وتحجرًا. وكان العذاب هو الثمن الذي أدفعه نفسيًا وجسديًا حيث هجم علي داء السكر والكوليسترول وأخذت أفقد من وزني بالتدريج أرطالاً واضحة، وثرثرة الهذيان والأسوأ من ذلك أن أي دخل آخر لم أكن أناله سوى بالدين أو التشفع أو التذلل فكرهت الحياة التي انقلبت علي بوجهها المقيت، بعد أن كانت مبتسمة لي فاتحة ذراعيها لأيام البهجة والسرور والحب الجميل مما جعل خالها الجشع

يعود إلى مهاجمتي عن طريق إذلالها والتلويح لها بأن خير ما تفعله لإنقاذها من سجن مؤكد هو قطع علاقتها بي والبحث عن زوج يصون سمعتها وحريتها، ولم تكن ترد عليه سوى بالبكاء والعويل وتمزيق ملابسها أحيانًا من خلال تهاطل دموعها التي تسح دون توقف. فأمطرت كبار القوم برسائل الاستجداء ولم أتلق أي رد ربما لأنهم غير مصدقين بأن هذا الصوت الأدبي المرتفع وصلت به الحال إلى هذا المستوى. وتحولت الأشواق إلى ليل دامس لا أرى من خلاله سوى الأشباح والكوابيس الرهيبة.. اقتادوا حبيبتي إلى الحجز.. صرخت لهذا الحدث من خلال الهاتف .. تعاملوا معها بفظاظة فقابلتهم بالمثل .. كالت لهم أبشع النعوت أخفها أنهم وحوش آدمية تتربص بحياة الطيبين البسطاء. ألقوا بها في قعر العربة الزرقاء التي كان بوقها يزعج المارة خلال الشوارع المكتظة بالمارة..

ثم دفعوا بها إلى مكان الحجز دون اهتمام أو رحمة بضعفها وكأنهم أزاحوا حملاً ثقيلاً من أمامهم وليس آدمية ناعمة رقيقة . بعد ساعة واحدة كانت في المستشفى والدماء تنزف من يدها.. لقد حاولت الانتحار . فبقيت تحت الحراسة في المستشفى التابع للحكومة بقسم الإسعاف. وكنت وقتها أيضًا في المستشفى ..فقد ازداد علي ضغط السكر فوقعت في المسجد وكنت أؤدي صلاة المغرب في شهر رمضان المبارك بعد الإفطار مباشرة.. شيء رهيب.. هكذا تحولت تلك الأيام المرحة إلى قنوط وآلام لا يحتملها الإنسان.. وأتذكر أنني سألتها في اليوم التالي لتعارفنا هاتفيًا وقد أيقظت كل تهيؤات الشباب في قلبي: من أين خرجت لي يا زهرتي؟ أجابت بمرح: من البحر.. فيالها من أيام حلوة جميلة تلك التي غيبتها السنوات في هذه الفجوات السوداء.. حوريتي جاءت من البحر حيث الحرية السرمدية لتلتقيني أنا الكهل التعيس الذي أفنت الدنيا بهجته وسرقت شبابه، وبقى الهذيان يختلط

بالذاكرة . كان عقابها معي هذه الظروف القاسية ما بين توقيف وحزن ومشفى وانتحار.. كلمات قليلة قالتها في أثناء مرحلة الحب الوافد .. الحب الذي يهتف من الأعماق بانتفاضة الوليد الجميل في قلوب البشر، حتى يبعد شبح الألم والعذاب في هذه الدنيا الكئيبة.. دنيا التعساء.

يشق الغيب والسواد والظلمات ليبدو بوجهه الباسم السعيد . الحب رحمة من الله يجعلنا نكتشف اللون الأبيض الذي يهيمن على أعماقنا.. ننتزع منه سواد الألم والكراهية ربما إذ إن عنصري الخير والشر كامنان في تركيبة الإنسان فإن استدعاء أي منهما يعني تغليبه على الآخر. والإنسان طبيعته الحضارية يميل إلى الخير بعكس المتوحش الذي يعيش في البراري والأحراش حيث يستدعي الشر للدفاع عن نفسه المحاطة بظروف العداء والمغامرة والأدهى من هذين العنصرين أولئك الذين يحملون الاختلاف والبغضاء لبعضهم ومع ذلك يعيشون تحت سقف واحد.. فما أسوأ بعض الآدميين في طوايا أنفسهم، وما أشد كرههم لها فيا لها من مآس تحدث في معزل من هذه القبة الزرقاء؛ حيث تذوب الإنسانية على مذبح الجهل والأنانية! السرقة أصبحت مشروعة في هذا العصر مع شرط إخفاء معالمها أما إن انكشفت فالويل للغبي الذي لم يستطع المروق من أشواك الأنظمة الفاسدة في الزمن الهابط بالمغريات النتنة. ومر بنا المرض كغيره من الأمراض الاجتماعية الأخرى .. وعندما نلعق الجراح الغائرة كما يفعل الجنود في المعارك التي لم يشتركوا فيها، فالإصابات في الخطوط الخلفية أفظع من خطوط التماس. وأصبح السيف مصلتًا على رقابنا نحن الاثنين إما التسديد أو السجن، لسنوات قد تطول.. وقد ارتضيت التوقيف بينما تمسكت بالحب النظيف. الحب الأفلاطوني .. يدافع الخالق عن نظافته وعدم تلوثه بالثمن الهابط الرقيع.. وكان الخال التافه بانتهازيته يملأ بجعجعته الأذهان بأن الحل لإنقاذ الأسرة من وضعها المأساوي هو ما طرحه سابقًا أي بإدخال طرف

ثالث لديه الإمكانيات المادية حتى يحول دون قرار السجن الذي لا تحتمله إنسانة ناعمة هادئة مثل ابنة أخته التي تورطت مع رجل معدم لحين انفراج أزمتها بالحصول على حقها في الميراث الذي لن يتحقق ما لم تخرج نظيفة من تلوثها بالقضية التي سببها الرئيسي عدم تمكن من ارتطبت به من إنقاذها من العسر المادي. وكادت السيدة الصغيرة أن توافق على هذا الرأي في حالات ضعفها وخشيتها من السجن بالإضافة إلى الضغط النفسي الذي عانت منه من طرف أكثر من جهة قريبة تدخلت لتقديم النصح لها في ظروفها الحرجة التي تمر بها. لولا أن السيدة حين تستيقظ تفيق قليلاً من هذا الكابوس لتتذكر الرجل الذي بادلته الحب وعن حياتها القادمة مع أي رجل تجهل عنه كل شيء فتتصور بأن كارثة محققة سوف تقابلها في مستقبل حياتها هي إلى الجحيم أقرب فتتمسك بموقفها الرافض بانتظار أن يستطيع زوجها أن ينقذها من المأساة التي تنتظرها لاحقًا . وظهر منقذ جديد لحل الأزمة للتوسط على أن ينال مكسبًا من الوساطة يطلب بموجبه مبلغًا من المال كمقدم أتعاب لإنهاء القضية وديًا وسحبها من الجهات القضائية .

وكان هذا العرض أقل العروض تكلفة وإن كان يتطلب النقود المتواصلة لأن الإفراج يأتي بغرامة مالية لا تعود . والوساطة تتطلب وقتًا طويلاً أيضًا. وفرحنا بهذا العرض واختفت حبيبتي عن الأنظار ما بين منازل صديقاتها والهروب إلى بلدها.

ولكنهم اصطادوها في نهاية المطاف، وإن كانت مساعي خالها قد تمخضت عن اتفاق مع أحد المصطافين العرب الذي كان يبحث عن فتاة جميلة لتملأ حياته في أيامه الأخيرة أن يزوجها له لقاء دفع ما ترتب عليها من ديون.

كان الفجر قد شعشع حين أخذت الأصوات تختلط بشقشقة العصافير إيذانًا بانتهاء السهرة . لينهي الرجل حكايته المؤلمة قائلاً:

ولكنهم اصطادوها ربما بوشاية من خالها الجشع. وشهد على محضر الزواج رجال الأمن لتنتهي قصة المأساة الغرامية. على أن مشكلة كبيرة اندلعت في ذلك الموقف مثل عاصفة هوجاء هبت على حين غرة في غمرة تلك الضجة القاتمة إذ اندفعت السيدة تمسك بأحشائها بحثًا عن تواليت لتتقيأ به ما في جوفها إذ إن وجهها الشاحب قد غدى في لون الليمون وقد شعر الجميع بأنه سيغمى عليها وشيكًا . وبعد أن اعتصرها التقيؤ أخذت تمشي متمايلة ودموعها تتهاطل، بينما أنفها يسيل هو الآخر.. أحضروا لها طبيبًا من الإسعاف الذي تمتم لمن حوله بعد الفحص السريع قائلاً وهو يهز رأسه ويديه:

– هذه من أعراض الحمل.. دهش الجميع بل بهتوا من هذه النتيجة وكأنما القرار الرباني أراد أن يضع حدًا لهذه المأساة الأليمة والمغامرة البشعة .. (وتمكرون ويمكر الله .. والله خير الماكرين).

وكفت الألسن عن الكلام .. أخذ العقل في التفكير.. انهارت التوقعات والمؤامرة.. أشلاء القسوة تناثرت.. مثل أحلام اليقظة بهرها نور الصباح فعوت هاربة وراء غيوم النسيان مثل سفينة ركاب شراعية في مهب الريح.. ولم تفصح حتى بهجة صغيرة بمقدم إنسان يستعد من وراء الغيب أن يكون عضوًا في هذه الدنيا لا يعلم مستقبله ومصيره ما يبهج أحدًا من الأحياء الذين لا يعرفون مصيرهم مطلقًا.

في جو مضطرب تخيم عليه الغيوم الداكنة، وتتناثر السحب التي تفرز أمطارًا تنذر بانهمار عنيف تسبقه عربدة البروق وإشاعاتها في أطراف الأفق .. وفجأة زمجرت السماء غاضبة واهتزت الأرض.. فانهمرت الأمطار بقوة من خلال إعصار جائر استمر بضع دقائق في دمدمته كانت كافية للإطاحة بالكثير من المنازل العتيقة والتي بنيت بدون أساسات متينة .. وبدأ المركز الأمني الذي يقفون فيه تصطفق فيه النوافذ، ويمرق من خلاله رشيش المطر، بل إن الانهيارات أخذت تقترب

من الموقع، والصرخات تتعالى من كل جانب؛ مما أدخل الذعر في نفوس الحاضرين الذين كان ضابط المركز أسرعهم إلى النهوض وتأجيل الإجراءات إلى الغد؛ لينطلق الجميع إلى الشوارع المكفهرة إلا من الصواعق والانهيارات السكنية. ليسدل الستار على الفاجعة الحزينة التي أطلقوا عليها مسمى حيطان الريح.

obeikandl.com

القسم الثاني

بلقيس وخاتم سليمان

obeikandl.com

(1)

لا أفهم كثيرًا في دنيا الحب، إنما تصورته انبهارًا يزول وينمحي بعد فترة وجيزة حتى قابلت جابرًا فتساءلت وقتها بدهشة هل حقيقة أعجبت بهذا الرجل الغريب الذي رحلت بي نظراته إلى عالم خرافي بهيج؟ لم تطأه أقدام بشر؟ لقد شعرت في تلك اللحظة وأنا أتمايل راقصة في ذلك **المحيط الصغير** أنني أنطلق إلى محراب العشق. ذلك المكان **السحري المحاط بأسوار الغموض** حتى أنني أمسكت به على **الرغم مني ورجوته لأن يراقصني**، وزميل الدراسة الذي كنا نصطحبه **معنا وقد استجاب الرجل** مباشرة، وكنت أتمنى لو أستطيع احتضانه بيد أنه **لم يحاول أن يخترقني** بنظراته الهادئة التي كنت أتوق لأن تسرقني إلى عالمه **الغامض** الذي أجهل عنه كل شيء. كنت أتصوره عالمًا سحريًا أدخله **لأول مرة** في حياتي. وعندما عدنا إلى مقاعدنا لم أستطع مقاومة هاجس تلبسني بأن عليّ أن أتعرف عليه قبل أن تسبقني إليه إحدى الحسناوات اللاتي يمتلئ بهن ذلك المرقص؛ فأحضرت له كأسًا من البيرة كوسيلة تقارب تمهد لي معرفة اسمه وعنوانه ولأسمع صوته مباشرة عندما أجابني لما سعيت إليه كما عرف اسمي وأسرتي. وقد تردد في ارتشاف الكأس التي قدمتها له لأنه كان يعاقر صنفًا من المشروبات الروحية لولا أن زميله ألح عليه أن يتقبل هديتي له وحتى عندما عدت إلى مقعدي، وكان زميله يتابعني بالنظرات المستغربة ويتحدث معه، لم أستطع أن أبعد عنه نظراتي الوالهة رغم أن المكان كان مزدحمًا إلا أنني لم أشعر بأحد سواه في ذلك المكان حتى أنني عندما بدأت الأضواء تطفأ بالتدريج إيذانًا بانتهاء السهرة كدت أبكي من

الحزن؛ لأنني مضطرة للافتراق عنه. وهكذا سحبت أقدامي المتشبثة بالمكان للخارج وكان من حسن الحظ أنه وزميله بدأا يستعدان للخروج أيضًا. وعندما رأيته يقف عند المصعد وقد أخبرني أنه ينزل في نفس الفندق تنهدت من أعماق قلبي وأنا ألوّح له مودعة وقلبي ينفطر لفراقه.

وطيلة الطريق لم تفارق صورته خيالي بل إنني لم أستطع النوم تلك الليلة رغم أنني متعبة من كثرة الرقص والأطياف (المضمخة) بكؤوس البيرة التي ارتشفتها. وغبت عن العالم سابحة فوق موجة ضياع لازمتني طيلة الليل وأنا أتصوره بالقرب مني بل كنت أمد يدي إلى جانبي بحثًا عنه، ذلك الرجل الذي أغواني قلبي للاندفاع نحوه والارتماء عليه دون أن أعرف عنه أي شيء سوى أنه غريب على وطني. ولست أدري كيف انقضت ساعات الليل الطويلة وأنا أحتضن خياله وكان علي أن أهاتفه في الوقت الذي اتفقنا عليه صباحًا وقد لاحظت أمي أن حركاتي غير معتادة في ذلك الصباح؛ فأخذت تلح بالسؤال علي إن كان هناك ما يشغلني فأجبتها بأن الاختبارات هي التي تقلقني. وعندما سمعت صوته عبر الهاتف تملكني ما يشبه المس الكهربي ورغم أنني أقفلت الغرفة علي وأنا أطرح عليه بعض الأسئلة فقد كان صوته الرخيم يملأ جوانحي وخشيت أن يتسرب صوتي إلى الخارج، فعدوت حتى أتأكد من إحكام إقفال باب الغرفة، على أنه فاجأني بأن مكوثه في الفندق سوف ينتهي ذلك اليوم وأنه مرتبط بزميله للذهاب إلى الإسكندرية مما سبب صدمة لي خوفًا من أن أفقده نهائيًا، ومع أنني انتزعت منه ما يشبه الاعتراف بأنه أعجب بي ورغبته في أن نلتقي ثانية بل أعطاني رقم هاتف زميله الذي سيذهب إليه للغداء سويًا، فلاحقته بالهاتف مرة أخرى، وتمنيت له رحلة سعيدة على ألا يطول غيابه عني مع أخذي عنوانه في الإسكندرية على أمل أن أستطيع اللحاق به. وبقيت مشدودة إليه منذ تلك اللحظة لا يشغلني سوى متابعة تحركاته، أحوم في غرف المنزل زائغة النظرات كمن

أضاع عزيزًا عليه ولا يعرف كيف سيجده، ورغم أن أمي تنبهت إلى حالتي غير المستقرة فقد انهالت علي بالأسئلة التي لم تكن تجد لها إجابة مقنعة عندي حتى أنها نصحتني بالذهاب إلى الطبيب فأجبتها وأنا شاردة الذهن: أحتاج فقط إلى كأس من الليمون حتى تهدأ أعصابي المتوترة. فوضعت مع العصير مهدئًا دون أن أدري. لذا فقد استسلمت إلى خدر جعلني أرحل في نوبة حلم متقطع، والأطياف تتقاطر علي ووجهه الحبيب يتبدى لي من بينها مبتسمًا وتارة يرفع يديه ملوحًا يستدعيني، وبكيت من كل قلبي وشعرت بأنني ممزقة الأشلاء ما بين مكاني وتلك المسافة التي تفصل بيننا، ثم صرخت مستغيثة فجاءت أمي مقتحمة غرفتي على عجل في حالة من الاستغراب متمتمة:

- أعرف بأن حالتك غير طبيعية يا عطر؛ فقومي معي نستشير الطبيب .

فأومأت برأسي مجيبة:

- لا أشكو من شيء يا أمي.. إنما هي حالة من التوتر سوف تزول فدعيني بمفردي أرجوك.

فتساءلت :

- كيف لم يفلح معك قرص المنوم الذي وضعته في العصير؟

حينذاك شعرت برعشة تنتابني فقلت لها بصوت هامس:

- أحضري لي غطاء ودعيني أنام قليلاً..

ودثرتني وهي تربت على جسدي المرتعش وكانت الدموع تنضح من عينيها بذعر.

(2)

كان موعد لقائنا عقب عودته من الإسكندرية قد اقترب بينما أعصابي ما زالت مشدودة متوترة. ولما جلست قبالته شعرت بأن كوة من

السعادة تنفتح أمامي. لثمت أطراف أصابعه فاستغرب هذا التصرف وأبعد يده عني معلقًا:

- لا يجوز أن تفعلي هذا مرة أخرى . ويكفي أن تعرفي بأنني متعلق بك إلى أبعد مدى.

أجبت بنبرة حاولت أن تكون هادئة:

- أنت الملاك الذي انتظرته طويلاً.

فرد :

- إنما أنا بشر غارق في الذنوب .

فقلت مقاطعة :

- دعك من الماضي .. فنحن أبناء اليوم.

فعلق :

- أعرف.. ولكن أرجو ألا تعطيني أكثر من حجمي فتندمين.

فتنهدت من أعماق قلبي :

- لن أندم على من اختاره قلبي بمحض إرادته.

فتساءل :

- ألا تفكرين بفارق السن بيننا.

أجبت :

- لا تقاس السعادة بالسنوات إنما بالتآلف والانجذاب .

قال معلقًا :

- هذه مقولة العشاق ونحن في بداية الطريق.

- أعرف بأنني وجدت فيك الإنسان الذي بحثت عنه طيلة حياتي.

- لا تكوني متفائلة قبل أن تعرفيني جيدًا .

- وماذا تريدني أن أعرف وقد تكفل قلبي بمنحك مفاتيحه .

- ألا تخشين بأن يكون ضل الطريق؟

- كلا .. إنني أثق بالاختيار إلا إن كنت تنوي الغدر بي.

obeikandl.com

- وهل هناك .. من يقوى على سوى الاستسلام في حضرة هذا الجمال الفاتن؟

- لا أتباهي بجمالي أمامك فهناك من هي أجمل مني، إلا أن ما أحمله لك من عشق سوف تفتقده في غيري.

- أثق بصدقك يا أروع عطر تضوعته في حياتي.

- سوف لن تندم حين تسلمني قلبك .

- هذا ما حدث منذ قابلتك .

وسحب يدي برفق وطبع عليها قبلة شعرت بها تلامس أعماقي وتشعل شرارة امتدت إلى كافة أعضاء جسمي. ثم قال وهو ينظر إليّ مبتسمًا:

- كأنما أعيش في حلم .

أجبت بعفوية :

- ولماذا .. ألا تستحق أن تجد من تحبك؟

- ومع أنني أؤمن بالمعجزات.. فالوضع أكبر من تصوري .

- كلا يا حبيبي .. أنت جدير بأن توضع على رأس من اختارتك بدون مكابرة .

- لا تعلمين ماذا أحدث لي دخولك في حياتي .

- لا تبالغ يا جابر في استغراب أن ترتبط فتاة برجل اختاره قلبها.

- إن السؤال الذي ما زال يلوب في ذهني هو سبب هذا الاختيار .

- مع أنك صارحتني أن لك علاقات عاطفية في السابق إلا أن ذلك عهد مضى .

- لم أكذب إنما حدثت عقب لقاءات وتفاهم .

تنهدت لأجيب :

- دعنا من غرابة التفسير ولننطلق دون معوقات إلا إن كان لك رأي آخر.

فسارع بالإجابة:

- كلا يا حبيبتي .. إنما أغبط نفسي على هذا الاختيار والكنز الذي عثرت عليه .

- وأين تريدنا أن نقضي السهرة؟

- في المكان الذي تحددينه .

نظرت إلى ملابسي بامتعاض لأعلق:

- لم أرتدي ملابس تليق.. كما أنني لا أريد العودة إلى المنزل .

أجابني باندفاع:

- ليس في الأمر أي إشكال فنحن قريبان من محلات بيع الملابس الجاهزة فما رأيك لو أختار لك بنفسي ما يليق بك؟

قلت له في خجل :

- لا أود أن تفهم بأنني أستغل الموقف .

رد مقاطعًا :

- إنها رغبتي الصادقة فهيا ننطلق .

وانحدرنا إلى الشارع الرئيسي وأنا أمسك بيده الدافئة غير عابئة بالنظرات التي كانت تقتحم خصوصيتنا، ودلفنا إلى مكان مشهور لبيع الملابس النسائية وأخذنا نستعرض الفساتين ذات الألوان والنماذج المختلفة حتى اتفقنا على نوع لفت نظرنا من قطعتين وكان علي أن أتأكد من مقاسه فأشاروا إلى ركن قصي يسمح لي بأن أتخفف من ملابسي وقلبي يدق فرحًا لابتياع ذلك (الفستان) الذي طالما حلمت بامتلاك ما يوازيه صناعة وجودة؛ لأنه بطبيعة الحال من البضائع المستوردة، وهكذا طلبت من البائع أن يحضر لي حقيبة حتى أحمل فستاني القديم بدلاً من الجديد الذي ارتديته. وكان حبيبي ينظر إلى ذلك الفستان بإعجاب فقال بإخلاص :

- مبروك يا عطر .. إنه أكثر من لائق وأهنئك على حسن اختيارك .

قلت بفرح :

- هل أعجبك؟

فرد بسرعة:

- جدًا.. إنه أكثر من رائع .

- ومع ذلك فأنت شاركتني الاختيار .. فالتهنئة لك أيضًا .

وعندما رآني أقترب منه طبع على خدي قبلة سريعة .

فنظرت إليه بتحذير معلقة بهمس :

- نحن في مكان عام؟

أجاب معتذرًا:

- آسف.. ولكنني لم أستطع تمالك نفسي وإعجابي بك.

كنت في الحقيقة مسرورة؛ لأنني استطعت أن أجعله في حالة من التعلق بي واستحوذت على كامل مشاعره.. وتمنيت لو أرتمي عليه وأوسعه تقبيلاً لولا النظرات التي كانت تصوب نحونا من بعض المتسوقين في ذلك المحل الشهير حينئذ . إنما اكتفيت بأن أتناول الحقيبة من البائع وأنا أنظر إلى حبيبي بوله، وأدعوه إلى خروجنا من ذلك المكان الذي قد يشجعنا على نسيان ما حولنا وارتكاب ما يؤاخذنا عليه المجتمع المتربص.

كانت الفرحة لا تسعني وأنا أملأ رئتي من هواء الشارع - رغم إدراكي لتلوثه - إنما وجود حبيبي إلى جانبي يؤهلني لأن أستمتع بذلك الهواء مهما كان نوعه. وأوقفنا عربة أجرة انطلقت بنا إلى منزل صديقتي القريب من بيتنا حتى أكمل زينتي لديها استعدادًا للسهرة التي أوشكت على الابتداء في ذلك الفندق الذي تعارفنا به قبل يومين. وقرأت الدهشة في عيون صديقتي وهي تراني أرتدي ذلك الفستان الرائع بينما تركت حبيبي ينتظرني في مقهى يقع في بداية الشارع القريب من منزلها، سارعت إلى إبداء رأيها قائلة :

- عطر .. من أين سرقت هذا الفستان الرائع؟

ضحكت وأنا أجيب :

- وهل تعرفينني سارقة يا نجوى؟

- إذن هبطت عليك ثروة على حين غفلة .

- ثروتي هي الحب الذي شدني إلى الرجل الذي تعرفت عليه منذ يومين.

فقالت متذكرة :

- تقصدين ذلك الذي راقصته تلك الليلة.

أومأت برأسي وأنا أرتمي على كرسي الطاولة التي كانت تفصل بيننا.

فقالت معلقة :

- فهمت .. إذن فهو ثري .

- لا أعرف .. إنما يهمني إعجابه بي.

- أنت جميلة يا عطر .. وتستطيعين إيقاع أي رجل في حبائلك .

صرخت في وجهها :

- إنني أحبه ولم أحاول اصطياده .

أجابت :

- لن أحسدك عليه فهو قدرك إذن .

- الآن أصبت يا نجوى .. هو حبي وقدري الذي اختاره قلبي وكفى.

وشرعت في تمرير بعض أدوات الزينة على وجهي حتى يلاءم مظهري في هذا الفستان الجديد متسائلة :

- ألا تحبين مرافقتنا ؟

قالت بسرعة :

- ليس من اللائق أن أكون عذولة بينكما؛ فاستمتعا بوقتكما منفردين.

(3)

هبطنا إلى المرقص الذي واجهنا بصخب العزف والحركة المائجة في صحن المكان، وكان علينا أن نختار موقعًا نرصد حركة الراقصين في بدايتها لأنني أحب الرقص الذي أجيده كما أرتاح للمشاركة فيه . لذا فقد حاولت أن أنتزع موافقة حبيبي المبدئية على تلك المشاركة وإن لم أرغمه على أن ينخرط في حلبة الرقص إذا لم يكن راغبًا بذلك الفعل وكانت الموسيقى تنطلق من الأشرطة المسجلة يتحكم بها أحد المختصين في ذلك المرقص وأظنه يحمل جنسية أجنبية وإن كان يجيد اختيار الأنواع التي يميل إليها أغلبية الحضور؛ لأن لكل أغنية رقصتها المصاحبة بالموسيقى.

وعقب أن تناولنا بعض المرطبات وإن اختار حبيبي بعد ذلك شرب البيرة، انسابت إلى سمعي إرهاصات موسيقى رومانسية فتنبه قلبي إلى عدوى إيقاعها. فنظرت إلى حبيبي مبتسمة ففهم بأن جسدي أخذ يتجاوب مع الإيقاع الحالم فقال متجاوبًا:

- أراك مستغرقة ... لك العذر فالموسيقي فعلاً حالمة .

فصدرت عني ضحكة خفيفة وأنا أعلق:

- ما شاء الله عليك كأنك قرأت أفكاري.

فأشار بيده إلى الحلبة قائلاً:

- لك مطلق الحرية في أن تشاركي فيها.

نهضت مشرقة الوجه قائلة:

- لن يطول غيابي عنك.

ثم اندفعت إلى الحلبة محاذرة من أن أختلط بالراقصين الذين يترصدون الفتيات في مثل هذا الموقف . وشعرت بجسدي ينتفض وكأنما يرغب في أن يحلق في ذلك الأفق المفعم بالبهجة والتلاحم.

وبينما كنت منغمرة في هذا الإحساس الوجداني، شعرت بمن يتلمس يدي بلطف.

وعندما نظرت إلى ذلك الذي يحاول استمالتي اكتشفت بأنه حبيبي جابر، فابتسمت مشجعة واقتربت منه حتى كاد جسدي أن يلتصق به وأخذنا ندور على إيقاعات تلك الموسيقى الحالمة إلى أن بدأت الموسيقى تخفت بالتدرج إيذانًا بانتهاء الرقصة، فأمسكت بيد حبيبي وأنا في قمة الانشراح وعدت معه إلى طاولتنا، بينما ارتفعت الأكف مصفقة بإعجاب للمشاركين. وهكذا بعد هنيهة صدحت الموسيقى بلون آخر يميل إلى التقليد الغربي بإيقاعات صاخبة فقلت له ونحن نقتعد الكراسي :

- إنها سريعة الإيقاع فلا تعطي فرصة للتناغم الجسدي.

فهز رأسه معقبًا:

- لسنا ملزمين للمشاركة في كل رقصة ... والليل أمامنا طويل.

كان هناك بعض الأزواج من جنسيات مختلفة اندفعوا إلى الحلبة متلاصقين، وشرعوا في تطويح أقدامهم بخبرة واضحة بينما أمسك أحدهم بجسد رفيقته وأخذ يرفعها إلى الهواء حتى كادت ملابسها الداخلية أن تكون في مرأى الأعين، على أن ذلك لم يثنيهما عن معاودة الحركة بعنجهية أكثر حتى تصبب العرق على وجهيهما بفعل الحرارة التي تخلفها تلك الرقصات العنيفة، ولا بد أن يحيي الحضور هذه الإبداعات الراقصة؛ فتعالت أكف التصفيق مشجعة إلى أن تمهلت إيقاعات الموسيقى فما كان من الراقصين سوى أن ينحنيا كتحية للجمهور الذي هتف لهم إعجابًا بفنهما المتميز، بينما أخذ بعض الحضور ينسحب وكأنما اكتفى بهذه الرقصة البارعة، ولاحظت أن رفيقي بدأ ينظر إلى ساعته فأدركت أنه يفكر بالرحيل فطرحت عليه السؤال التقليدي:

- هل تريد أن نذهب ؟

فأومأ برأسه مؤيداً ... ثم أضاف :

- آسف لأنني متعب قليلاً .

نهضت على الفور معلقة :

- راحتك هي ما يهمني ... فإذا كنت تريد الذهاب فأنا جاهزة.

وأشار إلى النادل الذي جاء على الفور ودفع له فاتورة الحساب، ثم تحركنا في اتجاه باب الخروج حين سمعت اسمي على لسان إحدى صديقاتي التي قالت متسائلة :

- عطر ... أتتوين الانصراف ؟

أجبت نجوى بامتعاض :

- وماذا في ذلك ... لقد نلنا ما نحتاجه من المتعة.

وانضمت إلينا نادية التي أضافت :

- كنا نخطط لسهرة طويلة.

قلت:

- وما المناسبة ؟

ردت نادية وهي تتضاحك :

- ألا يكفي أنك ارتبطت بمن انتظرته طويلاً ؟

فدفعتها عن طريقي وأنا أقول :

- اذهبا عن طريقنا فنحن نعيش حبنا على انفراد.

علقت نجوى :

- ولكن هذه أنانية يا عطر .

أجبت وأنا ابتعد عنهن :

- سمياه ما تشاءان فلست معنية بأمركما .

قال لي جابر وأنا أقترب منه :

- ماذا تريدان ؟

- إنني غيورة وتحاولان سرقتك مني.

فتضاحك معلقًا :

- أليستا مستعجلتين مثل هذا الموقف.

أجبت :

- لا تهتم بهما... بل توقع الكثير منهما.

واندفعنا إلى خارج المرقص والفندق حيث أشار جابر إلى سيارة أجرة قفزنا إليها متساءلاً:

- ما رأيك في وجبة سريعة ؟

قلت بسرعة :

- أفضل أن أبتاع وجبة أتناولها مع أمي في المنزل .

- أليس الوقت متأخرًا ... فتكون والدتك قد أخلدت إلى النوم .

- إنها سوف تستيقظ حالما تسمع صوت مزلاج الباب .

وقطعت العربة الشوارع التي بدت هادئة في ذلك الموهن من الليل . وكنت أخشى ونحن نجتاز بعض التجمعات أن توقفنا إحدى الدوريات فأقع في حرج عند توجيه سؤال عن علاقتي برفيقي . ولم أرتح إلا حين ضمني جابر وهو يودعني قرب زقاق المنزل بينما طبعت على خده قبلة سريعة .

وتعلقت بخيوط الخيال يخفق باستحضار مفردات السهرة التي مرت سريعًا وقد استغرقتني أطياف النوم والتي يرافقني فيها رجل أحبه لأول مرة في حياتي .

لا أدري كيف سوف ينتهي بي عشق هذا الكهل الذي أفرطت في التوله إليه . كان يثيرني اعتداده بنفسه وعدم الانسياق وراء تحريضي له بأن يمتلكني. وقد بدا توتر خامد في العلاقة بيني وبين جابر لأسباب شخصية فقد كنت مغرمة بالرقص إلى حد الافتتان - إذ كنت أمارسه حتى داخل المنزل بمفردي - بينما كان حبيبي لا يعرفه جيدًا مما حفزني لتعليمه، ولكن لكونه ليس شابًا يلتقط الحركات الجسدية بسهولة فقد

تعذر تدريبه لعدم اقتناعه بجدواه . وحينما انخرط على حلبة الرقص كان بعض الشباب المشارك في تلك الحلبة يسارعون وقد وجدوني بمفردي إلى محاولة مشاركتي في حركات الرقص . وكان بعضهم يجيد تحريك قدميه مما يغري بالمشاركة لولا أن جابراً كان يتربص بما يجري في الحلبة بعيون مشدودة إليّ، فكان عليّ كيلا أثير غضبه بأن أهرب من أولئك الشباب وأبتعد عن مواقع رقصهم فأبقى بمفردي متنقلة من مكان إلى آخر وهو ما أثار حفيظتهم واعتبروني مغرورة بتناسق جسدي وإجادتي للرقص فسمعت منهم بعض الكلمات الغاضبة الغامضة؛ علي مما اضطرني إلى التوقف والعودة إلى مقعدي. ومع ذلك فقد كان جابر متذمرًا من سلوك أولئك الشباب الذين لاحقوني في الحلبة لولا أني استطعت إقناعه بأن مثل تلك التصرفات هي بمثابة إعجاب وليس تحرشًا بي . ومع ذلك فقد أرسل شتيمة مقذعة لهم باعتبارهم أهانوه كرجل يرافق حسناء في مكان عام، بل إنه توعدهم بأن يسحق أي فرد يقترب مني مرة أخرى .

وبما أن الجلسة في مثل هذا الجو المتوتر لم تعد تعجبني خاصة أن حبيبي لن يستطيع الشجار مع هؤلاء الشباب الفتية المتحمسين لانتزاعي منه، فقد أبديت امتعاضي ورغبتي في المغادرة . حينذاك خبط على الطاولة بتأفف مما أزعج النادل الذي جاء مسرعًا يسأل عن سبب تذمر (البيه) الذي طالبه قائلاً : هات فاتورة الحساب بسرعة .

على أن رفيقي قد بصق قبل أن نغادر المكان، وهو ينظر بشزر باتجاه الفتية الذين اقتربت رؤوسهم وهم يروننا نغادر، مما جعلني أوجس خيفة من تهامسهم وهم يحدقون بنا. وكالعادة وجدنا عربة الأجرة جاهزة حيث تراكض نحونا أكثر من سائق يعرضون توصيلنا إلى حيث نشاء . واخترقنا بإحداها شوارع المدينة متجهين إلى الطرف الآخر منها، وكانت تبدو هادئة ساكنة في ذلك الموهن من الليل ماعدا عربات الأجرة تمرق

في أكثر من اتجاه، ورجال الأمن يعتصمون بمواقع مجهزة لهم للراحة والتدخين فيما هم يثرثرون ويتبادلون الأخبار وما مر بهم من أحداث .

وكان السائق دمث الأخلاق إلى درجة أن عرض خدماته المستمرة معنا بأي مبلغ والذي لم يجد الاستجابة من حبيبي الذي علق : أعطني رقم هاتفك وسوف نتصل بك عند الحاجة إليك .

ولم تكن مثل هذه الإجابة مشجعة إذ إن السائق تمتم : (جميعكم تقولون هذا التبرير ولكن من النادر أن نسمع صوتكم بعد المغادرة) .

مما شجعني على سؤاله عن اسمه وأين يقيم وقد فاجأني بأن مسكنه قريب من حارتنا مما شجعني على التعليق بأنه سوف يتلقى اتصالاً منا. مما جعله يبتسم قائلاً : إذًا سوف يكون توصيلي لكم الليلة على حساب الأيام القادمة. فاعترض جابر معلقًا : لا أحب تجميع الحسابات لأي كان، ولا أحب أن أرتبط بسائقي عربات الأجرة مكتفيًا بأن عرض علبة سجائره كي يختار واحدة لتدخينها معه وقبلت حبيبي قبل الهبوط من العربة هامسة له بأن يهتم بنفسه ولا يشعر بالضيق. فاكتفى بأن هز رأسه بالموافقة قائلاً : تصبحين على خير يا حياتي.

(4)

كانت ليلة بائسة ذرفت فيها الكثير من الدموع دون أن أتمكن من النوم. لقد ركبني الأرق ولم أعد أستطيع البقاء في سريري .حتى سمعت أذان الفجر وبعد ذلك غمرني هدوء غريب وكأنما انسكب علي ماء بارد. فإذا بي أشعر أن ما يشبه الغمامة ترتفع في سماء الغرفة من فوق رأسي تصاحبها همهمات غريبة . وبدا أن مزيجًا من النور والظلام يتراوح من حولي. أحسست بالذعر وكدت أصرخ مستغيثة من الفزع لولا علمي بأن أمي وأختي نائمتان في الغرفة الأخرى وهما في النهاية لا حول لهما ولا قوة. وفكرت بالفرار من الغرفة وقد ركبني ما يشبه الدوار حتى تصورت

نفسي أحلم وأنا مستيقظة. وفجأة شاهدت جسمًا يشبه الآدمي له جناحان مثل الصقور يهبط وسط الغرفة ثم تشكل على هيئة امرأة مهيبة الطلعة تقف أمامي وتشملني بنظرات وادعة؛ فندت عني صرخة سريعة وارتميت على الأرض من الخوف. عندها سمعت صوت المرأة تتحدث إلى ببشاشة وحنينية وكأنما تعرفني منذ وقت طويل. رفعتني من الأرض بلطف وهدوء وابتسمت في وجهي بمحبة وقبلتني .

كانت في غاية الأناقة بعينيها النفاذتين السوداوين وبشعرها الحريري الذي ينحدر إلى ما تحت عجيزتها، ممشوقة القوام مليحة الوجه مبتسمة المحيا فقالت بصوت هادئ: لا تخافي يا صغيرتي، ولست سوى رسول لك، فأنا أدعى جيهارة الناسكة في بلاط الملكة. تساءلت بصوت مرتعش: رسول!! ممن ؟ أجابت من امرأة عظيمة. لاشك تعرفينها ؟ إنها بلقيس ملكة سبأ تدعوك للانضمام إلى حاشيتها. قلت بسرعة: ولكن بلقيس ماتت منذ عدة قرون فهل أنت معتوهة أم تخرفين ؟ أجابت مبتسمة : مهلاً لا تستعجلي الحكم يا صغيرتي فسوف ترين كل شيء بنفسك ... وأضافت أن العظماء لا يتعرضون للموت إنما تنتقل أرواحهم من عصر إلى آخر. ثم إنها أمسكت بيدي قائلة : تعالي معي وسترين بنفسك، فإذا بي ألتصق بها ونحن نخترق المسافات محلقتين بين النجوم حتى دلفنا قصرًا باذخًا تلتمع أحجاره باليواقوت والزمرد وهمست بأذني:

- سوف تدخلين مخدع الملكة بلقيس عما قريب.

ووجدت نفسي في قاعة فخمة تناثرت فيها المقاعد والتكايا المزركشة وفي نهايتها جلست الملكة بلقيس بين حشد من الحسان والجواري اللاتي يتابعن بغنائهن أوتار جارية رخيمة الصوت تتمايل طربًا مع أنغامها الشجية كافة الحاضرات . بينما كانت الملكة شاردة الذهن تمتص من كأس قاني اللون وهي تمسد شعر شاب حسن المظهر كان ينحني على قدميها يدعكهما بعناية أو يلثمهما بين الحين والآخر. وعندما رأتني

أحملق مدهوشة أشارت إلى بأن أقترب منها، فلما فعلت تناولت يدها وقبلتها بخشوع؛ فأخذت وجهي بين يديها وقبلتني وأجلستني بالقرب منها وأشارت بأن أسقى من الرحيق الذي كانوا يتناولونه وهمست لي بصوت رقيق :

– سوف لن تغادري هذا القصر بعد اليوم؛ لأنني أحببت ما بلغني عن سجاياك . فعقبت بحياء : إنه لشرف لي يا مولاتي بأن أكون خادمتك. فردت بسرعة: بل ستكونين إحدى جليساتي المقربات فاستمتعي بهذه الليالي الناعمة. فالعمر ينقضي ولا نأخذ منه سوى الأيام الماتعة. ولما انتشيت من شراب النبيذ وجدت نفسي أنهض لأتمايل بجسدي اللدن ذات اليمين وذات الشمال طارحة شعري في كافة الاتجاهات على أنغام تلك الأصوات الشجية مما ضاعت من بهجة الملكة التي أخذت تصفق لي بتحمس دليل ارتياحها، وأغراني تشجيعها بمواصلة الرقص في أوضاع مختلفة حتى شعرت بالإنهاك وكدت أقع، فإذا بها تقوم من مجلسها وتحتضنني بسرور وإعجاب وتطبع على خدي قبلات حارة وتأخذني لتجلسني بالقرب منها وهي تنثر كلمات الإطراء والإعجاب على إجادتي فن الرقص بهذه البراعة التي لم تألفها؛ لأصبح منذ تلك الليلة على قائمة فريق الطرب الذي يدخل البهجة إلى قلب الملكة كلما شاءت أن تنال بعض النشوة والراحة النفسية وهي مكانة يتطلع إلى أن يحظى بها أقدم الحاشية من نساء القصر ومعظمهن من أسر كبار الشخصيات في القبائل، بل إنها أوصت بأن أعطي كمية من (القات) كلما أردت الاسترسال في أحلامي في أوقات القيلولة، بل وأمرت لي برحلة على ظهور الأفيال. هكذا كانت بداية انضمامي إلى حاشية الملكة بلقيس ذات التيجان المزخرفة بالياقوت والزمرد. المرأة التي تمتد مملكتها وقوة رجالها إلى أطراف متباعدة من حدودها في جنوب جزيرة العرب ذات الشهرة في التاريخ بسد مأرب.

كنت قد عكفت بعد ذلك على القراءة المتواصلة أنا التي رميت بكتبي الدراسية بعيدًا من الضجر. أخذت أبحث عن الحب فيما أقرأ. أناجي العشاق من خلال الصفحات التي أتصفحها وتلوح لي وجوههم الشاكية ما بين السطور بينما آهاتهم متبعثرة في تلك الكلمات المجنحة . حتى تساءلت: لماذا العشاق دائمًا في صراع مع بقية البشر ؟ هل لأنهم أكثر شفافية في البوح بما يعتمل في أعماقهم. كان الحب دائمًا هو الوسيلة لتوثيق عرى المودة بين البشر في كافة الأزمان ومع ذلك فإن الكراهية والحسد كانا يصارعان البذور الجميلة في حياة كل إنسان. تلك البذور التي تدفع إلى الأعلى بشذرات البراعم التي لا تلبث وأن تستوي أشجارًا باسقة يتظللها الجميع دون استثناء حتى الحيوان الطريد يجد راحته حين يتوسد يديه أو أقدامه المنهكة من الهرب ليتفيأ تلك الظلال التي ربما لا تخلو من بقايا ثمار تساقطت من أعلى الشجرة .

على أن تعلقي بك يتقاطع إلى حد ما مع حبي لذلك الرجل الغريب لولا أن الخلاف بينكما أنه رجل بسيط في حين أنك امرأة عظيمة تأمر فتطاع، تنثر حنانها؛ فيجد العشرات من يحتفون بذلك الشذى الذي يتشقون عبقه وكأنما يفوح من طيوب الجنة. وقد سماها كتابنا المقدس جنة عدن التي لا تبعد كثيرًا عن موقعنا في ذلك المكان من اليمن السعيد بخيراته وبأناسه الطيبين .

شعب اليمن يفخر بأنه أنجب ليس الرجال العظماء فحسب، وإنما النساء العظيمات أيضًا متمثلة بك يا بلقيس التي سمع بمكانتها أحد الرسل فطلب أن يتعرف إليها عن قرب فأوفد من أتباعه الإنس والجن حتى يأتوا بها في قمة عليائها دون تدنيس أو إهانة؛ ولأنها تعرف احتفاء الملوك بالجواهر واليواقوت والذهب فقد حاولت أن تغدق عليه من العطايا عساه يكتفي منها بهذه الهدايا كرمز للتكافؤ ولتسبر ما يفكر به حتى اكتشفت أنه إنما ينشد ما هو أعمق في مطالبتها باستبدال إيمانها

الديني والرضوخ إلى أحكام الله بين الناس بل إنه بسبب جمالها وقع في فتنة العيون السوداء ذات الرموش التي تخفي سحر ألقها، ولم يكن يعلم أن مئات الرجال ينظرون إليها باحترام الأنثى التي لا تلين بسهولة ولا تخضع لمن يحاول التطاول على مكانتها المتسامقة؛ لأنها عنوان الحاكم الذي تماسكت عريكته ونسى ذاته في سبيل رعيته؛ ولهذا عزفت عن الزواج حتى لا يكون سببًا في انحسار مكانتها أو تذبذب أحكامها بين الناس. كانت الشمس الساطعة مبتغاها حتى في توجهها الديني لأن الحقيقة أبلغ ما تكون واضحة في ذلك السطوع الذي ينشر الضياء على الكون فيمنحه الدفء والطمأنينة.

ولهذا فقد تهت بين الحكمة التي هي مسعاك وبين كلمات البوح العاطفي التي تلامس الأعماق فتجعل من الحياة رحلة ماتعة في أروقة النعيم الذي يهدهد مشاعرنا كبشر يلتحفون بسطوة العقول. وينساقون وراء شوارد الحكمة منذ عرفها الإنسان في تلك الأزمان التي تتصاول الممالك بما اكتسبته من فلاسفة دهرها العظماء. صرت في ذلك الموقف أتشظى ما بين حب سكن أعماقي وتقديس لامرأة ليس لها مثيل في صفاتها وسجاياها. ويكفي أنني اكتسبت منها هذا التفرد في أن أطارد الزمن وليس هو الذي يطاردني. إنها ميزة تسخرت لي من وشيجة التقرب من هذه المرأة ذات العطاء المتوحد التي منحها خالقها إرغام المستحيل ليجثو تحت قدميها عندما ترغب في تسخيره ليقتات منها وينتعش بآفاقها. وقد كرمتني بلقيس بوليمة كبيرة أقامتها احتفاء بالتحاقي بحاشيتها نحرت خلالها الذبائح بدون حساب؛ إظهارًا للكرم الذي كان يسود جزيرة العرب ودعي إليها كبار القوم ونساؤهم لا سيما رؤساء القبائل، ومع أن بلقيس لم تظهر كثيرًا في هذه الحفلة لانشغالها باجتماعات مع مستشاريها فقد كان يضفي مرورها على الحفل ذلك البهاء المتعاطف عندما تشمل الجميع بتلك الابتسامات المميزة، وتحتضن

الأطفال كأنما هم من صلبها وتغدق عليهم العطايا مغرقة إياهم بقبلاتها الحانية. فتمنيت وأنا أتابع ذلك المشهد أن أفهم في لغة الشعر حتى أسكب بعض مشاعري نحوك. أناجي السمو في هذا الحدب الملائكي. هذا التواضع الملوكي. هذا الحب الذي يغترف من تدفق الوله رامزًا إلى كنز هائل من الحنان حتى كدت أنسى ذلك الرجل الذي منحته كل عشقي... وكل هيامي. أعترف بأنك أقصيته من تفكيري أنا التي كنت لا أستطيع الاستيقاظ دون استحضار ملامحه وربما مهامسته بما يجول في خاطره. فرغم بعده عني كنت أتمكن من استحضاره بين يدي عندما يحتاجه قلبي. إنها موهبة لا يفوز بها إلا الصادقون في الحب كما العابدون في محراب الإيمان تتلقف كلماتهم الملائكة لتنقلها إلى الله مباشرة فطوبى لكافة العشاق في دنيا الخيال.

(5)

كانت حياتي بعد أن أصبحت موزعة ما بين قصر الملكة سرًا بالتشتت السحري ومنزلنا المتواضع في ذلك الحي الشعبي والحب الذي ربطني بالرجل الخليجي والميل أحيانًا إلى ذلك الشاب الرقيق شلتفيس الذي تستحضره الملكة لإلقاء القصائد الناعمة على مسمعها تجعلني أعيش في تيه بيني وبين نفسي لا أدري كيف أجعله متوازنًا لا سيما وأن رحيلي إلى عالم الملكة لم يكن إلا حين أتمدد.

وهكذا عكفت على تفحص السيرة المشرقة لهذه الملكة العظيمة فقد كانت وحيدة والدها الذي أورثها عرشها. فأبوها شراحيل بن ذي جدن بن اليشرح بن الحرث بن قيس الذي لم يرزق بأبناء سواها ويلقب بالهدهاد ملك عظيم الشأن. وكان ملك أرض اليمن كلها، وكان يقول لملوك الأطراف: ليس أحد منكم كفؤًا لي. وأبى أن يتزوج منهم فزوجوه بامرأة من الجن يقال لها: ريحانة بنت الشكر . وكانت الإنس إذ ذاك ترى

الجن وتخالطهم - فولدت له بلقمة وهي بلقيس ولم يكن له ولد غيرها. قالوا فلما مات أبو بلقيس طمعت في الملك، وطلبت من قومها أن يبايعوها فأطاعها قوم وعصاها آخرون. فاختاروا عليهم رجلاً فملكوه. وهكذا تمزقوا فرقتين كل فرقة استولت على طرف من اليمن. على أن الرجل الذي ملكوه أساء السيرة في أهل مملكته حتى كان يمد يده إلى حرم رعيته يفجر بهن. فأراد أصحابه خلعه فلم يقدروا عليه، فلما رأت بلقيس ذلك أدركتها الحمية فأرسلت إليه وعرضت نفسها عليه، فأجابها الملك إلى ذلك وقال: ما منعني أن أبتدئك بالخطبة إلا اليأس منك. قالت: لا أرغب عنك فإنك كفء كريم، فاجمع رجال قومي واخطبني منهم. فجمعهم وخطبها منهم. فقالوا: لا نراها تفعل هذا. فقال: إنما هي التي ابتدأتني وإني أحب أن تسمعوا قولها فتشهدوا عليها. فلما جاءوها قالت: نعم إني أرغب بالزواج منه وإن لم أحبه منذ كنت، والساعة قد رضيت. فلما زفوها إليه خرجت في ناس كثير من خدمها وحشمها حتى غصت منازله ودوره بهم فلما جاءته سقته الخمر حتى سكر ثم ضربت رأسه وانصرفت في الليل إلى منزلها، فلما أصبح الناس ورأوا الملك قتيلاً ورأسه مضروبًا على باب داره علموا بأن تلك المناكحة كانت مكرًا وخديعة منها فاجتمعوا إليها وقالوا لها: أنت أحق بهذا الملك من غيرك. فقالت: لولا العار والنار ما قتلته .

هذه هي ملكتي الجميلة... أحببتها قبل أن أعيش عصرها. كانت تلثم الأطفال أينما تشاهدهم . وكنت، أعيش في ذلك القصر الباذخ منجذبة نحو شخصية تلك المرأة العظيمة والتي من فرط اعتدادها بنفسها لم تقبل الزواج حتى يتسنى لها التفرغ إلى تصريف أمور مملكتها، (ودرء المخاطر عنها) خاصة وهي محاطة بأقطار لا تخفي مطامعها. وقد ناقشتها أكثر من مرة في سبب عزوفها عن الزواج فترد باقتضاب: لم أشعر بأي ميل نحو رجل معين كما أني أحب كافة رعيتي ولا أفرق بين

أي منهم. وهذا مما يزيد من إعجابي بها وإخلاصي لها هذه المرأة الفاتنة التي أعرف بأن بعض رجال البلاط لا يألون جهدًا في سبيل استمالتها، بل تردد أن بعض الوزراء يستعينون بالجن لكسب ودها. وقد وجدتني يومًا في موقف حرج حين أسرّ إليّ رئيس البلاط بأنه يهيم حبًا بالملكة وطلب مني أن أساعده بمدحه أمامها فلربما نجحت في أن أجعلها توليه نظرة خاصة، وقد توسل في ذلك السبيل بإغداق الهدايا علي بين الحين والآخر من الجواهر والحلي حتى ضعفت في مواجهة كرمه مما جعلني أحاول أن أنفرد بها "بقدر الإمكان وأتوسل متحينة فرصة ذهابها إلى مخدعها وهي لم تكن تميل إلى النوم إلا أوقاتًا قصيرة على أنني تمكنت في ذات ليلة أن أقتحم عليها مخدعها وكانت بمفردها وقد أصبت بالدهشة عندما وجدتها مضطجعة على حشية موشاة بالذهب، وبالقرب من قدميها ذلك الشاب العشريني يشع وجهه بهاء بنور غير عادي. كان شابًا يلفت النظر في مثل هذا الجمال والتكوين مما ألجم لساني وفشلت في أن أجد الكلمات المناسبة لولا أنها سارعت وقد رأت حيرتي بانتشالي قائلة :

– أنت لا تعرفين هذا الفتى جيدًا، وحتى أريحك من التساؤل أخبرك بأنه مستشاري الخاص إنما لا يحضر إلا حين أستدعيه لأنه من أتباعي الخفيين الذين لا يعرفهم الناس. وسوف أجعلك منذ الليلة تطربين لسماع الشعر بصوته. فهيا يا (شلتفيس) متع أسماعنا وشنفها بالشعر الرفيع. فرد الفتى بجرس موسيقي :

– أمرك يا مولاتي.

وبدأ ينشد بصوت عذب رخيم يرق تارة ويتضخم أخرى حسب طبيعة القصيدة ومعطياتها، ونحن نتابعه بشغف حتى أن الملكة صفقت بيديها إعجابًا عند نهاية إحدى القصائد فأطل من وراء ستارة أكثر من فتاة يرتدين ملابس ملونة يحملن دورقًا وبعض الكؤوس البلورية المطعمة

بالذهب وتقدمنا نحو الملكة وهن ينحنين حتى يكدن أن يركعن أمامها، فملأت واحدة منهن كأسًا فاحت منه رائحة زكية تقدمت بها إلى الملكة التي أشارت إلي قائلة: هاتوا لها ما ينعش فؤادها، وكذلك الفتى إذ لست بالبخيلة التي تمنع المتعة. وسرعان ما وضعن أمامي كأسًا يزيد من فوهتها رشيش برائحة جياشة. فاضطربت بين أن أتناوله أم أعتذر خشية من أن أتصرف بما لا يليق بي في حضرة هذه المرأة العظيمة .

واستمر ذلك الفتى البارع بإنشاده الجذاب حتى رأى سيدتنا تتثاءب فقال بصوت ناعم :

- هل تشعر مولاتي بالنعاس ؟

فأجابت وهي تتمطى :

- اذهب يا شقي فقد حركت مشاعري .

وتلاشي فجأة وكأنما هو نسمة عابرة. فنظرت إليَّ الملكة قائلة :

- عودي في الغد حتى تستمتعي معي.

ونهضت وأنا أبتسم ثم تقدمت نحوها سعيًا لتقبيل يدها إلا أنها سحبتها معلقة :

- لا عليك... امضي إلى منامك يا عطر .

وكم شعرت بالامتنان من دعوة الملكة واعتبرتها بمثابة تقبل بأن أكون قريبة منها لاحقًا وقد سعدت أكثر حين قيل لي بأنها أصدرت مرسومًا يجعلني وصيفتها الخاصة وهي حظوة لا تحلم بها الكثيرات من العاملات في القصر إلا بعد سنوات طويلة من العمل، بينما لم يمض على ارتباطي بالقصر سوى أقل من عام واحد، كما لم أكن أملك من المواهب سوى ابتسامة أحرص بألا تفارق فمي باشة بها إلى من أقابله في طريقي ولا أحاول الاحتكاك بدون داع إنما ألوذ بغرفتي وحيدة والآمال تتقاذفني كالطيوف تشرّق بي وتغرّب بعد أن اختارتني الملكة للعمل في قصرها عندما احتاجت لبعض الوصيفات بمواصفات هي

التي حددتها، منها الاتزان ورقة المظهر وحلاوة اللسان وسرعة البديهة مع أنها لم تسألني عن ذلك الإنسي الذي تعلقت به، وهمت بعشقه مما يجعلني أستدعيه إذا ما شعرت بثقل الوحدة والرغبة في البوح إلى عنصر آخر يجهل أرومتي ويتعاطف مع أحلامي. كانت بلقيس ذات جاذبية فريدة ببشرتها البيضاء الناعمة فهي ذات وجه مستدير كما مشهد القمر في منتصف الشهر، يتوسطه خرزتان من العقيق وصدر متوثب تعلوه رمانتان تهتزان مع حركة الجسد المشوق الذي ينهض بتحد تتوجه غابة من الشعر الناعم الحريري الذي ينحدر نحو عجيزتها بينما فمها الصغير تنطبع عليه ابتسامة رضية، يضيف إلى حسنها الواضح ذلك الجيد الأتلع وأنفها المستقيم يقف بشموخ فوق ذلك التكوين ذي الجاذبية الساحرة، وعلى خدها الأسيل تريض شامة صغيرة إلى أن يتماهى ذلك الوجه مع فلجة صغيرة مزروعة أسفل الذقن.

فكنت لا أمل من النظر إلى ذلك التكوين الفريد الذي أسبغ عليه خالقه كل عناصر الجمال. ورغم المسؤوليات الجسيمة الملقاة على عاتق الملكة فإنني نادرًا ما أراها محتدة في مواجهة المشكلات التي تعالجها لا سيما حين تحدث خلافات بين رؤساء القبائل! على أن الوسيلة التي تتبعها في حل تلك القضايا هي ضرورة حضور النساء في تلك الجلسات مع زوجات رؤساء القبائل فكان حضورهن يضفي نوعًا من التهدئة والمعالجة المتسامحة في وجه خشونة الرجال الذين يستشيطون غضبًا لأهون الأمور ويضعون أيديهم على أسلحتهم التي تعلق بحزام في وسط ملابسهم . وهذا مما ضاعف من إعجابي بشخصية ملكتنا وميلي نحوها فكنت أصاحبها طيلة النهار حتى لا يفوتني ما يحدث في قصرنا الذي يحكم نصف البلاد مع ملك آخر بنظام محكم لا تتجاوزه التعديات. قبل إيقاعها به عن طريق التظاهر بالرغبة فى الزواج منه. على أنني لم أكف عن مقابلة ذلك الرجل الذي أحببته. فاجأتني سيدتي الملكة ذات يوم

حين قالت متساءلة : أين وصلت بك العلاقة مع ذلك الرجل الذي اختاره قليك؟ أجبت بخجل : لن يشغلني أي أمر عن خدمة مولاتي الملكة.

فابتسمت لتجيب : لك الحرية المطلقة في حياتك الخاصة فليس من شأني التدخل فيها.

وقبل أن أرد عليها كانت قد اختفت من أمامي؛ لأنها ترغب في أن تكون ذات أسلوب مختلف في اختيار الشخصية التي تظهر فيها، إذ إنها عندما تجلس على منصة تدارس شؤون البلاد مع رجال الدولة أو في أثناء اختلاف رؤساء القبائل كانت تختار شخصية المرأة الرزينة التي تجاوزت الأربعين من العمر ذات الشعر الرصاصي والوجه الذي لا يخلو من التجاعيد، وتخفيه بنقاب جميل مع الاحتفاظ بقسماتها الفاتنة مهيبة القامة على رأسها قلنسوة عاجية . كان الرجال يهابون نظراتها عندما تغضب لا سيما لما تضرب بقوة على الأرض فتتبع عدة جماجم من تحتها والتي لا تلبث وأن تتحول إلى رجال يمتشقون السلاح الذي يلمع حتى يخطف الأبصار. حينذاك يتراجع أشرس الرجال عن رأيه فتراه متراخيًا يائسًا وهو يتلفت بحثًا عن طريق يلوذ بها فارًا من هذا الشبح الذي يكاد أن يتعقبه .

وبالإجمال فقد كنت أعشق ذلك الرجل الكهل حتى العبادة كما أخلص لملكتي، وعلى استعداد للتضحية بحياتي من أجلها مما جعلني أتساءل بيني وبين نفسي: أيهما أكثر سلطانًا علي.. ذلك الكهل النبيل أم هذه الفاتنة الرائعة ؟ بل ذهب بي التفكير إلى المقارنة الأشد تحديدًا بينهما حتى اقتنعت بأنني شبه مسخرة لأي منهما حتى اكتشفت لاحقًا بأن الرجال حينما يسيطرون على المرأة أو يتحكمون بها يجثمون على صدرها مثلها يجثم الظلام على الأرض بينما تكتفي المرأة من المرأة بأن تعبث بعواطفها وتلاطفها بالابتسام فحسب . إنما بدت لي ملاحظة عابرة هي أن الرجال لا يلبثون بعد اقتطاف ما يخفف من شحنات

غريزتهم يشيحون في الغالب وقد لانت أساريرهم واصبحوا أكثر جاذبية حتى ليصعب التحرر من سلطانهم. وقد توصلت إلى نتيجة كادت تصيبني بالجنون ما بين عبادة الشمس التي تحترفها ملكتنا وحرارة الجسد. إذ إنني بعد مراقبتي لملكتي وهي تستمع إلى القصائد التي يلقيها على مسامعها ذلك الفتي الوسيم فتطلب منه أن يكف عن الإلقاء وتدليك أطراف أقدامها أنها تتأوه من تلك الملامسة وتبرق عيناها باللذة الطاغية التي تدغدغ أعماقها بالتدريج ثم في أقصى الشعور بتلك اللذة ترفع سوطها تضرب به مؤخرة الفتى الذي يتألم صامتًا .

ولما تراه يوشك بأن يصرخ ويستغيث تعمد إلى تصرف غير متوقع فهي تطبق عليه بكلتا يديها حتى يتلاشى، عندها أهرب من أمامها وألوذ بالفرار وأنا أرتجف بل أعتزم عدم التردد على مضجعها أو خلوتها الخاصة، لولا أن هاجسًا ينتابني ويشدني إليها المرة تلو الأخرى لأشاهد الحادثة المروعة من جديد. وبقي هذا الأمر يؤرق تفكيري إلى أن اعتدت عليه، حتى فكرت بأن أستشير جابرًا في مواجهة هذا الخطر الذي يتهددني، وحين سألني يومًا وقد رآني شاردة الذهن كدت أبوح له بما يعتمل في ذهني غير أنني في اللحظة الأخيرة توقفت إذ إنه سوف يضطرني إلى كشف أسرار حياتي بما فيها جانبها السري الذي أقسمت بألا أبوح به مهما كان السبب حتى لو ضحيت بعمري. وقد تخلصت من الموقف حينما وجدتني أضحك بصوت مرتفع فتعجب من تصرفي. وهمست له قائلة : هناك من يتربص بي يا جابر فهل تستطيع حمايتي ؟ عندها رأيت تصميمًا غاضبًا يقدح من عينيه محيرًا : لن يستطيع أحد أخذك مني إلا على رقبتي. وأشار فعلاً إلى رقبته.

فتنهدت معلقة بارتياح : هكذا أطمئن إلى حبك لي. ولن أخشى أي أعداء حتى لو كانوا من داخل أسرتي . وحكيت له أن أخوالي من النوع النفعي فأحدهما على الأقل يحاول أن يستغل جمالي ويتاجر به .

فصرخ قائلاً : سوف أتصدى له بكل قوتي. ثم أضاف قائلاً: سوف آخذك بعيدًا عن ذلك المجتمع القذر .

فعلقت: ليس أمامنا سوى أن نعلن زواجنا فما رأيك ؟

أجاب: ولكن أليس علينا بأن نستعد بتأثيث شقة لنا ؟

فأجبته: شقة مفروشة تكفي لإيوائنا في الوقت الحاضر

كنت أرقبها في الصباح الباكر وهي ترنو إلى شروق الشمس بخشوع وتنهمر دموعها فلا ترتاح حتى تجثو وتبقى متعبدة لعدة ساعات. أما أسوأ أوقاتها فهي عندما تحاول الغيوم الداكنة مطاردة أشعة الشمس . فهي تتصورها بمثابة شيطان يطارد الآلهة ولذا يرتفع نفير في أقاصي البلاد بان يتضرع الناس - لا سيما في أماكن العبادة - حتى تنتصر الآلهة وتقضي عل عدوها الكريه الذي يحجب رؤى الشمس .

(6)

أوشك أن أقع في غرام ذلك الشاب الوسيم الذي لا تدل نظراته على شيء معين مكتفيًا بالبسمة الواعدة، ولم أكن أعرف الطريقة التي أستطيع بها مقابلته حتى أظفر بعناقه وأنال المزيد من النظرات الوالهة والصعوبة تكمن أيضًا في عدم إمكاني السؤال عنه باعتباره خدين الملكة التي هي وحدها من يستطيع استدعائه، لولا أن ذلك الفتى - وكان مزهوًا بتقريب الملكة له من مجلسها - أصابه الغرور ذات ليلة أو أثمله السكر فقال وهو يلثم قدمي الملكة يتودد :

- هل تأذن لي مولاتي بكلمة ؟

أجابت : إن لم يكن فيها تطاول فسوف أستمع إليك، وإلا فالويل لك من رجالي الذين سوف يتناهبون لحمك وعظامك بسيوفهم، ويستبيحون دمك .

وكان يعرف أن حرسها يحيط بالقصر بانتظار إشارة منها. فخاف

على نفسه من بطشهم فأخذ يبكي ولم يفصح عما كان يريد قوله فضحكت الملكة ساخرة منه ثم رفسته على رأسه حتى تكوم بعيدًا عنها واستمر ينتحب فقالت له :

- اخرج الآن من مجلسي وإلا أمرت رجالي بذبحك .

نظرت إلى الفتى نظرة إشفاق على اهتزاز مكانته لدى الملكة الفاتنة ومضيت إليه وأنا أجره خارج المجلس ومازال يجهش بالبكاء. فلما عدت من توصيله نظرت إليّ الملكة بتجهم وباستغراب قائلة :

- ويحك يا عطر... أتجرئين على مخاتلتي ؟

قلت باستعطاف : معاذ الله يا ملكتي ... فدمنا جميعًا فداء لك.

- فتساءلت : إذن ما هو وضعك ؟

أجبت بسرعة وأنا جاثمة عند قدميها : إنما رغبت في استعجال إبعاده عن ناظريك حتى لا تتلوث عيونك بالغضب .

فتبسمت معلقة :

- أحسنت الإجابة. وإنما إياك والتصرف الأحمق مرة أخرى .

ثم أمرت العازفات بالاستمرار في إحياء ليلتنا بالانشراح.

وتأوهت القيثارة بأنغام شجية، وكانت الفاتنات يتمايلن بشعورهن الطويلة وأجسادهن اللدنة وأصواتهن الناعمة الطرية على تلك الأوتار الساحرة مما جعل ملكتنا تنسى إساءة ذلك الفتى الأرعن فتحرك رأسها منشرحة بينما كانت تحتسي القليل من خمرتها المعتقة على مهل حتى تسللت خيوط الشمس الذهبية من خلال نوافذ القصر الفارهة والعابقة بتلك الروائح والأنغام الشجية؛ فجثت لاستقبال تلك الأشعة بخشوع وأمرت المنادمات بالتوقف عن مسرى الليل إيذانًا بيوم جديد وما حفل به ذلك المساء من مسرات تتجدد. وكان أن أمرت مع مطلع النهار باجتماع لقادة الجيش ورؤساء القبائل فجاءوا مسرعين وهم يطرحون الأسئلة فيما بينهم عما بلغ زعيمتهم فدفعها إلى ذلك القرار الذي لا تعلن عن

فحواه إلا عند عقده .

إنه الليل، ليل الحضور وليل الغياب، إذا جن عيوننا مطبقة، نلوذ بأسرّتنا الناعمة ونتدثر بالأغطية الثقيلة، نخشى نسمة الهواء البارد، يلامس أعضاءنا بينما قلوبنا تتأجج بالنيران المستعرة في جوفها؛ لأنها تتشوق إلى المعرفة التي يخفيها الزمان ولا يبوح بها إلا بعد أن يضنينا البحث عنها، ونجد المشقة في استلهامها، والعثور عليها، فالمعرفة مثل الحقيقة ذات دلال وجفاء، إنها كالمرأة الضنينة بما يمور في جوفها، وفي أعماقها، لا تبوح به إلا بعد أن يثقل على فؤادها، ويطرد النوم من أحداقها، لا سيما إذا ما كانت ذات منزلة رفيعة بين قومها، تصريحها بمثابة قانون نافذ تتلقفه العقول الواعية والقلوب الناضحة بالإخلاص والتعاطف .

هكذا كان الحال مع ملكتنا المتطلعة إلى سمو الهدف وصفاء السريرة، ارتفعت عن ذاتها واندمجت في الآخر، لا تفكر إلا بذلك الطرف الذي منحها القوة ثقة منه وجعلها تتصرف بالنيابة عنه، لأنها صوته الواعي وعقله المستنير .

كان العدل هدفها الذي لا تحيد عنه ولا تتخفف من حمله، واستمع الحضور إلى قرارها في التقرب من حمى ذلك النبي الملهم الذي استجابت له كافة المخلوقات وخضعت لسلطانه بما فيها الجن، إنه سليمان، الشخصية التي ارتفع مقامها وغطى ذكرها كافة الأمصار. ليس خوفًا من جبروته وإنما سعيًا إلى عدالته واستقامة حكمه، فصفق الحضور لذلك العزم والقرار ومنحوها التحدث باسمهم نيابة عنهم . وارتفعت الأيدي إلى الشمس تسألها إنزال البركات على ذلك الاتجاه سعيًا وراء الحق والحقيقة. فاطمأنت ذات القلب الكبير بأنها أحسنت الصنع بذلك القرار وليس عليها سوى التنفيذ والاتكال على الآلهة التي سوف تقف إلى جانبها، والتخفيف من المشاق التي سوف تواجهها في

طريقها لتكوينها . ماذا أريد من هذا الكهل الشفيف الذي أفسدت مسيرته الوادعة والإيغال في مستنقعات حياته ؟ هل الشيطان الذي تلبسني قذف بي إلى عالم بلقيس لإقصائي عن مسرح سيئاتي حتى أهرب من زمجرة الحساب الذي ينتظرني ؟ هل أنا عفيفة صادقة أم خاطئة ضالة ؟ ملكتي تقدس الشمس، وهناك المجوس يعبدون النار، بينما شجرة الدر تدين بعبادة الله، فلمن أنحاز في صلواتي من بين هذه القناعات التي لا حدود لها ؟ إنني لأشعر بتجاذب الأمواج لقدري مثل سفينة تطوحها الرياح، وهذا الحصار من الأسئلة التي تتوالى علي فأتخبط في تفسيرها . إن تواضع فهمي يجعلني مثل ورقة في مهب الريح، تتقاذفني العاصفة فلا أملك سوى البكاء على هذه النهاية المضطربة !! لماذا انساق قلبي وانحاز نحو مسار هذا الرجل الغريب دون غيره من الناس الذين يلتفون حولي وعيونهم تترصد تعثري حتى أقع سائغة لهم تتناهش جسدي الغض ؟ إن عالم الوحوش لم يعد يستوطن البراري والغابات البعيدة، إنما هو يعتصم أيضًا بهذه المنازل الصغيرة، بدليل أن الأفاعي تسرح بيننا لنزرع السم في دمائنا كل يوم. ذاكرتي أصبحت بليدة فالعاطفة التي قذفت بي إلى بلاد الأمريكان أصابتني بأوجاع ونفور من كل العالم الذي يدعي التحضر .

فالغانيات والعاهرات يعرضن خلف الزجاج مثل أي بضاعة استهلاكية لمن يدفع الثمن رغم المقولة بأنه ليس للحياة أي معنى إذا ما انتفى الحب . فالجنس في ذلك البلد يمارس بطريقة حيوانية واستهانة بعيدة عن التكامل الإنساني وهم في ذلك - حسب علمي - لا يختلفون عن الشعوب الوثنية في مجاهل إفريقيا .

***

كان الأحباش في الجانب الآخر من البحر يثيرون المتاعب لمملكتنا باعتراض سفن بعض المواطنين ومحاولة نهب البضائع التي تحملها

مراكبهم وهي عبارة عن الأغذية والتوابل لازدهار التجارة مع الهند؛ مما جعل ملكتنا تتوعدهم بالقصاص. على أن غضبها يخفت عندما يبدأ ذلك الفتى الوسيم بدغدغة سمعها بالقصائد الرقيقة ودعك أطرافها قبل أن تأمره بالانصراف . في حين أبقى وقد لملمت جسدي مثل قطة جائعة ناظرة إليها مبتسمة لعلها تأذن لي بالانصراف قبل أن تصفق بيديها البضتين فيحضر الخدم لتأمرهم بإعداد المائدة التي تعني أحيانًا السهر حتى الصباح إذ تأتي الفرقة الغنائية التي تدخل البهجة إلى قلب الملكة لا سيما والجواري يؤدين رقصات بارعة وأصواتهن الناعمة تنشد أنغامًا ترفع من مكانة دولتنا ...

كانت الملكة وهي ترتدي ذلك الشال الهندي المرصع بالجواهر مضطجعة على مرتبة قطنية مرتفعة مغلفة بالديباج الذهبي وخلفها مباشرة مساند من ريش النعام، تزهو بألوانها الشبيهة بقوس قزح وقد طرحت على ساقيها مفرشًا من حرير يخفي ساقيها الجميلتين ورأسها تدثرت بوشاح لازوردي تموج أطرافه بخيوط مذهبة في حين تألقت فتنتها بالشعر الحريري الذي برز من تحت الوشاح، بينما الأقراط تتدلى من أذنيها الصغيرتين وصدرها ينهض بتلك الرمانتين الصلبتين والعقد اللؤلؤي الثمين يبرق ويتحرك مع حركتها، وقد وضعوا بالقرب منها صحنًا صينيًا يمتلئ بالفواكه المنوعة ودورقًا ذهبيًا وكأسًا صغيرة يلتمع في وسطها النبيذ الأحمر الذي كانت تمتح منه على مهل وبتريث وهي تصغي إلى أنغام تلك الأصوات الناعمة، بينما أصابعها تتحسس بعض الموالح والمكسرات وتصفق حين تطربها الأنغام. وعلى حين غرة فرقعت بأصابعها فإذا بذلك الفتى الوسيم يركع أمامها مثبتًا عينيه على الأرض. وأشارت له بأن يجلس بالقرب منها فسحبته من شعره وأخذت تلامس ضفائره، بينما كانت تدندن بأغنية عاطفية. وقد سمعت من بعض الجواري أن هذا الفتى له علاقة وثيقة بالملكة، إذ قلن بأنه ابنها بالتبني أخبرتني أخرى بأنه

زوجها - رغم فارق السن بينهما - أما الثالثة: فأعلنت صامتة أنه عشيقها الخفي الذي يواطئها عندما تحتاجه ليلاً. وقد طلبت مني الملكة بأن أرقص أمامها فشعرت بالحرج لولا أنها نظرت إلي بعتاب لما رأت ترددي. وهكذا فردت شعري حتى وصل إلى عجيزتي وشرعت في الرقص على أنغام تلك الآلات الموسيقية وأصوات الجواري الناعمة. وقد أعجبت الملكة برقصي حيث انتبهت أنها تصفق لي بحرارة ولما انتهيت من الرقص قذفت نحوي بصرة من العملة الذهبية. وكانت هذه بداية لاعتباري مكملة للجوقة التي تدخل السرور إلى قلب الملكة في أوقات مللها.

وقد أشيع فيما بعد بأن الملكة أصدرت مرسومًا يقضي بأن يستعد رؤساء القبائل لعقد مؤتمر مهم لتدارس اعتداءات الأحباش على المواطنين والرد عليها بعنف. وهذا مما يعني الحرب، الأمر الذي جعل تجارة الأسلحة تستفحل وتطغي على كافة الأحاديث في المجالس إذ إن كل قبيلة كانت تريد الظهور بأنها أقوى الفصائل بما تملكه من سلاح وعتاد ورجال. وهذا يؤهلها لأن تحظى بأن تجعل الملكة تفاخر بها وتجعلها تتقدم صفوف رجال البلاد الذين يدافعون عن سمعة الوطن ومكانته في أنحاء المنطقة لاسيما وموقعنا الجغرافي متميزٌ ما بين عدة بحار تقصدها السفن التجارية محملة بالبضائع من وإلى الهند ودول آسيا إلى إفريقيا والبلاد العربية خاصة الأرز والشاي والتوابل وربما الذهب أحيانًا وإزاء التوتر الذي ساد البلاد؛ فقد كفت الملكة عن إحياء تلك الليالي الماتعة، وأخذت تتلقى تقارير يومية عن تجارة السلاح التي راجت وأصبحت حديث الناس لاسيما تجار المناسبات الذين ينتظرون أي طارئ حتى يستغلوا حدثه لمصلحتهم الشخصية. بينما كنت فريسة لما أعانيه من عشق لذلك الرجل الخليجي وفي الوقت ذاته أحاول أن أخفف من الصدمة التي تلقاها ذلك الفتى الوسيم من ملكتنا التي أعلم أنه هام بها حبًا؛ فذهبت إليه حتى أرى ما ينوي فعله محذرة إياه من مغبة ذلك

الحب الذي يتطلع إليه غير مدرك لعواقبه. وكانت معاناته تفوق احتماله لاسيما وأن قلب الملكة لم يخضع إلى إي مخلوق رغم تطلع كبار القوم إلى بلوغ تلك المكانة العالية بشتى وسائل التقرب منها لولا الشخصية الطاغية التي تتمتع بها.

(7)

البحث عن العدل كان من اهتمامات ملكتنا بلقيس، ولهذا فإنها كانت تستدعي ذلك التاجر الذي أمضى عدة سنوات في ديار النبي سليمان تستدرجه في الحديث حتى يعطي لها أمثلة ذات دلالة عن أحاديث ذلك الرسول وأفعاله. وكان ذلك التاجر (تمرين) كثير التردد على مجلس سليمان يستقصي ويسأل ثم يسجله في عقله، وكانت الأيام تضيف إلى تلك الحصيلة أضعافًا مضاعفة هي بمثابة دروس وعبر في العدالة والكياسة وبعد النظر ،وهذا ما يذكر باتجاه الخليفة العادل عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) الذي يرفع يديه إلى الله تضرعًا كل يوم يسأله التوفيق بإحقاق الحق وعدم ضياع العدل في ربوع دولة الإسلام؛ ولهذا كان يوجه ويغلظ في القول بالنسبة لعماله في الأمصار يستحثهم على تلمس العدل بين الرعية؛ لأن في ذلك ميزان الحق والمساواة. وكان سليمان هو المثال الذي تحاول بلقيس الاقتداء به لكثرة ما بلغها عن عدله وصفاته الحسنة الأخرى في القول والعمل. فهو يتسم بلين الحديث وإبلاغ الحكمة لمن فاته اتباعها أو ضاعت من ذهنه، كما يوجه بالأمثلة الملموسة ولا يستدني منه العقاب إلا ما ندر. وبالنسبة للذين يحاولون إشاعة الفتنة بين الناس، إلى جانب إغداق العطايا والكرم على المحتاج وابن السبيل حتى لا يسمع كلمة عن متألم مادام الله قد أتاح النعمة وأشاعها لمن يعرف كيف يحصل على ما يريد بوسائل العقل وسلامة القصد. وقد وجدت من أنصارها وأتباعها من يشجعها على

التقرب من ذلك الرسول العادل حتى تكسب معرفته وتنال التقرب من الله سبحانه وتعالى بالأعمال الصالحة؛ ولهذا سعت إلى ركوب المشاق حتى تنال بغيتها في سماع نهجه مباشرة من لسانه، وليس كما يقال عنه، وهذا ما يؤكد عزمها على بلوغ منزلة رفيعة عند خالقها الذي منحها هذه القدرة والمجد وعلو المكانة. فكان أن ذهبت إلى ملاقاته بعد أن دار حوار بينها وبين أتباعها الذين قالوا لها: (يا سيدتنا فيما نجلّ الحكمة فإنك لا تفتقدين إليها وحكمتك هي التي جعلتك تجنين هذه المكانة، وفيما يتعلق بنا فإن ذهبت فإننا سنذهب معك، وإذا بقيت فإننا سنبقى معك. وموتنا سيكون مع موتك وعيشنا مع عيشك).

وهكذا تم تحميل سبعمائة وتسعة وسبعين جملاً. وتم تحميل أعداد لا تحصى من البغال والحمير وانطلقت في رحلتها، وتابعت مسيرتها دون توقف وكان قلبها يثق بالرب. ولما رحلت إلى بروشليم وكانت قد أحضرت معها للملك الكثير من الهدايا الثمينة التي رغب جدًا في امتلاكها وقد كرّمها بشكل عظيم، وقدم لها مأوى بالقرب من القصر الملكي وأرسل لها طعامًا لوجبات الصباح والمساء كل منها بمقدار خمسة آلاف مقياس أي بما يفوق حاجتها وقومها المرافقين. وكان يكسوها كل يوم بأحد عشر ثوبًا تذهل النظر. ويحدث بينهما زيارات متبادلة. مما عمق إعجابها به وقربها منه إلى درجة الاندهاش من كياسته وعدالة أحكامه. وقد بلغنا أن الملكة من فرط إعجابها تحدثت إليه قائلة :

- بالنسبة لي فإن كل ما أتمناه هو أن أكون إحدى أدنى خادماتك حتى أتمكن من غسل قدميك وأنصت إلى حكمتك وأستوعب فهمك لخدمة جلالتك والاستمتاع بقدرتك. آه كم سرتني إجاباتك ونعومة صوتك وجمال مشيتك ولطف كلماتك الدائمة . إن حلاوة صوتك تجعل القلب يبتهج وتسمن العظام وتعطي قوة للقلب، والرد الحسن للشفاه وقوة للمشي. إن فهمك لا ينضب وكأنه المصباح في الظلمة والرمان في

الحديقة، واللؤلؤة في البحر ونجمة الصبح بين باقي النجوم وضوء القمر في السديم وفجر بهي وشروق السماء. وإني أتوجه بالشكر إليه الذي أحضرني إلى هنا ومكنني من رؤيتك، وجعلني أطأ مدخل أبوابك أستمع إلى صوتك ...

وقد أجابها قائلاً :

- إن الحكمة والفهم ينطلقان منك وفيما يخصني (وأنا أمتلكهما فقط) بالكمية التي منحني إياها إله إسرائيل لأنني تضرعت إليه وحصلت عليهما منه وأنت ورغم أنك لا تعرفين إله إسرائيل فإنك تمتلكين هذه الحكمة التي نمت في قلبك وجعلتك تأتين إلى لرؤيتي أنا العبد الخاضع لربي بنّاء بيته، بينما أتحرك أنا حول سيدتي، والآن أنا عبد إلهي ولست حرًا.

(إنني لا أحترم وفق إرادتي الحرة ولكن وفق مشيئته. وهذا الكلام لا ينطلق مني أنا ولكن نطقي هو ما جُعلت أتفوه به) ثم أضاف : ما هي المنفعة المرجوة منا نحن أبناء الناس إذا لم نمارس الرحمة والحب على الأرض ؟ ألسنا مجرد عشب في المرج يذبل في أوانه وتحرقه النيران.

إننا نمتع أنفسنا في الأرض باللحوم الطيبة، ونرتدي أثوابًا مكلفة ورغم ذلك فإننا في حياتنا مجرد عفونة، إننا نقتني الروائح العطرة والمراهم الناعمة، ولكننا ورغم أننا أحياء فإننا أموات بالذنوب والخطايا ونضحي بدون الحكمة حمقى؛ بسبب عصياننا وأفعالنا وبعد أن كنا محترمين نُحتقر بفعل السحر والشعوذة وعبادة الأصنام .

عقب ذلك عقبت الملكة على كلامه قائلة : كم سرني صوتك، وكم تسعدني كلماتك وتفوهاتك! أخبرني الآن من هو الذي علي أن أتعبد له ؟ إننا نتعبد الشمس كما علمنا آباؤنا لأنهم يقولون إن الشمس هي ملكة الآلهة وهناك آخرون من رعايانا الذي يتعبدون أشياء أخرى مثل: الحجر والأخشاب وغيرها، يعبد الأوثان ونحن نعبد الشمس؛ لأنها تطهو طعامنا

ولأنها تضيء الظلام وتذهب الخوف ونسميها مليكتنا ونطلق عليها اسم خالقتنا ونتعبد لها كإلهنا. والسبب أنه لم يقل أحد بوجود رب إلى جانبها. ولكننا سمعنا بأنه يوجد عندكم يا بني إسرائيل رب آخر لا نعرف عنه شيئًا وقيل لنا إنه أرسل إليكم من السماء تابوتًا وإنه أمدكم بلوح أوامر الملائكة مسجلة بيد موسى النبي. وهذا ما سمعناه أيضًا أنه جاء شخصيًا إليكم، وأنه تكلم معكم وأنه أبلغكم بوصاياه وأوامره .

ويقال بأن الملك أجابها: حقًا إنه من الصحيح أن يعبدوا - أي الناس - الرب خالق الكون والسماء والأرض والبحر واليابسة والشمس والقمر والكواكب والنجوم المتلألئة في السماوات والأشجار والأحجار والبهائم والطيور المريشة والوحوش والتماسيح والأسماك والحيتان وفرس النهر والسحالي والبرق وهدير الرعد والصالح والطالح؛ لذا علينا أن نعبده وحده بخوف وخشوع وبسرور ورضاء؛ لأنه هو رب الكون خالق الملائكة والبشر فهذا المحيي والمميت .

وعقب أن سمعت الملكة ما أقنعها به سليمان ردت قائلة : بدءًا من هذه اللحظة سوف لن أعبد الشمس ولكني سأعبد خالق الشمس رب إسرائيل، وسيكون سيدي تابوت رب إسرائيل ولنسلي من بعدي ولمملكتي ورعيتي .

كانوا يلتفون حولها في جولاتها بين أفراد شعبها. حصانها المطهم بالسرج الذهبية كانت تدعه مع أحد حراسها يربت عليه بحنان تقربًا حتى يستأنس به ومع أن قصرها لا مثيل له في ذلك الحين إذ شيد من أسطوانات رخامية بلغت الخمسمائة، طول كل واحدة خمسون ذراعًا زرعتها فوق تلة من مدينة صنعاء، وجعلت بين كل أسطوانتين عشرة أذراع ثم جعلت فيها سقفًا منظومًا بألواح الرخام وألحم بعضها إلى بعض بالرصاص حتى بدت كأنها لوح واحد ثم بنت فوق ذلك قصرًا مربعًا من آجرّ وجصّ في كل زاوية من زواياه قبة من ذهب مشرقة في

الهواء، وفيما بين ذلك مجالس حيطانها من ذهب وفضة، مرصعة بألوان الجواهر المربعة وجعلت فيه أي في باب ذلك القصر مما يلي المدينة درجًا من الرخام الأبيض والأخضر والأحمر وفي جوانبه حجر لحجّابها ونوابها وحرسها وخدمها وحشمها على قدر مراتبهم. صفة عرشها، كان مقدمه من ذهب مفصص باليواقيت الحمر والزمرد الأخضر، ومؤخره من فضة مكلل بألوان الجواهر وله أربع قوائم ، قائمة من ياقوت أحمر وقائمة من ياقوت أخضر وقائمة من زمرد أخضر وقائمة من در أصفر، وصفائح السرير من ذهب وعليه سبعون بيتًا وعلى كل بيت باب مغلق ولها عرش عظيم ألفيتها وقومها يسجدون للشمس !

يبد أنه رغم هذا الترف الماثل فهي متواضعة بشوش وتتقرب إلى الناس بوسائل شتى؛ لأنهم يلتفون حولها بكل قلوبهم وأفئدتهم، ترفع الدعوات لها بكل الإخلاص والحب وهذا ما نفتقده في حكام زماننا الذين لا يسيرون خطواتهم إلا ويحيط بهم الحرس السري المدججون بالسلاح !

وقد قرأت قصيدة نسبت إلى : أسعد تبع يفخر بنسبه من بلقيس جاء فيها :

ولدتني من الملوك ملوك ... كل قيل متوج صنديد
ملكتهم بلقيس تسعين عامًا ... بأولى قوة وبأس شديد
ونساء متوجات كبلقيس (م) ... وشمس ومن لميس جدودي
عرشها ذرعه ثمانون باعًا ... كللته بجوهر وفريد

وفي قصيدة أخرى له أيضًا :

ولقد بنت لي عمتي في مأرب ... عرشًا على كرسي ملك تليد
عمرت به زمانها في ملكها ... مغبوطة واستدعيت بالهدهد
عمرت به تسعين عامًا دوخت ... أرض العراق إلى مفازة جهيد
نزلت عن الملك العظيم لربها ... قبل المنية أو يقال لها يردي

(8)

تألمت لحيرة الملكة وهي تعيش مأزق مطالبة النبي سليمان لها بأن تتخلى عن عقيدتها في عبادة الشمس، وتتجه إلى الله خالق تلك الشمس وهذه المطالبة لا تعنيها وحدها، إنما ينضوي تحت رايتها شعبها كله لذا فإنها رأت أن تستفتي قادة الرأي لديها وما يشيرون به عليها فكان ردهم لها: نحن رجال أشداء لا نهاب الموت في سبيل ما نؤمن به؛ فإن أردت حرب سليمان فلن نذعن إلا لما تريدينه وستجدين بيننا الرجال الأشاوس الصناديد الذين يجيدون الكر والفر في المعارك وساحات الوغى. وهذا ما جعلها في حيرة من أمرها واستقر رأيها بأن تجرب مهادنة سليمان النبي (عليه السلام) وإتحافه بما لديها من الذهب والعبيد والخيول إلا أنه رفض هذا الإغراء منها والذي لا يحتاجه؛ لأنه يستطيع بما يملك من طواعية خدمه الجن أن يحصل على كل ما يريد بكل سهولة مع أنها أعلنت صراحة على رؤوس الأشهاد بأنها لم تجد الرجل الذي يستحق الزواج منها والركوب على صهوتها. فيالها من امرأة معتدة بنفسها واسعة الأفق !

كما أنه من فرط دهائها أرادت أن تختبر ذكاء النبي سليمان حين استخارت وقد اعتزمت إرسال هدية اختبار له، تمثلت في خمسمائة جارية وخمسمائة غلام فألبست الجواري لباس الغلمان (الأقبة والمناطق) وألبست الغلمان لباس الجواري وجعلت في سواعدهم أساور من ذهب وفي أعناقهم أطواقا من ذهب وفي أذانهم أقراطًا وشنوفًا مرصعات بأنواع من الجواهر وحملت الجواري على خمسمائة فرس، والغلمان على خمسمائة برذون على كل فرس سرج من ذهب مرصع بالجواهر فحواشيها من الديباج الملون. وبعثت إليه أيضًا خمسمائة لبنة من ذهب وخمسمائة لبنة من فضة وتاجًا مكللاً بالدر والياقوت. وأرسلت

إليه أيضًا بالمسك والعنبر والعود والألنجوج، وعمدت إلى حقه فجعلت فيها درة ثمينة غير مثقوبة، وجزع خرزة مثقوبة معوجة الثقب ، ودعت رجلاً من أشراف قومها يقال له: المنذر بن عمرو. وضمت إليه رجالاً من قومها أصحاب رأي وعقل، معهم كتاب بنسخ الهدية وقالت في الكتاب: إن كنت نبيًا فميز بين الوصائف والوصفاء وأخبرنا بما في الحقة قبل أن تفتحها، واثقب الدرة ثقبًا مستويًا وأدخل خيطًا في الخرزة.

ثم أمرت بلقيس الغلمان فقالت: إذا كلمكم سليمان فكلموه بكلام فيه تأنيث وتخنيث يشبه كلام النساء. وأمرت الجواري أن يكلمنه بكلام فيه غلظه يشبه كلام الرجال. ثم إنها قالت للرسول: انظر إلى الرجل إذا دخلت عليه فإن نظر إليك نظرة غضب فاعلم أنه ملك فلا يهولك منظره فإنا أعز منه وإن رأيته رجلاً بشاشًا لطيفًا فاعلم أنه نبي مرسل فتفهم كلامه ورد الجواب. فانطلق الرسل بالهدايا. فلما رأى الهدهد ذلك أقبل مسرعًا إلى سليمان وأخبره بكل ما علم فأمر سليمان الجن أن يصنعوا له لبنًا من الذهب والفضة، ثم أمرهم بأن يعملوا على جعل مكانه يبلغ تسعة فراسخ ميدانًا واحدًا بلبنات الذهب والفضة وأن يحيط الميدان بجدران مشرقة من الذهب والفضة، ثم سألهم: أي الدواب أفضل مما رأيتم في البر والبحر؟ أجابوا: يا نبي الله، إننا رأينا في البحر الكثير مما يثير ويدهش.

***

قال ابن عباس: وكان سليمان عليه السلام رجلاً مهيبًا لا يبتدئ بشيء حتى يكون هو الذي يسأل عنه. فخرج يومًا فجلس على سرير ملكه فرأى رهجًا قريبًا منه فقال ما هذا ؟ أجابوه : بلقيس يا رسول الله. تساءل: وقد نزلت منا بهذا المكان؟ أجابوه: نعم. قال ابن عباس: (ما بين الكوفة والحيرة قدر فرسخ) فأقبل سليمان على جنوده وسألهم أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين: أي طائعين خاضعين. واختلف

العلماء في تفسير السبب الذي لأجله أمر سليمان بإحضار العرش فقال أكثرهم: لأن سليمان علم بأنها إذا أسلمت حرم عليه مالها فأراد أن يأخذ سريرها (عرشها) قبل أن يحرم عليه أخذه بإسلامها. فلما جيء له بالعرش مستقرًا عنده محمولاً إليه من مأرب إلى الشام قدر ارتداد الطرف - وهي مدة يسيرة - قال: هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر. وأمر سليمان أن نكروا عليها عرشها. أي زيدوا فيه وانقصوا منه واجعلوا أعلاه أسفله، وأسفله - أعلاه ننظر أتهتدي إلى عرشها فتعرفه أم تكون من الجاهلين الذين لا يهتدون إليه، إنما أراد أن يختبر عقلها. وقيل إن ما حمل سليمان على ذلك أن الشياطين خافت أن يتزوجها سليمان ويستولدها فتفشي إليه أسرار الجن فلا ينفكون من تسخير سليمان وذريته من بعده، فأرادوا أن يزهدوه فأساءوا الثناء عليها وقالوا له إن في عقلها شيئًا وإن رجليها كحافر الحمار .

فأراد سليمان أن يختبر عقلها بتنكير عرشها وينظر إلى قدميها ببناء الصرح. فلما جاءت بلقيس قيل لها: أهكذا عرشك ؟ قالت: كأنه هو. فشبهته به، وكانت قد تركته خلفها في بيت خلف سبعة أبواب مغلقة والمفاتيح معها، فلم تقر بذلك ولم تنكر. فعلم سليمان بكمال عقلها. قال الحسين بن فضل: شبهوا عليها فشبهت عليهم وأجابتهم على حسب سؤالهم ولو قالوا لها: هذا عرشك؟ لقالت: نعم. وقيل: لما رأت عرشها عند سليمان قالت: قد عرفت هذا وأوتينا العلم بصحة نبوة سليمان (عليه السلام) بالآيات المتقدمة من قبلها. فلما أتت سليمان قيل لها: ادخلي الصرح وذلك أن سليمان لما أقبلت بلقيس للقياه أمر الشياطين فبنوا لها صرحًا أي عرشًا من زجاج كأنه الماء بياضًا فأرسل الماء من تحت الصرح. ثم وضع له سريره أي عرشه فوق ذلك المكان، فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها لاعتقادها بأنه ماء لتخوضه إليه، قال: إنه صرح ممرد من قوارير. فلما وقفت على سليمان دعاها إلى عبادة

الله عز وجل وعاتبها على عبادة الشمس من دون الله.

فأجابت بقول الزنادقة : (أو ليس هو في ناحية) بمعنى بأخيه، فوقع سليمان ساجدًا لله تعالى لأجل ما سمع منها وسجد الناس معه، فأسقط في يدها حين رأت باستغراب ما فعله سليمان فلما رفع رأسه قال لها ويحك ماذا قلت؟ أجابت: وأنسيت ما قالت: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وهكذا أسلمت وحسن إسلامها فزعموا بأن سليمان قال لها - حين أسلمت وفرغ من أمرها: اختاري رجلاً من قومك أزوجك به. قالت ومثلي - يا نبي الله - ينكح الرجال وقد كان لي في قومي من الملك والسلطان ما رأيت. أجاب: نعم إنه لا يجوز في الإسلام إلا ذلك ولا ينبغي لك أن تخرجي مما أحل الله لك - فردت: زوجني - إن كان ولا بد من ذلك - ذا تبّع (قيل واسمه موهب إل - وإل اسم الله تعالى - أي هبة الله عز وجل وحمير تقول: اسم ذي تبّع بريل. قال علقمة :

أو مثل صرواح وما دونها مما بنت بلقيس أو ذو تبع

فزوجه إياها وردهما إلى اليمن، وسُلّط زوجها ذو تبّع على اليمن وأولاده الساكنون بالسحول - ودعا أمير حي من الجن فقال :

اعمل لذي تبع ما استعملك بقومك. فصنع ذوتبع المصانع باليمن ولم يزل بها حتى توفي سليمان عليه السلام. وزعم بعضهم أن النبي سليمان بن داود تزوج بها. على أنه مما قال في هذا الشان ابنها أسعد تبع مفتخرًا :

ولدتني من الملوك ملوك كل قيل متوج صنديد

ملكتهم بلقيس تسعين عامًا بأولى قوة وبأس شديد

ونساء متوجات كبلقيس (م) وشمس ومن لميس جدودي

على أن هناك رواية أخرى تسربت عن علاقة بلقيس بالنبي سليمان مفادها أن سليمان أكرم الملكة وحشمها وعسكرها إلى جانب قصره،

وجاءت كل يوم تحضر إليه لتسمع من حكمته. وكان سليمان شغوفًا بحب النساء، فلما كثر ترددها إليه اشتهاها وراودها عن نفسها فلم تطاوعه على مدة، وقالت له: أحضر بنت بكر أعود زايلة بكورية يصير بذلك نقص في مملكتي. فقال لها: أنا ما آخذك إلا امرأة لي وأنا ملك وأنت ملكة فلم تجبه إلى ذلك فقال لها: عاهديني أني ما آخذ أمرًا إلا بإرادتك والشرط بيننا أنك إذا أتيت إلى عندي ليلاً وأنا في سرير مرقدي تكونين زوجتي بناموس الملوك وإنها عاهدته على ذلك مطمئنة في نفسها أنها تحفظ بكوريتها منه وذلك بتدبير الله سبحانه وتعالى وأنه أعقلها بحكمته عدة أيام ولم يعد يراودها عن نفسها فحسب الأمر عندها أنه تركها عن خاطره. ولما كان بعد ذلك أنه دعا الطباخين وأمرهم أن يطبخوا الطعام لجميع من في القصر له ولها أطعمة حارة وأعطاهم أفاوية عطرية زكية بسبب ذلك وأن الطباخين عملوا ما أمرهم به فصارت كيفما أكلت من تلك الأطعمة الحارة النارية تدعو بالماء البارد وتشرب منه كثيرًا ليلاً ونهارًا. ولما كان في الليلة الثالثة أمر خفية لكل من في القصر ألاّ يترك أحد عند الملكة ماء للشرب، وقال لهم: من طلب منه ماء للشرب في الليل يقولوا له: ما تجد ماء إلا عند سرير الملك. فلما كان الليل انطلق في قلب الملكة نار عظيمة بسبب المآكل الحارة وطلبت ماء للشرب فلم تجد فقلقلت وبلغت الموت فزعقت على الأستادين فلم يجدوا ماء يسقوها، ولكثرة ما أصابها من العطش؛ خرجت تطوف في القصر بحثًا عن ماء لتشرب فصار، كل من تسأله يقول لها: وحق مملكتك ما تجدي ماء لتبردي به التهاب عطشك إلا بجانب سرير سليمان الملك. فعادت إلى مرقدها فلم تستطع الجلد وبلغت إلى أن تفارق روحها جسدها وغابت عن الوجود فأسرعت ودخلت إلى سليمان لتشرب ماء من عنده، وكان هو يقظان متظاهرًا بالنوم، فلما شربت حتى أروت ظمأها ورجعت إليها روحها وعلمت أن تجددت حياتها بعد الموت، ولما قصدت العودة إلى

مرقدها نهض مسرعًا بها قائلاً لها: صرت لي امرأة كناموس الملوك. وذكرها بالعهد الذي بينهما فأجابت إلى مقصده اختيارًا منها كسابق العهد وأنها بعد ذلك حملت منه فقالت: أنا متوجهة إلى بلادي ومملكتي، فماذا أفعل بولدك إذا أراد الله له الحياة ؟ فقال لها: إذا أراد الرب وولدت ذكرًا فحين يأخذ حدود الشباب أرسليه إلى حتى أصيره ملكًا ويكون ملكك له وإن ولدت بنتًا اتركيها عندك. فقالت: إن أرسلت لك ولدك فمن أين تتحقق أنه ولدك؟ فأعطاها خاتمه وقال: احتفظي بهذا وعاهدي أنك لا تخرجين عن هذا الشرط بالعهد الصادق الذي بيننا، والله ضابط الكل، إله إبراهيم ويعقوب إله أبي داود شاهد بيني وبينك .

وهكذا عادت إلى وطنها وأكملت عدتها فولدت ولدًا ذكرًا ولما كمل من العمر مبلغ الشباب، وقد أحسنت تربيته وقد أسمته باسم جده داود سألها: هل مات أبي وأنا صغير ؟ فأجابت: كلا بل إن والدك يعيش وهو سليمان بن داود نبي الله وملك إسرائيل ومملكته أورشليم وهاهو خاتم مملكة والدك عندي وديعة تصير به ملكًا على البلاد الحبشية .

وللوهلة الأولى سحبتني الأطياف إلى عالمي الآخر إذ أبصرت النبي سليمان يقلب رسالة بلقيس وقد اجتمع حوله رهط من أصحابه بما فيهم كبار الجن وبعض الحيوانات ثم سمعته يسألهم كيف تفرقون بين الغلمان والجواري دون أن تخلعوا ثيابهم فكانت إجابتهم: (أنت أعلم منا بذلك). فأمر بإحضار الجواري والغلمان وحين وقفوا بين يديه طلب بإحضار طشت ماء ودعاهم واحدًا بعد الآخر أن اغسلوا أيديكم. فكان من غسل من الغلمان حدر الماء من يديه حدرًا ومن غسل من الجواري يصبين الماء صعدًا فاستطاع تمييزهم. ودعا بالخيل ليقول : نتجتِ في يوم واحد وهذا خال هذا وهذا عم هذا وهذا ابن عم هذا حتى فرغ منها. ثم دعا بالخرزة التي لم تثقب فوضعها بين يديه ثم قال لمن حضر: من يثقب هذه الخرزة؟ فتكلمت دودة بين يديه فقالت: يا سليمان يا نبي الله أنا أثقبها على أن

تجعل رزقي من الخشب. أجابها: لك ما تريدين. فلزمت الدودة الخرزة حتى خرجت من الجانب الآخر في ثلاثة أيام وبعد ذلك انطلقت لرزقها. ثم دعا بالحُق فحركه قائلاً: فيه عدد كذا وكذا من الجوهر، ومن الزمرد كذا وكذا، ومن الياقوت الأحمر كذاو كذا والأصفر كذا وكذا والأبيض والأسود كذا وكذا حتى فرغ من جميع ذلك، والوفد ينظرون إليه مأخوذين ثم دعا الخرزة التي ثقبها ملتو فقال لمن بحضرته: أيكم يأخذ هذه الخرزة الملتوي ثقبها فيدخل فيها خيطًا. فأجابته دودة طالبة أن يكون في الفصفصة معيشتها أجابها: لك ما تريدين. فأخذت خيطًا في فمها ودخلت به حتى خرجت من الجانب الآخر ثم مضت إلى رزقها في الفصفصة وهي القصب وكانت في الخشب ثم أمر عليه السلام برد جميع ما بعثت به إليها. فلما رجع إليها رسلها وأخبروها بما حدث علقت: لقد عرفت والله ما هذا بملك ومالنا به من طاقة ولا نصنع بمكارته شيئًا. وكتبت إليه: (إني قادمة إليك بملوك قومي حتى أنظر ما أمرك وما تدعوني إليه من دينك). ثم أمرت بسرير ملكها الذي تجلس عليه وكان من الذهب المفصص بالياقوت والزمرد واللؤلؤ فجعل في سبعة أبيات بعضها في بعض ثم أقفلت عليه الأبواب وكان لا يخدمها إلا النساء. ثم قالت لمن خلفت على سلطان ملكها وأمرته بألا يقترب من سريرها أحد لحين عودتها. ثم شخصت إلى بلاده في ألف ألف فارس وقبل ذلك جمعت شعبها وأخبرته بما انتوت، رغم أنها سألتهم الرأي فأوكلوه إليها .

قالت : سوف يأتيكم العلم وما يكون. وأمرت من معها بالتوجه إلى تدمر من بلاد الشام ويوجد فيها بناء عجيب يقال بأن الجن بنته لسليمان والصحيح بأن تدمر سميت بملكة من العمالقة بنتها، وهي تدمر ابنة حسان بن أذينه بن السميدع ... إلخ .

***

تقهقر تفكيري من جديد إلى حبيبي وهو ملقى هناك يقضم أصابع

الندم. إذ تركته وهو يبتلع ريقه من التفريط بفرصة سنحت له لأرتبط إلى عجلته فهل تراه كما يصف نفسه دائمًا بالجبن والخوف والتردد ولماذا أخشى بأن حبي له سوف يهتز عند تأكدي من عمق هذه الصفة!! ذلك البدوي الذي يطل على المجتمع الحضري من زاوية الشرفات والأخاديد التي نتجاوزها نحن بالقفز وحيل الحضارة نسرقها من ثقافة الإرغام والتلقين حتى عاشت عوالمهم وهي تقتحم خصوصيتنا في خطانا المرتجفة، نتمرد على كل ما يوحيه المجتمع بإيقاعات الفقر في كل شيء فلا ثقافة أشبعتنا سوى بالأغلال وهي تطارد تطلعاتنا، ولا رغيف شممنا فيه رائحة أرضنا بعد أن غرسها ذلك المتفرنج بالمواد السامة حتى تضجرت المحاصيل من انتفاخات غير سوية!!

جسدي الجميل تخترق مسامه جحافل أوباء الإلكترون إلى درجة العبث بتكوينه المتناسق فأصبح يتضرج بالطعنات الدامية. فلمن أسلم رايتي يا ترى حتى لا أفقد توازني وتنهار مقاومتي ؟ مليكتي امرأة قوية الشكيمة، بارعة الحيلة تسوس الرجال بقلب الصناديد العتاة فلا تلين لها قناة التزلف أو التسلق نحو حصونها رغم الهدوء الذي تتسم به والتعالي المرغوب في تعاملها وطرح رؤاها، تتدبر معهم مسافة الوعي كيلا تختلط المعاني وتتلاشى المواهب فتضيع مسئولية القرار...

أشعر بأنني الليلة أكاد أن أتجاوز حدودي المرسومة بإصرار على جبيني مكفولة من الصناديد الذين يتطارحون في مواقع الحكمة وارتفاع الصوت !!

فهل سوف تذوى أحلامي مع صفعات الربيع الذي يوشك أن يرحل على صدى زوابع خريف يدق الأبواب والنوافذ ...

دموعنا تذرف حزينة لافتقاد كل ما نحبه حتى النسمات الطرية التي تودعنا مع رحيل فصولها لتذهب هناك بعيدة في أفق لا تطاله قامات أحلامنا. صرخت في وحدتي التائهة وهي تعاني من لجج دواب مختلفة

الأجناس والأنواع لهـا أجنحـة وأعـراف ونواصي. فـرد قـائلاً : إلى بأحسنها الآن. بعد أن أتوا بها أمرهم بأن يشدوها على يمين الميدان ويساره على لبنات من الذهب والفضة وحملوها عليها. وطلب من الجن إحضار أولادهم فتجمع خلق كثير فوزعهم عن يمين الميدان ويساره، وبعد ذلك جلس سليمان في الصدارة على منصة وأمر بأن يوضع عن يمينه أربعة آلاف كرسي ومثلها عن يساره وطلب من الشياطين بأن يصطفوا صفوفًا لعدة فراسخ وأمر الإنس بنفس الفعل، ثم أمر الوحوش والسباع والهوام والطيور بأن يصطفوا عدة فراسخ عن يمينه وشماله. وعندما جاء رسل بلقيس ورأوا هذه الحشود زاغ منهم البصر فرموا بما معهم من هدايا ومثلوا أمام سليمان وهم في رهبة مما يرون، ورغم أنهم أبلغوا لا خوف عليهم مما يحيط بالنبي سليمان فقال لهم: ما وراء كم ؟ فأخبره رئيس القوم بما جاءوا به وأعطوه كتاب الملكة.

(9)

كنت أشعر بالضجر إبان فترة الدراسة، إذ لست مهتمة بفحوى (الميثلوجيا) عند العرب ولا بفلسفة ابن رشد الذي أحرقت كتبه في الأندلس قبل أن تتعارض مع توجه الكنيسة فتمنع تداولها ولا بأي فلسفة تجعل من الإنسان محور الرهان سعيًا إلى سلب الحرية منه. كانت كلمة (الحرية) المحور الذي لا أتخلى عنه وإن بدت واسعة فضفاضة بل أستغرب كيف أن تلك الأديان كانت تتناهشها بالتفسير والتهميش بقصد تحجيمها حتى لم يعد من المسموح مناقشتها بعد أن أضحت لقمة سائغة من السهولة ابتلاعها. واستمعت إلى رأي حبيبي جابر بارتياح عندما قال: إنها لعبة جميلة مثل امرأة حسناء، الكل يحاول الاستئثار بها حتى تضاف إلى تاريخه الحافل بالمكاسب!!

فقلت مازحة : وهل سوف تدخل أنت حلبة الرهان ؟ أجاب: لست

أملك تلك المؤهلات، فالأقوياء فقط هم الذين يتشاجرون حول الرائحة لأن الطعم الحقيقي لا يستلذ به سوى البسطاء دون تضحية كبيرة . تساءلت : هل تعرف الكثير عن تاريخ بلقيس ؟ أجاب: كلا سوى أنها غانية لها مذاق العسل. فصفعته على كتفه بلطف - لأول مرة - قائلة : أنت ظالم مثل حكام هذا الزمن لأنه من شيمة الأغبياء .

فتراجع بخوف قائلاً : هل أغضبتك إجابتي ؟ ولم أرد عليه إذ ابتعدت عن مكانه معلقة: لا أريد أن أكثر من مناقشتك لأنها مضيعة للوقت. ودعنا نلتقي في أفق العشاق، ألا يكفي أنك الوحيد الذي سوف يتلذذ بجسدي ؟ فتنهد ليعلق : لم أنل منه ما يطرب أعماقي بحسب العاطفة التي تسيطر على !

فشعرت بما يشبه القشعريرة. إذ كان تعليقه طعنة كبيرة لي، فهل حقًا لست على ذلك المستوى من العطاء. المرأة تضحي بالكثير في سبيل الاحتفاظ بمن تعشقه، وإلا فهي سوف تعد نفسها فاشلة ومعرضة للانزواء. عطره يثيرني هذا الرجل المكثف الحدود لا أعرف كيف يستطيع النوم بهذه البساطة وهو المثقل بحب الجمال. يحدثني كثيرًا عن الآفاق التي تسرقه مني، فأتمنى أن أستولي عليه بالكامل حتى أصغر أصابعه لها تعاريج مثيرة في وسطها غشاء يتغير لونه من وقت لآخر سألته عنه فأجاب : ربما لأنني أهملها ولا أتعامل معها جميعًا بنفس الحماس. يدي اليمنى تقوم بكل ما يلزمني ولهذا أعتني بأظافرها تشذيبًا وتلميعًا. وليس مثل ما تفعلين بأظافرك القصيرة يا عطر ولست أدرى لماذا تتراكض النساء لتلوين هذه الأطراف رغم أنها لا تثير الرجل إذا لم تكن ذات جدوى أفضل. فعلقت قائلة: تعنى أن تتسلل إلى مداعبة الرجل ولكن ألا تدرى أنها تستعمل فى مشاحنة الرجل أيضًا؟ ضحك قائلاً: المرأة الدموية عند احتكاكها بالرجل قد تحول أظافرها إلى ما يشبه السكاكين كأداة هجوم.قاطعته قائلة : أو دفاع ! رد بسرعة: أسلحة

المرأة جميعها هجومية ولهذا تتغلب عليه. أنتن يا عطر صنف مشاكس في الحياة لا تحلفن إلا قليلاً بمسامحة الرجل الذي ينطوي قلبه على حب كبير للنساء منذ أقدم العصور حتى إنه ليتأوه إذا ما تغلب عليها ويتيح لها سبيل الانتصار؛ لكي يرى الابتسامة تشرق على وجهها. فالمرأة العابسة تتحول إلى دمية قبيحة صدقيني. هكذا أفهم ذلك الصنف المشاكس من النساء وهن أكثرية في العلاقات اليومية ونحمد الله أن اقتحامها لمشاركة الرجل في الأعباء اليومية لا يأتي إلا للضرورة القصوى فإقصاؤها لمناخات أكثر ألفة كان من سبل تجاذب الطرفين وتلاحمهما في الغالب.

أردت أن أستشيره فأخذت أمسد على شعره القصير وأنا أبتسم فتناول يدي وقبلها بوله دفعني إلى أن أطبع قبلة خاطفة على شفتيه فبان الارتياح على محياه معلقًا : هل أطمع في ليلة وردية؟ أجبت : أتمنى أن أجعل أيامك دائمًا في رائحة الورد وما عليك سوى أن تستدرجني متى شئت، إنما علي الآن أن آتيك بما ينعش روحك الظمأى إلى تلوين جلستنا هذه .فنظر إلى بدهشة قائلاً : هذا تطور جديد في علاقتنا وسلوكك معي. كنت أستمع إلى هذا التعليق وأنا أصب له كأسًا من الراح، أعلم أنه يرتاح له مع بداية ولوج الظلام إلى امتداد الليل. إذ يعتبر ذلك الموهن بداية السكينة التي تلف الوجود بالتدريج حتى ينصرف الإنسان إلى إراحة عقله من وعثاء يوم سحب الكثير من الخيبات ولاذ بها بعيدًا فقال مازحًا : ما رأيك لو أتيح لنا اكتساح الرصيف ؟ أجبت : لن تجد من يعارضك وإنما سوف تنافس الفقراء في اكتساب قوتهم اليومي. رد بسرعة : إنها الشريحة التي لا تعرف الحقد ولا الضغينة وعالمها سرمدي من البساطة. وهنا جاءت أمي لتدعونا لتناول الطعام معلقة : ألا تكفان عن الثرثرة العقيمة فلعل الله يمنحكم هدوء عقولكم. فرد عليها قائلاً: ألا يكفي هذا النوم الطويل في ليل ليست له نهاية.

أجابت : لولا الليل لتضجرنا من الدنيا. وانسحبت من أمامنا ليقول: أمك امرأة طيبة تذكرني بحنان والدتي يرحمها الله. كانت إشارته هذه كفيلة بأن أتخيل طفولة هذا الرجل الذي يملأ حياتي . لست أصدق بأنه مثل سواه، كان يذرع أزقتهم حافي القدمين يتراكض وراء القطط والكلاب الضالة بل كنت أتخيله يعيش في قصر يستحقه ليجد من يرعاه ويلبي طلباته اليومية. أمثاله نتصورهم في عالم باذخ وهم أباطرة البترول في جنة الخليج يتقاطر نحوها الأقوام من كل حدب وصوب بغية أن يجدوا بينهم فرصة وإن كانت صغيرة ولكنها كافية حسب ما يقولون لتلبي احتياجات أسر تعيش في أطراف المعمورة. طبعًا، أنا أؤمن بأن الله يوزع أرزاق البشر حسب مشيئته، إنما المسعى نحو ذلك الهدف الذي يميز بين الناس فالمتكاسل لن يجد قوت يومه في حين أن النشيط تتلقفه كافة الفرص. وأعرف أن المئات من أبناء شعبنا - ومن الجنسين أيضًا - تهادوا إلى تلك الأمصار وعادوا محملين بالكثير من الرزق والمتاع. تواريت خلف غلالة من الهواجس أحاطت بي كأنما هي غابة مليئة بالأشجار الباسقة. ركضت باتجاه غدير أراه يلتمع في أشعة الشمس الباهتة. لم تكن الحرارة جافة كما يحدث في مثل هذا المناخ الصيفي الذي تبرق فيه السماء دون أن تهل منها زخات المطر. رياح الخماسين فاسدة ولا تعرف المهادنة. إنها تزرع الأتربة وتطير بها إلى النهايات في أفق متلاطم لا نعرف له سقفًا يتوشح به. فكل شيء يتطاير في ذلك السقف المدلهم الذي ينثر الولولة ويوزع اختناقات الأنفاس، ومضيت في طريقي حتى أوشكت أن أحط على إحدى قوائم القصر لولا أنني انزلقت في آخر لحظة إلى داخل القاعات الواسعة ذات المدى المريح. فنظرت إلي مليكتي الحسناء بطرف عينها قائلة : كنت أعرف أنك لن تبتعدي عن مجالستنا فترة طويلة لأن حسك الرقيق لا يقوى على فراق من تحبينهم. ثم أشارت إلى دورق النبيذ الذي أزبدت حوافه وأمرت بأن

يملأ لي قدح حتى يتوارى خجلي ويحمر خداي ولم أكن بحاجة إلى إلحاف بأن أتجرع تلك الكأس المترعة باللون القاني حيث إن فمي لا يقوى على الانتظار، وشم تلك الرائحة الغاوية، وحالما اكتوت أعماقي بذلك السائل اللزج تابعت الرشفة بأخرى وعيناي تشخصان إلى ذلك الفتى الوسيم الذي انكب على تدليك الأقدام الصغيرة ذات الجلاجل الذهبية المرصعة بالجواهر وهي تلمع مع حركة يديه المدربة على ذلك التدليك، وحسبته سوف يغفو لأن عينيه بدتا كابيتين بيد أنه تنبه بقوة عندما تسلل إلى سمعه وتر البداية هامسًا ليوقظ مشاعر النداء الليلي وقد اكتظت الأحشاء بدبيب الحياة لطفل بزغت لطمات حركته في غياهب ذلك الكيس المتواري في الأحشاء. مما جعل الملكة تتأوه قليلاً وتغير من ضجعتها اتقاء لملمة المتوشح بأعماقها. ثم ارتفع همس الوتر وتناغمت معه الأصوات الناعمة لتشكل بداية الطرب في دندنة العزف وشدو الأنغام وهي تدعوني لأن أتمايل بجذعي وقد انسدلت على الكتفين تلك الغمامة السوداء من الشعر الحريري الذي ينساب متماوجًا مع نداء الجسد الذي يتلمس دغدغة الألحان الشجية تنطلق به بعيدًا إلى آفاق الرؤى واللهيب الداخلي يضفي على المشاعر نسمات الارتداد البشري: ليمتح منها ما شاء من ألق الرؤية المحبطة وهي تتنامي إلى متسع المسافات حتى تنال بغيتها من التلاحم على إيقاعات الدبيب الذي يتغلغل كما رضاب الندى وديمة الغيمة الناعسة ...

كم هي عظيمة هذه السيدة المؤطرة بالملامح الجذابة. تجثو الصناديد عند قدميها تذرف الدموع توسلاً للاقتراب من أصفاد عريكتها فلا تنال أكثر من إشارة صغيرة لا توحي بأي بارقة من نيل مرامها فتكف عن مضايقة ذلك السمو الذي عشق الوحدة وارتفع متسارعًا ناشدًا الذرى والأعالي بعيدًا عن نداء الجسد الذي سوف ينال النقاء وإن تعثر بالحيلة الماكرة مرة واحدة في ليل بهيم في قصر سليمان الحكيم .

كان العطش والظمأ وسيلة اقتحام ما عجز عنه الصناديد فتكوّن هذا العفريت الصغير ينمو على مهل بعيدًا عن العيون ولكنها- المرأة العظيمة - تشعر بحماسة لأن تنتظم له دورة في شعاب الحياة تتلاطم وتقسو حتى يشتد عوده ويتبوأ ما يليق به من مقام. عاطفة الأمومة تتلبس كل أنثى منذ الصغر، فتراها تعابث اللعب وتصادق العرائس، هي الطبيعة البشرية، وإن خالطتها عناصر من أجناس أخرى تبقى متجذرة معتوهة بالإنجاب ! ذلك الشق الصغير لابد وأن يحتمل ما يقتحمه حتى وإن بدا مؤذيًا متغطرسًا ينتفض بلذة النهاية ولا يبش له مرحبًا...

الخدعة تتطلي متى انبثقت ناضجة لأن الجسد ينساق لها صاغرًا والعقل يرتعد حين يصبح وسيلة لذلك التوقيت ... أعلم أن حبيبي تضايق مني حين طوحت أكثر من مرة برغباته الجسدية لولا أنه دفن خيبته وتسامح مع مشاعره ليجعل من العشق الدفين جسرًا وإن بدا متدحرجًا ليفضي إلى الضفة الأخرى الأكثر توغلاً في ممرات الغابة التي تستقبل صباحاتها زقزقة العصافير وصخب الرياح في انعكاسات الضوء على جداولها.

إن تأجيل اللذة إنما يدثر تأججها بعض الوقت، ولكنه لا يسكب انفعالاتها ويطيح بسطوتها فهي تبقى مولولة مثل رماد يدفن جمرات تتقد ببذور النار المتوترة بأحضان عناصرها. وكان حبيبي قد قادني عقب أن تم تسجيل عقدنا العرفي إلى الشقة المفروشة التي استأجرها فتناول بعض الأقداح الذهبية من زجاجة الويسكي التي أحضرها من المطار. وأحضرنا عشاءً جاهزًا من مطعم قريب يقدم الوجبات الجاهزة. وكان الوقت حوالي منتصف الليل عندما رأيته يتجه إلى السرير وقد بان عليه التوتر الجسدي وابتسامة عابرة تلوح على وجهه الأسمر، تمددت بقربه ولا أعلم تفاصيل ما يحدث عادة بين زوجين في الليلة الأولى، ولم يطل الأمر إذا جذبني إليه بانفعال وأخذ يتحسس جسدي فاستسلمت له

صاغرة خائفة وشاهدته ينضو عن نفسه ملابسه الداخلية ويشدد التصاقه بي بينما عضوه يتحسس الأماكن الحساسة في جسمي حيث يقبع الكنز الخفي . . ولم أجد بدًا من خلع ملابسي استجابة لشده المتواصل عليها وهنا نهض بخفة فإذا به يحتكر فخذي وعضوه ينسل ما بينهما حتى اصطدم بغلالة البكارة واقتحمها بسطوة فشعرت بأن ما يشبه السكين الحادة يخترق ذلك الموضع الرقيق وانهال علي بقبلات حين سمعني أتأوه قبل أن أصرخ عندما تواصل الاقتحام وأوغل عضوه في الاندفاع ليطيح ببقية الأنسجة التي كانت متلاحمة فأضحت مسرحًا لتماوج القلاع المنهارة، وكان بودي أن يتوقف حتى ألتقط أنفاسي لولا أنني رأيته يمضي في احتضاني بينما يتوغل ذلك السيف اللحمي مندسًا في التجويف الصغير، وتواصل انتحابي من الألم بينما نجاحه في اختراق ذلك السد الرقيق شجعه على بلوغ أقصى مدى وأنفاسه تتلاحق في متابعة صرير شهوة توشك أن تتجلي بما يشبه آهات تتصاعد في انتظار الطلقة النهائية التي تفجر قمة الشهوة واللذة التي يسعى إليها عضوه المنتصب مثل بيدق يتقدم الصفوف في موقعة مصيرية...

فجأة تراخت أعضاؤه واكتفى بأن يعتصر جسدي بقوة بينما شعرت بسائل دافئ يتخلل الأغشية الناعمة التي استباحها وتداعت أمامه .

وانهمرت قبلاته على كافة وجهي متمتمًا بفتور... شكرًا... كانت لذة عظيمة. وموقعة آلمتك أليس كذلك ؟

أعرف بأن الألم ضريبة تدفعها المرأة المحصنة في الليلة الأولى فقط. واسترخى وهو يطوح بيديه فيما سائل من الدماء ينحدر ما بين فخذي في أعقاب ذلك الهجوم الكاسح، ونهضت حتى أغتسل، ولحقني وأنا أنظف مكان الجرح بينما عمد إلى رش الماء على عضوه الذي استرخى وطأطأ رأسه باستسلام .

تمدد على السرير من جديد. كنت أرى الإعياء في عينيه فارتحت أنه

لن يحاول امتطائي مرة أخرى هذه الليلة على الأقل. فالجولة الأولى مازالت آثار دمائها تدثر فخذي كما لست معتادة الألم في ذلك الموقع الخفي عن العيون. واكتفي بأن التصق بي يقبل أي موضع يفتح الإثارة في جسدي ويتحسس حلمة صدري الناهض. أشم رائحته المتميزة وأتمنى بأن يكون سعيدًا وقد نفض بعض رشاش اللذة التي طالما حلم بها كلما التحم بأنفاسي. وأحببت جسدي لأنه منحه ما اشتاق إليه واشتهاه في غمرة بحثي عن الارتباط به إلى الأبد. إذ لم يبق لي في هذه الدنيا من أسند رأسي على صدره سوى هذا الرجل مهما كان عمره.

أبي هاجر وكنت صغيرة لا أفهم غياب الأب إذ إن أمي تكفلت منذ صغري بألا تجعلني أشعر بفراغ ذلك الغياب بل إنها حين تزوجت برجل آخر سميته أبي لأنه أحبني ورعاني كابنة له، لأن الوحدة جعلت أمي ضجرة لفراق زوجها فطلبت منه الطلاق عندما علمت أنه يتردد على منزل يمتلئ بالحسناوات في الغربة فشعرت بحسها الأنثوي نيته في قطع صلته بها فكانت هي البادية في أن تحرره من التزامه نحونا وبعد حين نسيناه تمامًا ولم نعد نذكر له موقعًا بيننا، بل إنه قطع صلته بنا ولم يفكر بالسؤال عن ابنته الوحيدة فكرهته ودفنت اسمه حتى لم أعد أطيق بأن أنادى به واستبدلت اسم جدي عوضًا عن ذلك الرجل القاسي الذي حرمني عطف الأبوة...

وكان شعور الحزن قد لازمني فترة من الزمن؛ لأن زميلاتي يتحدثن عما أحضره آباؤهن لهن ما عداي. لا أحد يحس بي أو يتلمس مرضاتي. هو فقط زوج أمي ملأ ذلك الفراغ من خلال شغفه بأمي ودفء حبها له . يتبادلان القبلات السريعة وينعمان بليالي عسلية بينما أنام ليس بعيدًا عنهما، أتوسد يدي وأمضي مع أحلام الطفولة حيث لا هواجس ولا مخاوف إنما بإحضار المزيد من اللعب والحلوى. والمفارقة بأن هذا الرجل مغترب هو الآخر. ترك أسرته في وطنه البعيد وجاء إلى القاهرة

لتوسيع تجارته المحدودة. فيالبؤس النساء في أكثر الأزمان. أليس الرجال قوامون على النساء كما جاء في الآيات والأحاديث فكيف يهربون ويتركونهم لأقدارهم الموجعة؟ هل انهارت العدالة عن طريق الهروب ؟ وتذكرت أن حبيبي أيضًا له عائلة باعها في سبيل عشقه فهل ساهمت في اقتلاع أعمدة الأسرة المتعارف عليها أم هي أقدارنا التي لا مفر منها؟ ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ واستدعيت أجنحتي حتى نقلني إلى ذلك العالم السرمدي. عالم بلقيس السحري حيث توقف هناك الزمان بل طار في الأبعاد إلى مالا نهاية...

وكانت بي لوعة لا تغيب إلى تكوين أسرة متماسكة مهما صغر عودها تتلاحم في عطف وحنان عميق حتى يعوضني عما فقدته في طفولتي من ذلك التدفق والالتحام الأسري...

فهل سوف أنال ما أحلم به. أم سوف يبقى مجرد طيف يلوح متواريًا؟

***

أصبح ذهني مثوى للهواجس المتلاطمة متقاطعة ما بين الرومانسية والواقع حتى بت أتساءل في أي عصر أعيش، وأيهما أجدر بأن أركز عليه تفكيري؟ وهل الحب أبقى من الإعجاب والانجذاب ؟ بل هل يمكن للمرء أن يعشق أكثر من واحد في ذات الوقت؟ أيعيش في جوف الإنسان أكثر من قلب نستطيع النبض والتفاعل دون تصادم بينها ؟ ولسبب ما تذكرت المحارة... إنها أكثر الكائنات تحتفظ بسرها وتخفية عن كافة الناس. القواقع. هذه الصدفة المغلقة العجيبة التي في داخلها أغلى الثروات... لا تحاول أن تساوم عليها قط بل تذب عنها وتمنحها جوفها بلا مقابل في تلك القيعان داخل كهوف البحر حيث الهوام المفترسة وصراع الحياة على أشده شراسة.

أنهض من نومي متعبة لأن أحلامي لا تعرف الاستكانة والهدوء بل تتطاير متشظية في اتجاهات متباينة ملتمسة ظلاً تتفيؤه بعد معاناة

لهيب التصادم وتناثر الأجوبة التي تحيرني أسئلتها.

وذات مساء حدثت لي مفاجأه غير متوقعة إذ بينما كنت أتمدد على سريري وأنظر شاردة إلى السماء من خلال فتحة النافذة فوجئت بطائر يشبه الهدهد يدخل الغرفة عبر النافذة. وبعد أن هبط على الأرض إذا به ينضو جناحيه فإذا هو ذلك الشاب الوسيم (شلتفيس) ينظر نحوي مبتسمًا. ندت عني شهقة وأنا أرى هذا المشهد أمامي لولا أن الفتى تقدم نحوي وصافحني وقبلني بحرارة.

أجلسته بقربي مرحبة وأنا أقول :

- أهلاً وسهلاً ...

ضحك بجرس موسيقي ناعم ليعلق : هل تصورت حضوري إليك هكذا؟

أجبت بسرعة : بصراحة كلا ... فما الذي أتى بك وكيف عرفت منزلي؟

رد قائلاً : لست أكثر من جني يجوب ما حوله كل يوم ثم إنني من حاشية سليمان نستطلع الأمكنة من حولنا حتى ننهي إليه ما نرى ونسمع. وقد كنت باعتبارك أحد حاشية الملكة بلقيس موضع اهتمامنا خاصة وقد لمست منك تعاطفًا معي عندما غضبت علي بلقيس ذلك المساء. ثم احتضنني بقوة وراح يمطرني بقبلاته الولهى التي أثارت استغرابي مما اضطرني إلى التنحي عنه قليلاً.

فقال باسمًا :

-إن وقتي لضيق فلا تحرميني من متعة الالتصاق بك والنهل من شفتيك .

أجبت متذمرة : لا تنس بأنني متزوجة وفي عصمة رجل آخر .

رد بسرعة : الجمال ليس ملكًا لأحد والآلهة التي منحته لم تخصصه إلا ليتمتع به كافة العباد.

فالأنانية ذميمة في كافة الشرائع !

فاستسلمت له وأنا أتأوه من إثارته لغرائزي. بينما استرسل في

مقولته ليضيف:

- ألا ترين بأن الخالق زرع في الوجود أنواعًا متباينة من سمات الجمال التي صنعها فنجدها مبثوثة في النبتة الصغيرة والطائر المغرد بل والمشهد المثير للنظر ؟ أما في النساء فقد كن الصبابة والفتنة منذ الأزل ولولا ذلك لما تمتعنا بقصائد الغزل وناعم البوح، فمن أين لك بهذه المحرمات المجانية ؟

إن عالمنا لا يعترف بأي إطار يحد من انطلاقتنا؛ لأن في ذلك سخرية بأطايب الحياة المبثوثة من حولنا والمتاحة لنا فالمخلوق مطية للخالق الذي أوجد له هذه الآفاق السرمدية للمتعة والانتشاء ...

ثم رأيته يقف على حافة السرير ويلملم جناحه استعدادا للطيران فطلبت منه ألا يذهب .

فرد قائلاً : سوف أرجع لك بعد منتصف الليل حتى نتطارح الغرام!! فانتظري عودتي..

وانطلق نحو فتحة النافذة حيث اختفى منها كما حضر بينما خلفني أطلق الآهات الحبيسة بمثابة حسرة على ضياع أحلام عانقت خيالي منذ قليل.

ووجدتني أتساءل مع نفسي بدهشة : هل فعلاً يدور في ذهني الاندفاع نحو علاقة من نوع ما ؟ هل بدأت أتخفف من رابطة التعلق بذلك الكهل الخليجي جابر ؟

يا للقلوب التي تتصدع بالأزمات وتنحسر عنها غلالات لتحل بدلاً منها أخرى أكثر حيوية مثل أوراق الورد المتراكمة فوق بعضها تنتظر الفرصة بانقشاع ما قبلها لتتجسد متفتحة بهيمة .

وانهمرت الدموع من عيني على ضياع العمر في سراديب المجهول نكمن في أعماقها خشية افتضاح دواخلنا الملبدة بالسواد.

كم نتعذب وتطيش سهامنا في عشوائية السراب .

أحلام تتقاذفها رياح عاتية لا نعرف متى تحاول اقتلاع أشرعتنا وهي خافضة في ذلك المدى.

تكتسي وجوهنا بذلك الهمود الراعف بما لا نعيه .

فأين ذلك العشق الذي مزق أقنعتي وطرحني أتأوه بطعناته ؟ هل اختفي بغمضة عين ؟

(شلتفيس) الوسيم يطارد طيف حبيبي جابر... ذلك الذي بدد من جفوني أحلك ليالي العمر وحولها إلى خفقات مطرزة بنعيم الرؤية . جذلة تتمايل مع نسيم الصباحات كما الرياحين فرحة بيومها الواعد .

أكاد لا أعرف نفسي بل أنكرها متقلبة كالحرباء في البيداء. فصرخت مستغيثة حتى تردد صوتي في جنبات ذلك القصر الشامخ. بل تذكرت ذلك الوليد الجميل، ابني أحمد، تلك الثمرة اليانعة من افتراسات ليالي العذاب وجروح الذاكرة فخمدت أنفاسي واستسلمت إلى نوم متقطع لم يوقظني منه إلا التحاف ذلك الفتى الوسيم لغطاء نقائي ناثرًا القبلات على وجهي العابس .

استيقظت باكرًا ورأسي مليئة بالأوهام . لا أدري أيهما أكثر أهمية لي بكاء أمي المتواصل: دعوة أبي لأن ألحق به في الغربة: هذا الرجل الذي يلتف حبه حول عنقي/ تلك المرأة الفاتنة بلقيس .

الرجال الذين يتصارعون لطلب ودها وهي ترفضهم بإباء لأنها ترى أن مثلها لا ينبغي أن يمسها أي رجل مهما كانت منزلته عند غيرها. وهناك الأشباح التي رأيتها قبل عدة ليالي . كانت تشير إلى وجود كمية كبيرة من العناكب والثعابين حول المنزل ستنجح في اقتحامه والمكوث فيه. لم أدخل سجن النساء إنما تحوم في ذهني مشاهد من ذلك المكان رأيتها في وسائل الإعلام تخيفني، وتقلق أحلامي ليس لكوني مهيئة لأن ألج ذلك المبنى الرهيب وهو ما تخشى منه كل أنثى لأنه يلوث سمعتها - وإنما لأن للمرأة مكانتها في كافة مجتمعات العالم طبعًا ليس لكونها تتيح

للرجل تجربة فحولته وامتصاص همومه وتمتعه بتلك الهضاب يرتقيها من جسد ناعم لذيذ، وها إن مليكتي بلقيس جعلت سليمان يضع الخطط لفرط اشتهائها حتى يظفر بها ويزهو فوق صهوتها الباذخة ! أشعر بالهذيان وأنا نائمة وحين أستيقظ لا أستطيع تأكيد نومي ماعدا الهواجس التي تدور حول عشقي لذلك الكهل الذي ارتبطت به وأسلمت له قيدي. ذلك مالا أنكره ولا أعرف تفسيرًا له لولا الحكمة القائلة: نحن مسيرون ولسنا مخيرين. وهذا رباط جميل أدور حوله وأتمسح به عله ينقذني من الضياع .

(10)

وجاءت أختي (سالي) جميلة مثلي، وكأنما أمنا تخصصت في إنجاب الحسناوات؛ لتحارب بهن كبرياء الرجال المغرورين برؤوسهم المحشوة بالوهم فيما قلاعنا أكثر منعة منهم. تراهم في آخر الليالي يدخلون غرف النوم على رؤوس أصابع أقدامهم حتى لا يثيرون استياء زوجاتهم المتمتعات بفراقهم... وربما كيلا تشم في أفواههم الكريهة مذاقات كابية. أما إن احتاجوا الوصال واجتاحتهم الرغبة في ارتعاشة فوق الصدور الموجوعة بالتمنيات فسوف ينثرون ابتساماتهم ويمطرون السرير بروائح منعشة علَّ الحسناء تشعر هي الأخرى بدبيب الشبق فتتأوه مستجيبة إلى ضمة ناعمة تلهب حواسها الدافئة ببقايا حلم مرق مثل رفة برق خاطف ...

فلماذا تنتفخ أوداجهم في البواكير وقد خلعوا الفضيلة في الليل؟ هم يثيرون الشفقة والسخرية لأن المرأة تعرف متى تنتزع ما تريد من ذلك الفحل الذي يخور عند اصطدام مراسيه بانزلاقات الشاطئ. فتأخذه طواعية وتوقد له شمعة حتى يتبين طريقه في أحراشها الرافضة للاستجابة بينما تنثر الابتسامات في وجهه إن أرادت مكافأته. وهذا

يعني أن كافة المفاتيح في حوزة المرأة هذه التي أدمنت الصبر وتحريك الدمى لتقوم بالأدوار المرسومة في ذهنها. للنساء تاريخ حافل بشكم الكبرياء والجور حتى قيل إنها تلعب بالنار في بعض الأحيان دفاعًا عن كرامتها. بينما الرجل يتمسح بأذيالها إذا ما وجدها تجيد الصد والأنفة، ولعل المرأة التي خرجت من دائرة المنافسة هي وحدها التي تخسر في السباق؛ لأن قدرها أحبط تميزها فارتضت بأي وعاء يقدم لها غير شاكية أو متأففة ربما انتظارًا لفرصة سانحة... إن من لا يفهمنا لا يعلم عن الأسلحة التي في حوزتنا ولا يدرك قوتها مع أن البعض منها مجرد حبال نقذفها وننتظر حركتها في الطرف الآخر شأن من يصطاد على الضفاف، إنها حواء التي أغرت الرسل والأنبياء منذ الخليقة.

كانت الطفلة الصغيرة سلوة لي إذ لم يسبقني إلى دارنا أي أطفال سواي؛ ولهذا فرحت بالطفلة وأخذت أتشاجر مع أمي على حملها لأنني لم أكن حين ذاك في عمر يُطمأنُ فيها إلى قواي في التنقل بمثل هذه الطفلة الكثيرة البكاء، القليلة الابتسام فكنا نتسابق حتى ندفعها إلى مناغاتنا والاستجابة لأن تضحك ...

لولا أنها تحاول أن توهمنا بأنها ليست سعيدة وهو ذكاء مبكر من طفلة شقية اسمها سالي أختي الصغيرة التي مازلت أحبها رغم أنها تسبب لي الكثير من المتاعب في علاقتي بأمي إذ إن الأمهات - وهذه من أخطائهن الفادحة - ينحزن إلى الصغار على حساب محبة الكبار مما يسبب جرحًا في محيط الأسرة الواحدة مهما كان حجمها فالصغير غالبًا ما يظفر بحصته وحصة من هم أكبر منه، وهذه نقطة تسجل في تراجع التربية السلبية في الأسرة العربية. أقولها بكل تجرد بعد أن تجاوزتها مثخنة ببعض الجروح. إنما تلك مرحلة تجاوزتها والحمد لله وأصبحت في مواجهة حبيبي الكبير هذا الإنسان الغريب الذي اخترته - برغبتي التامة - ليكون شريك حياتي في القادم من أيامي مهما كان

نوعها فسوف أرضى بها لأنها قدر كتب علي أن أخوضه مهما كانت النتائج . وفجأة وجدت أمامي سؤالاً مشاكسًا يقول: ما هي علاقة المرأة بالشيطان؟ هل هو وسيطها في الحب؟ وصلت إلى ما يشبه اليقين في هذه النظرية عندما وجدت أن أكثر نسائنا لا يتزوجن في الغالب عن حب؛ لأن الحب العادي يأتي قبل مرحلة التفكير في الزواج، بينما تيار الحب يبقى حتى بعد الزواج يشد رجلاً وامرأة ليسا متزوجين من بعضهما، أي أن الأسرة تلتئم مفككة منذ البداية، وكأنما الحب نبتة شيطانية لا جدوى منها في حياتنا، وهي بهذا مرتبطة بمرحلة المراهقة ولا علاقة لها بالوعي والفهم لصيرورة الحياة والطبيعة السوية. فهل كان أبونا آدم وأمنا حواء مجرد مراهقين منذ خلقا وتعارفا في الجنة قبل طردهما بعد إغواء الشيطان لهما لأكلهما من تلك الشجرة المحرمة؟

هل الشجرة هبطت معهما فهيأت لأحفادهما صنع الخمرة وزادت بأكلها من فتنة النساء حتى أن هابيل وقابيل اقتتلا لاجتذاب شقيقتهما الساحرة؟ الرسل والملوك انجذبوا إلى الحسان على مدى التاريخ وكانت من أسباب الحروب الطاحنة لأن المعارك كانت تبيح للمنتصر أن يسبي النساء الجميلات أو يبتاع ما يشاء منهن حتى يعطرن سريره مرغمات ويمتص لذته بأجسادهن، وقد فطن عرب الجاهلية إلى ما يسببه سبي نسائهم من فضيحة لهم فعمدوا إلى وأد معظم البنات اتقاء لتلك المهزلة الجنسية التي رفضها الإسلام بين المسلمين وإن لم يوقفها بالنسبة للأقوام الأخرى المهزومة فكانت القصور تحتشد فيها الجواري، وبعضهن من سلالات رفيعة ولكنها ثمن الهزيمة والضعف فطوبى. للأقوياء في كل زمان ومكان وبئس أمتنا في مرحلة الخنوع والتشرذم حتى جعلت بعض القادة ينصرفون إلى تأليف الروايات لتضاف إلى مجدهم البائس ويجعلون من أنفسهم رمزًا للرومانسية المتوحشة فسحقًا لمثل هذه العقول الخاوية. مالي انساق وراء هذه الغيوم الهلامية بينما أعيش في جولات

عبر عصور رازحة في الضباب والتعتيم. وقلبي البكر لم ينتفض إلا لهذا الآدمي الذي جاء من وراء أفق مجتمعي بعيد ليقتحم عواطفي دون تخطيط منه أو اندفاع إنما ذهبت له طائعة بكل مشاعري أسأله أن يقترب من جرف الحياة الخشنة التي أعوم في تيارها أصارع من هم أقوى مني ولا أبالي بالنتائج لأنني خلقت لا أميل إلى الخضوع وإنما أمارس حقي في الحرية التي لا تخرج عن نطاق ما شاهدته حولي فلا أستسلم لما يفكر به غيري نيابة عني ...

إنما مصيري بيدي لا أرضى أن يقوده من تسلط علي بحكم مكانته في الأسرة أو حتى تألقه في المجتمع الذي أعرف أنه ينهض على من يملك المال الكثير بينما أنظر إلى المادة باحتقار ولا تأخذ من تفكيري الكثير من الوقوف عندها. ولهذا أتخيل نفسي في الكثير من الأحيان مثل تلك الطيور التي تعبر سماءنا بموجات لا تنقطع وهي تغرد فرحة لأنها مهاجرة ! إنها تعرف إلى أين هي ذاهبة ولكنها لا تدري هل سوف تعود أم لا. ومع ذلك لا تهتم بشأن العودة إنما تنصب أحلامها في الوصول إلى مبتغاها ...

لحظة الوصول هي كل عالمها ودنياها الجديدة. لقد محت الهجرة ماضيها فأصبحت حياتها صفحة جديدة لم تسطر عليها أية حروف ويالها من دنيا جميلة بلا ماضٍ ويكفي بأنها تمتلك حرية حرم منها الإنسان في معظم الأزمان ...

كانت أمي زوجة طيبة ويخيل إلي أنها لم تعرف الحب جيداً. لم يعمر قلبها حب إنسان محدد، هكذا عاشت في أروقة الحياة المتذبذبة كما أخبرتني في كنف رجل عطوف هو جدي الذي أمضى أكثر سني حياته يتردد على الأطباء في أمراض مختلفة أهونها المفاصل وأصعبها القلب، ولأنه يلازم المنزل أكثر أيام حياته فقد وجدت أمي في كنفه ذلك الرجل الحنون الذي يغدق عليها حبه لا سيما وأنها البنت الوحيدة بين ثلاثة

أبناء، وكانت أصغرهم والصغير في مجتمعنا العائلي يجد رعاية تفوق غيره. لذا فإنها رفضت الزواج عندما طرق أبي منزلهم عريسًا. ترددت وبكت لأنها لا تقوى على فراق ذلك الجو الأسري الحميم . لولا أن والدها أقنعها بأن قدر الفتاة لا محالة ينتهي إلى تأسيس أسرة مع رجل آخر حتى وإن لم تكن تعرفه، فالأطفال الذين سوف ينجبونهم هم الذين يربطون تلك الأسرة الجديدة بوشيجة لا تنفصم . واستجابت لنصيحة والدها الذي كانت تعتبره قدوة لها ومعلمًا ولابد أن سفينة حياتهما كانت تتأرجح مثل تلاطم الأمواج لاسيما وأن الحياة السياسية في البلاد شابها الكثير من العواصف مما جعل أبي يتذمر ويخطط للهجرة. ولم تمض سنوات قلائل إلا وقد عادت إلى منزل والديها تحملني بين ذراعيها طفلة بريئة خلفها رجل له طموح واسع. ولا أعرف الكثير من تفاصيل تلك الفترة إلا أنها كانت مليئة بالحنان والحب الذي أحاط بي من أفراد الأسرة باعتباري أصغرهم جميعًا، وبالتدريج أخذ عدد الأسرة يضمر برحيل أخوالي الواحد تلو الآخر لزواجهم ولم يبق سواي وأمي برفقة جدتي عقب أن رحل جدي مثخنًا بأمراضه وأوجاعه إلى الحياة الآخرة. على أنني وجدت نفسي أنادي رجلاً آخر بكلمة (بابا) الذي حل مكان أبي الثري، طلبت أمي الطلاق منه وانفصلت عنه عقب رحيله. وهكذا فإن المرأة الطيبة - أمي - وجدت في كنف الرجل الجديد ما عوض فراق الآخر المغامر. على أن حالة هذا الرجل المادية لم تكن كما ينبغي لأنه يحترف الأعمال الحرة، وينفق على أسرة له خلفها وراءه ورضيت به على علاته حتى تهدئ من نظرات السخرية شأن أي امرأة تعيش عازبة في مجتمع يبغض النساء المطلقات أو العانسات .

كنت منذ صغري أميل إلى الشغب وعدم الانصياع، لهذا لم أركن إلى أي شاب حاول الاستئثار بي حتى دعيت بالفتاة المتمردة على كل شيء بما في ذلك الحب. لذا فإن لقائي بذلك الرجل زلزل كياني دفعة واحدة

وأفقدني ذلك التماسك الداخلي .

أصبحت أناجيه في وحدتي وأضيق بالأوقات التي أفترق فيها عنه، لم أسأل نفسي من أين أتى، ولا عن ارتباطاته العائلية والمسافات التي تفصلنا في التعليم والعمر والطبائع. كان قلبي يرتعش لمجرد أن أراه ماثلاً أمامي وكأنما يخفي داخله جاذبية لا تقاوم. بوصلة تميل بحدة إلى عالمه الخاص. بل إن دموعي كانت تنهمر لمجرد التفكير بحدوث عوائق تفرق بيننا. كثيرة هي الليالي التي أصحو مذعورة في أعقاب حلم يتراءى لي وقد رحل عني إلى وطنه؛ فأصمم على اللحاق به حتى لو ذهب إلى آخر الدنيا ولا يهدأ بالي حتى أسمع صوته عبر الهاتف يناجيني بكلمات الحب واللوعة؛ لأنه هو الآخر كان يعاني من الأحاسيس ذاتها بعد أن توثقت العلاقة وتدفقت المشاعر بدون أي اعتبارات أخرى.

كنت أتألم لأجله ومن أجلي، ونحن نرى الكثير من العقبات التي تحول دون ارتباطنا لا سيما وقوف أخوالي في وجه ذلك الحب العاصف والسخرية منه. بينما أمي حائرة تميل إلى صفنا غالبًا وتخشى إغضاب أشقائها. وكانت المرحلة التالية عندما استدعتني بلقيس إلى حصنها في مأرب مفعمة بالتناقضات !! استغرقني التفكير لأول مرة حتى خشيت على نفسي من الجنون وشعرت بأنني انفصلت عما حولي، لولا ذلك العشق الذي مازال يشدني إلى رجل مغمور يجاذبني الحب وإن كان مقموعًا بالعجز في الإمكانيات ومحدودية استيعاب ما تحولت إليه حياته منذ تلك الليلة الموسومة باليقظة وانبعاث الأنثى التي تلبستني حتى أنني فكرت بأن أرتمي تحت قدمي مليكتي لعلها تنقذني مما أعاني أو تدلني على السلوك الذي ينبغي لي أن أختطه لنفسي. على أنني رغم ذلك الجزع وانشطار ذاتي فقد وجدتني أميل ذات مرة قبل اقترانا وفتكه ببكارتي إلى زيارة حبيبي خلسة حتى أغترف مما يخبئه عني. فشعرت بأن جناحي يصفقان كدعوة لي بأن أركب متن الأثير، وخلال لحظات

وجدتني أدلف إلى غرفته بعد أن أطفأت النور مما أشعره بالفزع، لمست ذلك من نظرات الذعر التي اشتعلت في عينيه والارتباك في تصرفاته إذ بدأ القول متمتمًا في ذهول:

- عطر... كيف أتيت ولماذا أطفأت النور؟

أطلقت ضحكة قصيرة لأجيب:

- كما ترى يا جابر . افتقدتك فجئت لأمتع عيني برؤيتك. ورغم الظلام فنورك يشع بهجة.

أجاب بسرعة:

- ألم يرك أحد وأنت تدخلين الغرفة؟

هززت برأسي قائلة:

- اطمئن... فلقد استعرت خاتم النبي سليمان وتقمصت أسرار ملكتي بلقيس.

تلفت حوله غير مصدق ليتساءل:

- النبي سليمان مات منذ مئات السنين فهل تحولت إلى جنية يا عطر؟ ومن هي بلقيس غير ملكة اليمن في الغابر من السنين .

قلت وأنا اقترب منه:

- كل شيء جائز في هذه الدنيا فلا تكثر من الأسئلة، ودعني أشبع من رؤيتك .

قال مرتبكًا:

- لابد أنك أصبت بمس .

فتنهدت لأجيب:

- منذ عرفتك وأنا أعزف لحن العيون... فما رأيك بأن تمتلكني الليلة؟

قلت ذلك وأنا أندس في فراشه .

تلفت حوله بذعر مبتعدًا .

- سوف أهرب من الغرفة إذا لم تكفي عن هذا الجنون .

- أنت أكثر مني جنونًا، وإلا فهل هناك من يصادف فتاة صغيرة تعرض نفسها عليه فيتقاعس .

راح يبتعد عني وهو يهز رأسه باستغراب

- إنني أخاف عليك ... أخاف عليك من نفسي .

قلت بدلال:

- أنت تعرف بأنني لن أكون لغيرك حتى لو قطعوا جثتي. فهل تشك في هذا الأمر الذي تدركه حتى البهائم؟

إزدرد ريقه ليجيب:

- هذه أمنيتي ... إنما أمامنا وقت للتنفيذ .

نهضت غاضبة ثم اتجهت نحو الباب المغلق قائلة:

- لست بالرجل الذي توقعت ... أنت جبان يا جابر، والمرأة لا تطيق من يتردد في امتلاكها عندما تواتيه الفرصة .

رأيت الدهشة والعذاب يطلان من عينيه، فلان قلبي لحالته المزرية واعتزمت أن أخفف عنه بواعث العذاب فعدت إليه وأخذت وجهه بين يدي وأنا أحدق بحب في عينيه الحزينتين، وغمرت وجهه بالقبلات الحارة حتى وجدته يئن من الظمأ واللوعة والاشتياق إلى مطارحة جسدي ليتفاعل بالحب لولا أنني تذكرت تردده مما يعني القلق وعدم اشتعال الممارسة الجنسية فانسحبت من أمامه وأطفأت النور حتى لا يرى تكور الجناحين تحت إبطي فيصاب بلوثة تذهب ببقايا عقله. وهكذا اندفعت خارجة من الغرفة ويممت نحو السطوح وقد فردت جناحي حتى وجدتني بعد لحظات أتمدد فوق سريري في غرفتي عائدة إلى التقوقع وأطياف الضياع، ومع ذلك فلن أكون لغيره مهما تمادى في لعبة القط والفأر، فقد ساقه قدري إلى مصيدتي ولا أعرف أن في شباكي الكثير من الثقوب التي سوف يتسلل منها وما على سوى إحكام القبضة دون أن تتمزق الشباك...

وقد طال مكوثي إليه تلك الليلة دون أن يفطن إلى حضوري إذ تسللت فكريًا تارة وجسديًا تارة أخرى حتى أرقب حيرته وتخبطه في مجرى تفكيره بي وانشغاله بأمري مما جعله يلتجئ إلى كئوس الراح حتى تعينه على ابتلاع خيبته وتردده عندما عرضت عليه أن يكون المتصرف بجسدي لولا أن خجله الاجتماعي كبح الرغبة في عينيه وهو يتطلع إلى تفاصيل مفاتني وهي فرصة أضاعها ولا شك وسوف تبقى ملازمة لملامة نفسه المترددة نحو وليمة باذخة كانت في متناوله للاستمتاع بجسد لم يتجاسر أحد قبله في أن يتحسس أي جزء منه. أبصرته يصعد الآهات الحبيسة ويلكم رأسه بعنف جزاء ما فرط في لحظة ضعف مني وانجذاب نحوه مما جعلني أعطف عليه وأرثي لحالته المزرية وتردده في هوة الخوف والقلق. ومع أنني فطنت إلى فداحة التضحية التي سكبتها في ذهنه التي قد يفسرها بأنها بمثابة اعتياد لي أو استرخاص وتفريط لما تحرص عليه أي فتاة مازالت بكرًا من عدم الاقتراب من فض تلك البكارة - الجوهرة - من محارتها المكينة...

انشغلت في مراقبة تلك الحيرة الواخزة، والغيمة من الدخان الذي التحم بسقف الغرفة مخنوقًا ما بين مكان جلوسه والفضاء المحدود حتى رثيت لحالته مدركة دبابير التمزق وهي تنخر في رأسه الصغيرة المزروعة بالشعيرات البيضاء يحاول إخفاءها بالأدوية الكيماوية حتى لا تكشف عن سنه الفعلية التي لا تعنيني كثيرًا منذ ارتبطت به قلبيًا إذ إن الحب مسح تلك المسافات بيننا وجعلها رحلة قصيرة حصدنا من خلالها تجارب هي بمثابة محطات تنزلق مع العمر اللاهث بالهرولة في دروب الحياة. حتى كدت من فرط إشفاقي عليه أن أحتضنه بين ساعدي وأضعه على صدري لكي أهدهده وينال ما يحتاجه من حنان وعزاء بعد أن فرط بتلك الفرصة المواتية لأي رجل يتطلع إلى لذة يمارسها مع فتاة أو سيدة صغيرة تجسد الإغراء والجاذبية بل وتدعوه إلى ممارسة

فحولته معها ...

كانت عيناه وقد احمرتا من تناول ذلك المسكر تهيمان في ذلك الفضاء التعيس. إن غموض أعماقه يحيرني وتلك الرائحة الزكية التي تثيرني فيه، إنها رائحة مميزة لم أتشممها في أي مخلوق سواه وربما كانت هي من أسباب عشقي له وهيامي به.

(11)

صعقت عندما أخبرتني صديقتي نادية بأن حبيبي جابر قد تخلى عني، بل زعمت أنه قال لها: إنه لا يريد سماع صوتي نهائيًا. شعرت بالدماء تغلي في داخلي إذ إن هذا الرجل هو كل عالمي فكيف لي أن أستطيع الحياة دون سماع صوته على الأقل عبر الهاتف الجوال بعد أن حرمتنا الظروف من البقاء متلازمين كأي أزواج متحابين وقد تكلل حبنا بهذا الغلام الجميل الذي أسميته أحمد لم أعد أقوى على مواجهة هذا الذي صعقت من سماعه فألقيت بجهاز الهاتف الجوال من النافذة مرددة: إذن لا لزوم لهذا الجهاز معي، ثم وجدت نفسي في حالة من الانهيار والهياج القلبي دفعني إلى أن أقذف بنفسي أنا الأخرى من النافذة في طابقنا الثالث من العمارة ! لم أشعر إلا والناس يتحدثون من حولي، بينما صراخ صديقتي نادية يتعالى من النافذة التي هويت منها قائلاً:

- أسعفوها يا ناس... دي انتحرت من الزعل. جوزها سابها .عندها طفل منه، الله يجازيه الخائن الجبان. سرت همهمة وتعليقات بين الذين يحيطون بجسدي المسجى من الرجال والنساء والآلام تنبعث من معظم أجزائه لولا أن لساني انعقد مما آلت إليه حالتي إلى مثل هذا الوضع من اليأس والإحباط تبدت بالدموع التي كانت تسح من عيني المحمرتين اللتين تشيان بحدة الصدمة التي تمزق جوانحي، بينما أصبحت تائهة

في شواطئ الحياة التي لا ترحم من ضاع في أعماقها إذ قطعت سبل الاتصال مع أقاربي الذين يقف على رأسهم خالي الذي كان هو أقرب الناس إلينا، كما أن أمي ليس في مقدورها عمل أي شيء لي لأنها لا تملك حولاً ولا قوة تستطيع استخدامها عند اللزوم، ولهذا تكتفي بذرف الدموع توسلاً لسماع شكواها بأن يراعي أخوالي سلوكي الذي لا يخلو من المشاكسة ويحتاج إلى احتوائه عن طريق الإقناع لتهدئة توتره !

عقب أن تعالى صراخي من الآلام التي تنبعث في أكثر من موضع من جسدي المثخن بالجراح بينما حالتي بين الإغماءة والدوار حملني الرجال في عربة أجرة إلى مستشفي أعرفه في أطراف الشارع الرئيسي وتسلمتني الممرضات هناك والأطباء، وخضعت لفحوصات لا أتذكر حدودها إنما الذي أحسسته أنها محاولة لمعرفة وضع العظام في جسدي الذي جعلني أصرخ عند أي ملامسة عنيفة، ولم يكن أمامهم من سبيل لقمع صراخي سوى إعطائي حقنة تسكن لساني حتى يتسنى لهم التحقق من جسامة مدى الإصابات. وهكذا استسلمت إلى إغفاءات من تأثير (المخدر) الذي أقحم في جسدي وانتشر تأثيره إلى قمة رأسي. أفقت في اليوم التالي بالتدريج وكنت أتصور نفسي قد انتقلت إلى الحياة الآخرة لذا لم أصدق أن تلتقط حواسي ما يدور حولي من أحاديث وتعليمات تميل إلى الزجر والترفع - كما هو حال الممرضات مع المرضى في أكثر مستشفياتنا - انتبهت إلى أن الأربطة تخفي أجزاء كثيرة من أطرافي ورأسي بل إن إحدى قدمي كانت مربوطة ومشدودة إلى الأعلى ثم أن الألم صرخ في جسدي حين تحركت قليلاً فاستسلمت لنوبة من القنوط جعلت الدموع تطفر من عيني ورحت في نوبة من البكاء دون أن أرفع صوتي خجلاً ممن حولي لعلها تغسل بعض أحزاني التي تمرغت في السعادة وتحقيق معظم أحلامي في الشهور الماضية على يدي هذا الرجل الذي ينوي الانقلاب علي، وقد منحته ما يتوق إليه

من فتاة ثم امرأة شابة وجميلة تترصدها العيون أينما ذهبت. فماذا يريد أكثر من ذلك؟ وقد أصبحت ملك يديه مثل قطعة (عجين) أو صلصال يكيفها حسب مشيئته ولم أتذمر من وضعي وحيدة بعيدة عنه، بينما هو يعيش بين أفراد أسرته ويحاط بعناية أبنائه. حقيقة أنني لم أمنحه كامل ما يريده من جسدي إلا لمامًا لأنه يهوى العناق الجسدي وهي نقطة ضعف لا أدري كيف أتغلب عليها من كوني لا أميل إلى كثرة الممارسات الجنسية وأحسبها رجسًا من الشيطان مع أنني وهبته بكارتي عقب أن عقدنا زواجنا العرفي في أول ليلة، وتألمت من الممارسة العنيفة في تحولي من فتاة إلى امرأة وضعت عذريتها تحت تصرف الرجل الذي اختارته إنما استمرار الممارسة الجنسية، كنت لا أحبذه إلا عندما أراه يكاد أن يصبح متهيجًا من الرغبة الجنسية على أنني أعترف بأنه كان يلاطفني كثيرًا حتى يستدرجني ولا يحاول إرغامي عنوة، لولا معرفتي بأن ذلك من حقه الزوجي الذي أباحته كافة الأعراف والعلاقات الزوجية .

وأبلغتني صديقتي نادية لاحقًا بأن جابرًا تألم من الخطوة التي أقدمت عليها، واتهمني بالجنون لأن فكرة الانتحار لم تخطر على باله بل إنه مازال يحبني، وما صدر من كلمات غاضبة نحوي لا تعني تخليه عني كلية، إنما هي من سَوْر القلق والعذاب الذي يكابده في وضعه العائلي المهزوز... فيا موزع الأرزاق ارحم حبيبي !

لا سيما وقد فقد كل ما يملك من المال ولم يستطع حتى تحقيق حلمي في ابتياع منزل يأوينا عند حضوره بسبب تبذيري للمبالغ التي يرسلها لي وعدم النظر إلى البعيد من كون موارده محدودة... وكان علي أن أقتصد لا أبذر إنما لا أدري لماذا اتخذت ذلك السبيل الموجع الذي أرهقني في التفكير والتعامل مع واقعي البائس... حيث إنني من أسرة فقيرة لم تنل ما حصل عليه غيرها من الأسر الغنية...

ولهذا السبب أصبحت أحاول أن أجاري بهذا التبذير صاحباتي الموسرات اللاتي لم يجدن تلك المشقة. في الحصول على المال لأن آباءهن من الأثرياء أو الذين تأتيهم الأموال دون تعب أو مشقة ذات مرة قلت لها:

- يا مولاتي... إن الله منحك من السجايا ما لم ينله كبار القوم في كافة أنحاء الدنيا فما هي أمنيتك؟

أجبت ببساطتك وسمو خلقك .

- أن تهبني الآلهة متضرعة خيوط العدالة حتى أتمسك بها وألتمسها فضلاً يوحي برضاها بعد أن منحتني هذا الفيض المتدفق من النعيم والسعادة. إنني أتطلع إلى الحكمة ولا شيء غيرها حتى يرتاح قلبي وتتلاشى ذنوبي.

عندها انكببت على يديك وقدميك عسى أن أظفر ولو بعد حين بمثل هذه الطيوب التي تتضوع بها ابتهالاتك، وكانت الدموع تسكب عساها تغسل ذنوبي التي لا حد لها، وتنقذني من السؤال الجارح الغامض !! ما هو الحب؟ أعرف بأن سبب عذابي هو ذلك الشقي - خالي - القاسي القلب والذي أسمع أنين زوجته حين يمتطيها، حتى جعلني ذلك الأنين أبغض المضاجعة وأعتبرها عذابًا ينبغي تفاديه. أشعر بأنني مقيدة ولا أستطيع الخلاص والظفر بحريتي كبقية خلق الله. حتى اعتبرت نفسي معذبة حكم عليها بأن تستسلم لهذا المصير، ولا تحاول الثورة عليه. فماذا أفعل حتى أنطلق في ملكوت الله متخففة من هذه القيود؟ إن الإنسان في هذه الدنيا - كما حسبت - يولد وفي جوانحه سلاسل القيود يرسف بحملها أينما ذهب لذا فإنه يتحاشى الإعلان عن بؤسه بظلم الآخرين من حوله وبارتكاب أشرس الوسائل فيالضعفه وقلة حيلته.

تذكرت بأنني في الغربة لما كنت في إسار أبي أستدرج الدروس التي حفظتها عن قصص النساء العربيات في سالف الزمان، أستعيدها بكل

فخر. النساء الأمريكيات يمتدحن أنفسهن بمزاحمة الرجل في كل شيء بما في ذلك رغباته وميوله إلى درجة السيطرة التي أصبحت نهبًا لهن. بينما نحن نتباهى بتاريخ المرأة العربية في تلك العصور السحيقة، ابتداء من الخنساء في صدر الإسلام وقبلها بلقيس والزباء في العصور البائدة ثم لا حقًا شجرة الدر وغيرها. يتزوجن وينجبن الأطفال شأن بقية النساء في أنحاء المعمورة. تكوينها الأنثوي لم يمنع عنها القيادة في نطاق الحكم والتصرف بصلابة حسب ما تفرض عليهن طبيعة المواقف الحاسمة. كانت الحياة من خلال فتحات التاريخ الماضي محرجة لي ويكفي شعور التجزؤ الذي يتلبسني كفتاة عديمة الركيزة، عديمة الشعور بالزمن. أعيش في عمق الحياة المدنية الحديثة، بينما تفكيري ينطلق إلى متاهات صحاري التاريخ حيث كان البشر يتبعثرون مع مواشيهم في تلك البراري الجرداء إلا من الزمهرير وسعير الحرارة..

إنهم يتسمعون من بعيد زمجرة الوحوش التي تكمن في الكهوف المتداخلة، لا يظهر شررها إلا حين تحدق بالفريسة الغافية المذعورة في ذلك التيه اللانهائي تتراخى الأعضاء وترتجف من نهاية قريبة يخطط لها قدرها الذي يتماهى متساويًا ما بين الحقيقة والواقع !

ومن الذي يصدق بأن الحلم الذي يتوهج داخلي لا يدرك معنى انجذابه بين العصور؟ هذه المسافات التي تتفاعل من مئات السنين لا تقدر بأن تواجه المنطق الأخلاقي. منطق الانتظام في دوائر الكون وشطحات الأزمان فمن لفتاة بائسة وضعيفة مثلي أن تفسر هذا التمرد على واقعها، حتى كدت أنسى ذلك الرجل الذي منحته كل عشقي... وكل هيامي. أعترف بأنني أقصيته من تفكيري أنا التي كنت لا أستطيع الاستيقاظ دون استحضاره بين يدي عندما يحتاجه قلبي . إنها موهبة لا يفوز بها إلا الصادقون في الحب، كما العابدين في محراب الإيمان تتلقف كلماتهم الملائكة لتنقلها إلى الله مباشرة، فطوبى لكافة العشاق

في دنيا الخيال.

وشهقت بصوت مرتفع لأجد طفلي الرضيع يعابث صدري، وكان يبحث عن ثديي ليسكت جوعه.

وهكذا عدت من جديد إلى دنياي التي كدت قبلها أن أضيع في دهاليز من الرؤى التي هاجمتني في بداية المساء فانزلقت معها إلى جحور معتمة لا أدري كيف احتوت تفكيري.

وكان أن استمعت إلى صوت أمي ينادي طالبة مني المشاركة في تناول إفطارنا اليومي، حملت رضيعي مع شقشقة النهار البازغ متورمة العينين. وتنبهت أمي إلى أن ابني يتململ بالبكاء المكتوم بينما هو يرضع مغمض العينين فعلقت:

- انظري ... سبحان الله! إنه يرضع ويبكي في ذات الوقت.

فقلت متساءلة:

- لم يفعل ذلك يا أمي؟

أجابت:

- هو يحلم ... إنما قد يكون بكاؤه من ألم في جوفه... فهل كنت غاضبة قبل أن ترضعيه؟

أجبت بهزة من رأسي فعلقت باشفاق:

- إنه يشرب حزنك. فأوقفي عنه الرضاعة حتى يروق دمك .

فناولته لها قائلة:

- خذيه حتى لا يصرخ... وحاولي إيقاظه من النوم.

وارتج باب المنزل عندما طرقه أحدهم مناديًا:

- سالي

فعلقت أمي:

- وما الذي أتى به في هذا الوقت؟

أجبت:

- إنه بلا عمل وكل وقته فراغ.

وسمعت أختي نداء أبيها فجاءت راكضة.

نهضت والدتي ومضت حتى تضع حجابًا على رأسها.

هي لم تعد تطيق الرجل وأصرت على طلاقها منه لسلاطة لسانه لولا أنه يتردد على المنزل بحجة رؤية ابنته أو مراجعة الدروس معها إلا أنه يحاول المجيء في أثناء الوجبات حتى يشاركنا في الطعام مع أنه لا يحضر معه حتى رغيف خبز لضيق ذات يده. وهو لهذا يأتي راجلاً من مسافات بعيدة مما يجعل أمي تثور بسبب رائحة جسده الكريهة بما يفرزه من عرق. على أن خالي يشتبك معه في نقاش حاد عندما يتصادف حضورهما معًا. ولكون المنزل مازال باسمه فإنه يلمح بأن سعر المنزل في ارتفاع ويمثل بالنسبة له ثروة يحتاجها في وضعه المالي المتدهور. فيرد عليه خالي معنفًا:

- وهل تطرد ابنتك إلى الشارع؟

فيجيب:

- لولا أن امرأتي لا تتحمل معيشتها معنا لأخذتها عندي منذ زمن بعيد.

فتصرخ أمي:

- أنا لا أترك صغيرتي تحت رحمتك الشرسة ولا زوجتك.

فيجيبها بسرعة:

- هي ابنتي مثل ما هي ابنتك وحقنا بها متساو.

وعند هذه النقطة رفعت أختي الصغيرة عقيرتها مولولة فتراكضت أمي نحوها تحتضنها مرددة بجزع:

- اسكتي لن يأخذك أحد مني يا حبيبتي .

وهدأ الموقف بالتدرج في حين تاقت نفسي إلى محادثة تعيد إليّ توازن روحي الموزعة في أكثر من اتجاه؛ فعدوت نحو باب الخروج .

إن مشكلتي الكبرى هي في الذاكرة التي لا تريد الخمود ولا تبتلع

الأشواك المبثوثة في حناياها. حين أستدعي من خلال الذاكرة موقفًا معينًا أجد تفاصيله ماثلة أمامي.

الحياة في نظري مجموعة أحداث تشتبك في الذهن لتكون ثقلاً يصعب التخفف منه.

ورغم حداثة سني نسبيًا فالجهد الذي يبذله ذهني يجعلني أشعر بالشيخوخة المبكرة.

حكايات زميلاتي المبثوثة في منعطفات طفولتي أحسها بذورًا تتغذى من جهد ذاكرتي، البذور تبقى منتعشة مثل حقل أخضر يتناسل من جوانبه العطاء ليضفي سحرًا في دنياي. كانت صديقتي غادة تتحدث كثيرًا عن والدها الشرس الذي يعامل أمها بقسوة فأشعر بالغيرة لأنها أفضل مني بوجود ذلك الأب - الرجل - الذي يحمي طفولتها على الأقل!!

أبي هرب من قسوة الواقع الاجتماعي الذي لا يتيح للمواطن فرصة استغلال موهبته. أمي حدثتني عن تذمر أبي المتواصل. كان حلمه أكبر من واقعه المحدود حتى دفعه للهجرة، وقضى بعيدًا عن وطنه فأعادوه في صندوق خشبي إلى المقبرة مباشرة ولولا أنه ثري لما نفذوا وصيته.

جلست أبكي طفولتي ويتمي من جديد وكأنما حدثت جراحاتها بالأمس القريب...

هي من صفعات حياتنا وليس أكثر من ذلك ...

تراكمات أحزان لا تبرح ذاكرتنا المنهوكة.نحن قليلاً ما نضحك. وإذا ما ارتفعت ضحكاتنا سمعنا من يقمعها مؤنبًا لأن الضحك مخيف ولا يليق بنا. أما الحزن فموطنه قلوبنا...

الحب نتبادله على استحياء ولا يتربى بيننا كنبتة سليمة، إنما يعيش معاقًا ويلتحف بالظلام والأزقة الجانبية.

كانت تفسيرات أمي الجاهزة تثير الكثير من الغمامات الدهماء من

أمامي مثل قناعٍ ترتديه بعض الأيام يحتاج من ينزعه أو يؤوله. وكنت أرتاح لتلك التفسيرات فأفهم منها ما يواجهني، حتى أنني حسدتها على هذه الميزة أو البراعة.

(12)

تطاولات الليل المتشعب تصيبني بالإرهاق الذي بلغ عروقي، لم أعد تلك المرأة اليافعة بعد أن أخذ يمتص رضيعي ذلك الثدي الناضر حتى كاد يتكلس. تشق أنفاسي أثواب صدري الذي يخفق بالالتياع حتى لم أعد أحصى انجرافات التثاؤب. سيقاني لم تعد تعرف الهمود، إنها تدق الأرض، وجسدي يتمايل بإيقاع الأنغام، والعرق ينسكب بين ثنايا أعضائي. والرجل مازال يشكو إهمالي له وعدم الانصياع لشهواته، بينما مراقبتي له تزداد خشية. إنه مستسلم إلى مقدار العذاب الذي تفحه الأجساد اللدنة وهي تتمايل بإغراءاتها المثيرة. فكرت بأن أطلق إساره لفترة من الوقت، إنما من الذي يضمن لي عودته وعدم وقوعه في الحبائل وشباك الفتنة والإغواء؟ كانت أمي تحذرني من جدار الأحجاف. ذلك السد الذي يطاول أحجار مأرب سماكة. هي خائفة من غضبة ذلك الكهل الصموت.

إنه يعشقني بلا ريب. إنما البرودة لدي تثير استغرابه، ولهذا كان يجافيني لهذا السبب ويلمح أنه سوف يبحث عن المتعة في نساء أخريات، مع علمه بأنني كثيرة الوساوس مشتعلة الغيرة وأخشى أن أرتكب حماقة كبيرة فيما لو رأيته يتقرب من أية امرأة أخرى حتى أنني لم أكن أرغب أن يتحدث مع أمي إلا في حضوري شأن أية امرأة ولو كانت من قريباتي. وهكذا كانت تفعل معي الغيرة. تجعلني أستشيط وأفقد اتزاني، فكيف أعالج هذه الصفة في ذاتي؟ إنه يشتهيني في أي وضع أو وقت. جسدي يشعل غريزته وشهوته الجنسية. يلامس أجزائي

بشغف ويجد متعة في تحسسها وفي معانقتي وكأنما يخشى أن يفقدها معلقًا: جسدك من حرير... أملس مثل الجوخ الثمين. فاكهة ناضجة تنتظر القطاف. فأدفعه عني بدلال ضاحكة:

- إن أكثرت من تناول أي فاكهة فسوف تمل من تذوقها.

فيصيح محتجًا: إلا أنت ... يستحيل أن أشبع منها. هي الإكسير الذي يعيد إلي متعة الوجود. وسوف أكون مستعدًا للإضراب عن تناول أي غذاء ماعدا التزود بهذا العطاء المخصص لي. إنه حصيلة العمر الذي ما ظفرت بغيره.

فأوقف تدفق ثرثرته قائلة: لا تكن نهمًا... ثم تنصرف عني.

فيصعد آهة حارة ليجيب: لا تعرفين الحريق الذي يشتعل في داخلي عندما أتذكر انسلاخ الأيام وتعاقبها الجاف بدون قطاف.

وحتى لا أثير شهوته بمثل هذا الحوار أنفلت من أمامه معتذرة بأي انشغال وأنا أفكر بهذا التعارض في طبائعنا، فلماذا تشبثت بي هذه القناعة ولم أكن مثل غيري من النساء في الإقبال على متعة الجسد؟ أليست هي من قبيل الحاجة إلى إرضاء ميل داخلي في تكويننا؟ بل ألا يعني الهرب منها حدوث قصور أو تصدع من نوع ما في هذا التكوين الخلقي... يرفض مثل هذا الارتواء؟ وهنا تساءلت بإلحاف: هل على أن أستشير طبيبًا في أسباب مثل هذه الحالة؟ فأجبت نفسي: ليست الحالة تقتضي مثل هذه المبادرة، إنما هي مجرد تصورات على أن أتغلب عليها بإخضاع جسدي للممارسة، فهي وحدها القادرة على مسح جوانبها السلبية. لسبب ما استمعت إلى نداء داخلي يدعوني إلى الانحياز نحو ذلك الشاب الوسيم (شلتفيس). إن فيه من الوداعة ما يجعلني أشعر نحوه بعدوى الاطمئنان. عذوبة صوته تشي بعالم يستغرق كل همومه. فرغم صغر سنه فقد كان يزن خطواته حتى لو تقمص شخصية الهدهد.

ربما هذا الشاب من نسيج جنية فقد تواصل معي وأدرك جنوحي

إلى الحيرة وهو ما دفعه إلى سرعة التقرب مني إذ لم يلبث وأن تلامس معي دون أن يشعر أحد بل همس لي قائلاً: تعالي معي فالملكة سوف تفتقدك مع حلول الظلام. فلم أشعر إلا ونحن نمتطي الأفق بعد أن أفرد جناحيه وأخذ يصفق بهما دليل الصفاء والمتعة. على أنني حين رأيته يلتصق بي ويحاول معانقتي أمام خلق الله، دفعته عني باحتجاج وفردت جناحي بعيدًا عنه. وسمعت قهقهته تتجلجل في الأفق معلقًا:

- احذري من غضبي حتى لا أشكوك إلى الآلهة فتفقدي ميزة التجول والطيران.

فأجبته:

- إن مكانتي لدى الملكة تمنع أي أذى يحدث لي منك أو من غيرك فاعرف نفسك جيدًا.

فصرخ محتدًا:

- لدي لك تيمة تجعلك تتمتعين بكامل قدراتك الجنسية ولكن لن أبوح بها لك مالم تذعني لإرادتي. وكأنما قد استنبط توتر علاقتي بزوجي فأراد أن يرتق تلك الفجوة باستدراجي إليه. بل إنه انتزع قنينة كانت مخفية في طيات ملابسه ورفعها بفخر قائلاً: ها هو العلاج في حوزتي فاختاري ما يروق لك، الاستسلام لي أو التمرغ بين أحضان ذلك الرجل الذي تتهربين من استحواذه عليك. أنا أميل إلى الجميلات من النساء يا عطر، أنحاز لهن مهما كانت ملكاتهن، فالفتنة تصعقني أنا العاشق للحسناوات.

توعدته قائلة:

- ياشلتفيس أذكرك بأن زوجي شديد التأثر. يستشيط غضبًا إن علم بتحرشك بي. ولست ألومه إن قتلك.

فتداعت ضحكتة في الأفق معلقًا بسخرية:

- لا يستطيع إنسي أن ينال ولو ظفرًا من جسدي الناري. أنا مبعوث

الآلهة لحراسة الملوك والسلاطين وأسلحتي لا شبيه لها في دنياكم.

أجبته بترفع:

- أنت مغرور يا شلتفيس وإن كنت أميل إليك.

قال:

- أعرف... كل النساء بما فيها مليكتك تريد الاستحواذ علي، لولا أنني لا أملك حريتي كاملة، إنما أنا لكافة الأقوياء !

واقترب مني حتى حاول احتضانى: ما رأيك بأن نسرق نوبة عشق؟

حاولت مهادنته وقد أدركت سطوته:

- اتركنى أرجوك. ليس الآن بالوقت المناسب.

وفجأة افتقدت أثره ما بين ركام الغيوم... وأعترف بأنني ذعرت خوفًا عليه من ضرر حل به، فناديته بأعلى صوتي لولا أنه اختفى... فبكيت من أجله بصوت مرتفع. إنه عشقي الآخر... عشق اليقظة من سبات اللذة. فقد تعودنا من بلقيس الحالة الوجدانية التي تعني هجران الجنس وإن استدنت العسل حتى يحفز مشاعر الرغبة الثاوية، لتعود امرأة سوية تلتهب بتفاعلات الشهوة نحو الرجل. المرأة مقدودة جسديًا بالوصال مهما كابرت. النعومة تسري في أعطافها والمناوشة الغرامية جزء من تكوينها. ومخادعة من تريق مشاعرها لعواصف الخيال وجموح الغرور .

ألقيت نظرة من ذلك الارتفاع الشاهق على الأودية الخضراء وقد تناثرت في أرجائها الحيوانات المختلفة. فهذه الغزلان المذعورة تسترق السمع من آذانها المشرعة إلى الزمجرة التي تصدرها حناجر الحيوانات المفترسة. إنني أحب المها النافرة ليس لكون أجسادها رشيقة ناعمة وإنما لفطنتها والحرص على سلامتها فهي سريعة الهروب من شباك الموت، ولهذا تدرأ الخطر عن نفسها الذي عرفته جميعًا الأودية الخضراء في سهول اليمن متعة للنظر لالتفاف الأشجار الضخمة على بعضها مكونة غابة للحياة العذبة. وخرير المياه السلسبيل المنحدرة من

الجبال الشاهقة تكون سمفونية رفيعة المستوى في شلالات تخترق المساحات الخضراء حتى مصبها في الوديان الواسعة. كانت بلقيس تشير في أحاديثها إلى ما تتمتع به أرض مملكتها من ثروات حباها الخالق بلا حدود. وهي لهذا سعيدة بهذه الصفة الفريدة.

ووجدتني أنظر إلى أكاليل الجبال وقد تلفعت بذلك الغطاء الثلجي يلمع تحت أشعة الشمس التي تهرب من وشوشة الغيوم وهي تختفي بنماذجها الهاربة من البقع الداكنة.

كان الربيع يتسلق فروع الأشجار ويمنحها ذلك الصفاء اللوني على كافة الأغصان وقد ألبسها غدائرها ذلك المهرجان من ألوان الورود. وحبست دقات قلبي حتى لا تفقد شذا العطور التي تتناثر في تلك الأرجاء ومضيت أستنشق العبير الفواح وأخبئ لهفتي إلى لقيا من سوف يكون نصيبي هذه الليلة !

***

كانت بلقيس واقفة هناك في مواجهة كوة الغروب. تتضرع والدموع تتهمر من عينيها. فالشمس التي تعبدها استسلمت لموجات الغيوم المتدفقة من عدة أنحاء، تندفع في غليان رمادي ثم تذوب في انكسارات البروق، بينما الرعد يجلجل في دمدمة تتناهي في أكثر من موقع حتى انهمرت الأمطار التي تخللها برد أبيض يلتمع من بين العاصفة، وجثت ملكتنا ونحن من ورائها ثم مرغت وجهها الجميل في خشوع روحي جعل جسدها ينتفض إلى أن سمعت من بعيد ابتهالات تتصاعد في جوانب عدة من المدينة التي توشك أن تغفو مع انثيال نثار الغسق الموحش بالمغيب في الغلالات القزحية.

نهضت من جديد ومضت إلى صومعتها من خلف ستار يفصلها عن بقية القاعة الواسعة. كنا نعرف بأن تلك الصومعة تتكئ على عدة مرايا تستدعي الشمس عند مشرقها حتى تؤدي الملكة ابتهالاتها منفردة. وكان

(شلتفيس) وأمه جيهارة لا يبتعدان عن مدخل الصومعة في انتظار تعليمات الملكة عند أي طارئ. ولهذا تشي نظراتهما بالقلق والتوتر. يذرعان المكان بتوجس وهيبة. سحبته إلى جانبي بلطف فاستسلم ولم يهمل تقبيلي في غفلة من أمه. وبقينا هكذا صامتين إلى أن سمعنا نداء الملكة تستدعيه. فانتفض مثل البرق فإذا به داخل الصومعة بينما شملتني أمه بابتسامة كبيرة وأرسلت لي قبلة من بين أصابعها المزدانة بالخواتم الثمينة. وبقيت جالسة في موقعي أحتسي القهوة المعبأة بالهيل والزعفران على مهل إلى أن أطلّت الملكة مبتسمة ومن خلفها شلتفيس يحمل أطراف ثوبها المحلى بالجواهر والديباج. نهضنا احترامًا لمقدمها حتى اقتعدت حشيتها الدمقسية ذات الأطراف الموشاة بالجواهر وصفقت بيدها لدعوة الجواري اللاتي أسرعن وهن يحملن دوارق النبيذ وصحاف الفاكهة الذهبية. وأشارت إلى شلتفيس بأن يشنف الأسماع بقصائد البوح والمناجاة. وفجأة شاهدنا الهدهد يقتحم الكوة الذهبية ويتقدم من الملكة حاملاً في منقاره رسالة، أدركنا أنها من الملك سليمان الذي كنا نعلم بأنه يرغب في مواصلة الاتصال مع الملكة ويستحثها على زيارته بعد أن شاع عشقه وهيامه بها. والغريب أنها لم تفض الرسالة وإنما اكتفت بأن ربتت على جناحي الطائر ففهم أنها لا تود أن يحمل منها أية إجابة في ذلك الحين. عندها انبرى الطائر قائلاً بصوت خفيف: هل تأذن مولاتي بإبلاغها رسالة شفهية من النبي سليمان؟

أجابت:

- ليس في مجلسي من أخفي عليه أسرار مملكتي. فقل فحوى الرسالة.

عند ذاك أوضح:

- إن سيدي يطلب من مولاتي إغلاق كوة المحراب الشرقي لأنها من بقايا الجاهلية بعد عبادتك لله خالق كل شيء.

فردت وهي تحني رأسًا:

- أبلغ الملك سليمان بأنني سوف أمتثل لمشورته بإغلاق كوة ذلك المحراب.

وهنا انحنى الطائر وقبل قدمي الملكة، واستأذن في الانصراف. فقالت:

اذهب ... تحرسك الآلهة وبلغ سلامي للنبي سليمان مع حبي له.

(13)

أصبت بكارثة غير متوقعة عندما فقدت أمي. كانت المسكينة بعد أن طردنا طليقها الثاني والد أختي سالي من المنزل عقب أن باعه إلى أحد المستثمرين بسعر أغراه في استغلاله لكونه يعاني من أوضاعه المالية المتردية شعرت بصدمة عنيفة فجعلتنا نلتجئ إلى شقيقها خالي الذي أخذ يعاملنا بنوع من القسوة لاسيما أن شقيقتي كانت تشتبك مع ابنته في عراك شبه يومي مما كان يؤدي إلى شجار متواصل بين الأطفال سرعان ما ينتقل إلى الكبار، وكان بطبيعة الحال ينحاز إلى زوجته وابنته ويحمل أختي ثم أمي كامل مسئولية النتائج وتأزم، العلاقة التي أدت إلى عدم الاستقرار والارتياح في منزله. وبما أن أمي كانت تشكو من ضعف في قلبها بين الحين والآخر فإن تلك المصائب أدت إلى تفاقم المرض مما أحالها إلى أزمة قلبية لم تستطع مواجهتها فلفظت أنفاسها بسرعة غير متوقعة مما جعلني أنتقل مع طفلي وأختي للسكن لدى صديقتي نادية التي كان زوجها كثير الغياب والسفر خارج المدينة لاحترافه مهنة المحاماة وملاحقة عملائه.

لقد ارتبك مجرى حياتي رأسًا على عقب. فأصبح طفلي دائم الالتصاق بي لما فقد حنان جدته التي كانت تمحضه حبًا جارفًا لكونها لم ترزق بذكور. كما أنه كثير البكاء لوجود أطفال صديقتي الذين يكبرونه في السن ويخشى من إيذائهم له. فهو يبكي إذا جاع وإذا عطش

وإذا تبول وإذا تعب وأراد النوم وإذا تضايق من تركه وحيدًا وإذا مل الجلوس، وإذا أرتفع صوت التلفزيون أو بكى أحد الأطفال... إلخ، ولهذا فأنا أغافله حتى أغادر المنزل لابتياع ما أحتاجه مع أن شقيقتي سالي كانت تعنى به وتحاول إرضاءه وتسليته. وقد تغيبت عن مجالس الملكة كثيرًا. ولم أشجع زوجي في الحضور رغم شوقي إليه وحاجتي إلى ملازمته لعله يلتصق بطفله ويعتاد عليه. لذا يمطرني بتساؤلاته عبر الهاتف المتنقل وأكرر عليه إرسال مصاريفنا التي أخذت في التزايد. ولعل طفلي أول من شعر بفداحة غياب جدته فهو يتململ بالضجر من فقدانها ولا يعبر عن شعوره بالاستياء والفقد عن اختفائها سوى بالبكاء. وقد وجدت بعض العزاء في التقرب من ذلك الشاب شلتفيس رغم مطامعه التي لا يخفيها في الظفر بالمتعة من جسدي الذي لا يميل إلى علاقات اللذة والشبق. كما أخذت في الانكباب على القراءة ومداومة التردد على المكتبات التي كان يشجعني عليها زوجي. أما هواية الرقص فقد اكتفيت بممارستها تحت أنظار مليكتي بلقيس ولم أعد أزور أماكن اللهو إلا لمامًا هربًا من العيون التي تطاردني وتتربص بي وهي ضريبة كل فتاة جميلة في مجتمعنا البوهيمي الذي لا يرى في المرأة سوى وسيلة المتعة وإضفاء التحرر على تفكيره المنغلق .

وكم سئمت من هذا الواقع الذي أغلق كافة نوافذ التعبير الحرة في أن يمارس الإنسان هوايات تريحه من الضغوط الداخلية في ذاته. فكان أن اعتزمت الاشتراك في إحدى أندية السباحة التي أجيدها لعلي بذلك أتمكن من تفريغ الشحنات العاطفية التي تثقل على قلبي وتفكيري. وطرأ على ذهني العودة إلى مدينتي الصغيرة في أواسط البلاد لعل التغيير يؤدي إلى تخفيف السأم الذي أعاني من أشواكه وذلك يعني أن أقيم لدى خالي الأكبر الذي لديه أسرة ينوء في معيشتها وتلبية احتياجاتها لأن دخله محدود للوظيفة المتواضعة التي يشغلها. وتساءلت

هل أعثر على عمل لي يبعد عني هذه الكآبة التي تكاد أن تتلبسني وأخفف بذلك من اعتمادي على ما ينفحني به زوجي. وتذكرت بأنني حاولت ذات مرة بأن أعتمد على نفسي في تدبير مصروفاتي إنما كانت تجربتي فاشلة ذلك أنني قوبلت بالمساومة والرضوخ لما يريدون تكليفي به من أعمال لا تليق بالمرأة التي تحترم أنوثتها. كانوا يريدون استغلال جمالي في الترويج السياحي الذي يعني بأن أكون ألعوبة في أيدي السواح لا سيما العرب منهم حتى أنحدر من الوظيفة إلى الدعارة... نعم الدعارة بعرض مفاتني وجسدي بين أيديهم يتمتعون به متى شاءوا. وهكذا أقفلت هذا المسعى رغم أن تخصصي في الدراسة هو السياحة بكل أسف. فالسياحة في بلادنا تقوم على الجنس والرذيلة.

بدا لي بأن العبث قد يكون مصير الكثير من الكائنات التي تعيش على الأرض. تفتقد الهدف فانساقت إلى الضياع. فهل لم يعد للعلم من معنى في حياتنا؟ ألن نجد ما نشغل به أنفسنا سوى الهوابط والانزلاق. نتربص حتى نجد التبرير لمثل ذلك الضياع. هل الجنس وحده الذي يتقافز إلى أذهاننا. اصطياد اللذة واحتراف العبث؟

في المحيط الآخر، في تلك العوالم التي تحجبنا عنها تراكمات الأجيال. هناك مشاعل الأنبياء والفلاسفة. أضاءوا عقول المعرفة من الداخل. من الأعماق حتى ترتوي وتعي أنها مطالبة بالفطنة والانتباه إلى ما يحيط بها، وما تفرزه من معطيات تحفز على التفكير والإنتاج. وجاءني شلتفيس يذوب رقة وتقربًا فكشرت في وجهه، وحسب أنني أطرده من مجلسي فوقف حائرًا لا يدري ماذا يفعل. فصرخت فيه قائلة:

- أنت الليل الذي لن ينجلي عن ضياء.

فاعتقد بأنني أطارحه الغرام ... فرد قائلاً:

- سأكون سراجك المنير يا عطر رغم انشغالي بأموري الكثيرة.

أجبت:

- دعك مني ... واتركني لهمومي .

فعلق:

- سأكون رهن إشارتك شريطة أن..

قاطعته:

- أعرف شروطك ... ولكني أرفضها .

قال باستعطاف:

- ليلة واحدة تكفيني منك. وسوف آتيك بالعسل .

أجبت غاضبة:

- لم أطلب منك إحضار أي شيء ... فدعك مما تحلم به

فتساءل:

- ألن تسمحي لي ولو بمطارحة ليلة واحدة.

صرخت فيه:

- ألا تراني في قمة التخبط والحيرة؟ يتيمة ومسحوقة

أجاب بتوسل:

- لا تقولي هذا فأنا إلى جانبك واصدقي الظن بي.

قلت بصراحة:

- لا يعتمد عليك مادمت تلاحقني بحثًا عن اللذة الجنسية .

فتساءل:

- وهل هناك ما هو أروع منها. أليس الجمال للاستمتاع؟ ألم تسمعي عن مطارحات سليمان وبلقيس الغرامية وهما كما تعرفين في هرم القيادة .

قلت:

- لا شأن لك بالكبار وأنت الصعلوك الحقير .

فرد قائلاً:

- أعرف مقامي ... وهم لا يستغنون عني في المهمات الصعبة .

obeikandl.com

ثم توقف عن الكلام فجأة ليضيف:

- ها هم يستدعونني، (واختفى فجأة من أمامي)

ووجدت نفسي أعود إلى وضعي وإلى ذكرى تلك المرأة المسكينة التي ذهبت في غمضة عين؛ لأنها كانت تعيش المأساة وتدفنها في أعماقها. كانت أمي المرأة الطيبة كما وصفها زوجي، مثال السيدة التي تحرص على توفير أسباب الراحة والسعادة لمن حولها دون أن تفطن إلى التأثيرات الجانبية التي تدفعها لقاء ذلك الموقف.

كانت عواطفها نبيلة نحو إخوانها القساة الذين عاملوها من خلال ما ينالون من مصلحة ذاتية في التقرب إليها. فكانوا يرمون عليها بثقلهم عندما يحتاجون إليها مثل أن تؤويهم وأطفالهم عندما يفتقدون النزل المريح والطعام اللذيذ أو أن يكلفوها بأعمال تعود عليهم بالمصلحة الشخصية، وبعد ذلك لا تسمع منهم كلمة ثناء بل يتعامون عن كل ما يعود عليها بالفائدة. هي المرأة الوحيدة التي تواجه مشكلات لا حصر لها من طلقائها الذين تجاهلوا حاجتها إلى بعض النفقات. نفقات بناتهم لديها فدفعوها إلى أن تحتال في مد يدها صاغرة حتى تواجه متطلبات حياتها القاسية من تعليم ونفقات تبذلها لأولئك الأطفال الذين لا يفقهون ما يدور حولهم. لهذا فإن أمي ارتاحت لتعرفي إلى ذلك الرجل الخليجي واستئناسي به حتى يرفع عنها بعض تبعاتي الشخصية لاسيما وكنت ابنتها المدللة التي تواجه إغراءات متنوعة حتى أقع فريسة أولئك الذين يصطادون في الماء العكر في مواجهة احتياجات الفتيات إلى الملابس الحديثة الجميلة، وابتياع أصناف من أدوات الزينة وخلافها مما تعج به أسواقنا التي تستورده من أوربا، لاسيما في عهد السادات الذي فتح أسواق الاستيراد على مصراعيها لكل ما هو مغر وحديث. فكان عهده عهد رخاء ظاهري وفساد داخلي، دفع ثمنه الفقراء والطبقات المتوسطة.

نمت لدي محبة جديدة نحو الماء. أصبحت أتابع السباحة يوميًا

وأبقى في الماء أطول فترة ممكنة . وفي أماكن السباحة تعرفت إلى فتاة سعودية جذابة كان اسمها شمس جاءت للاصطياف لأول مرة وقد وجدت فيها فتاة متزنة، إذ رغم أن سنها لا يزيد عن الثانية والعشرين فهي تتحدث كسيدة مجربة، وقد أخبرتني أنها تحترف التدريس وتعطي محاضرات للفتيات طبعًا في الجامعة، وتخصصها علم نفس إنما الذي استغربته أنها كثيرة الخوف إلى درجة لافتة للنظر وخاصة من الرجال. وفهمت منها أنها الفتاة الوحيدة لدى أسرتها ولهذا تحظى برعاية كبيرة، إذ كانت في دراستها متفوقة على أقرانها ونالت درجات عالية عند التخرج واعترفت لي أنها مضربة عن الزواج ولا تفكر بتكوين أسرة مستقلة لها؛ لأن مثل هذه المسؤولية سوف تصرفها عن تحقيق طموحاتها الأدبية التي تتركز على كتابة الروايات إذ إنها ربما تبحث عن الشهرة ودخول ذلك الميدان .

فتذكرت بأن زوجي جابر له مثل هذه الميول فلما أخبرتها فرحت معلقة بأنها لابد وأن تتعرف عليه وتناقشه في أمور الكتابة وهو ما جعلني مسرورة وإن كان وازع الغيرة تنبه إلى الخوف عليه من هذه الفتاة حتى لا تسرقه مني لتحدث كارثة سوف تؤدي إلى إسالة الدماء فيما لو تم أي تقارب بينهما وهي مؤهلة جمالاً وثقافة إلى مثل هذا التقارب.

صديقتي الجديدة حين عرفت اهتمامي بعالم بلقيس قالت بنوع من السخرية: هل تعتقدين حقًا بأن الهدهد هو الذي حمل عرش بلقيس وأحضره إلى النبي سليمان؟ فلما استغربت منها أضافت: هل هو عرش من ريش أم من الذهب والعاج والجواهر؟ إذًا كيف لهذا الجنى أن استطاع حمله؟ أتصور أنه استأجر عدة أفيال لنقله من مكانه في طريق اليمن إلى بلاد تدمر. قولي بذمتك هل الأساطير تصدق دون اقتناع؟ أو لابد للعقل من أن يتحكم؟ ومنذ ذلك الحين زادت محبتي لشمس لأنها أطلقت في - اعتقادي - سؤالاً لم يخطر على بال أحد قبلها. فخشيت

عليها من تتالي الأسئلة لأنها قد تفضي بها إلى الشرك. فقلت لها:

- ما رأيك بالأسطورة التي تقول بأن الملك سليمان مات واقفًا؟

فزجرتني معلقة: لا أريد التحدث عن سيرة الأنبياء لأن علاقتهم بالرب مباشرة وهو أعلم بأحوالهم، فكفي عن هذا التفكير.

احترمت هذا الرأي من فتاة متعلمة أدركت أنها ناضجة وأسئلتها متوازنة لولا أن موقفها من الرجال ما زال يثير حيرتي، فتصورت أنها ربما مرت بتجربة حب فاشلة أورثتها هذه العقدة، فأضمرت أنني سوف أناقشها في وقت لاحق ثم سمعتها تتمتم (أسخف ما في لعبة الحياة هو نهايتها الموت) .

فتذكرت أسرتي التي غابت عن الوجود... أمي وأبي ... وربما قريبًا أخوالي وحتى جابر فكدت أبكي عندما تصورت فقدي له، ولم يبق لي من أستند عليه سوى هذا الطفل الصغير ابني أحمد، حينها قررت أن أودع تلك الجميلة وهي تمسد جسدها المتناسق ناظرة إلى الماء بشغف فقلت في نفسي: سوف يعشق جسدها جابر... إنها من وطنه، سوف تسرقه مني. هذه الهيفاء الجميلة. سوف تسرقه مني ولكني لن أسمح لها. سوف أقاتل حتى النهاية ولن أستسلم.

نظرت إليها من جديد متمرغة بالماء وكأنما أراها لأول مرة... هذا الجسد الناعم الباذخ في ترفعه ... عاجي المظهر... تقاطيعه فاتنة. هي تلوذ عن قهرها الداخلي بالابتسامات المثيرة توزعها دون تركيز، جسدها الممشوق يحوي ثورة مكبوتة فتطوح بيدها حتى تتخلص من ضغطها الذاتي، ماذا سوف يفعل جابر عندما يرى هذه المهرة الناعمة؟ شعرها القصير ربطته تاجًا فوق رأسها بينما العينان اللوزيتان تمسحان صفحة الماء بتكبر وكأنما تحتقر ذلك المسبح الصغير وتفكر بمحيط أكبر... ذلك المدى الواسع الذي لا نهاية له. إنني - في دخليتي - لا أرتاح كثيرًا إلى شغف الرجل بجسد المرأة إلى درجة العبادة؛ لأنهم يركزون بأن الأنثى من

متع الحياة لا غنى عنها.

هكذا هم الرجال منذ الخليقة أيام آدم وحواء وسلالتهم مرورًا بكافة الرسل والملوك والعامة بينما المرأة لا تتحاز إلى طلب اللذة كثيرًا وإن أحبت الإنجاب لدوافع الأمومة وتكوين الأسرة. ولهذا أخشى على علاقتي بزوجي وحبيبي جابر من أن تنفصم أو يطالها الشقاق والتراخي رغم وجود طفل من المفروض أن يزيد في تلاحمنا لولا أن جابرًا لا يحفل بالأبناء لأنه يملك العديد منهم من زوجاته السابقات وهو ما جعله يهرب إلى ويندفع في عشقي، للتمتع بجسدي الفاتن بالدرجة الأولى اعترف بأن شمس لا تقل جاذبية عني بيد أنها لم تعرف هيامي بجابر وما شدني إليه من النظرة الأولى. بصورة أذهلتني ودفعت الدهشة إلى من يعرفونني وهي حالة مثيرة ولا شك لا أفهم لها تفسيرًا أو تحليلاً مثل الكثير من أمور حياتنا وعلاقتنا الغريبة والتي نحار في إدراك خباياها النفسية والعقلية. فهل نحن النساء مجرد حلية في جسد الدنيا؟ أو هذا قدرنا؟ لا أدري إنما مزاحمة امرأة لي في الظفر بعشقي لن أذعن له أو أتغاضى عن النيل منه؛ لأنه يمثل ركيزة وجودي وكافة طموحاتي المستقبلية. ولهذا بدوت متشائمة من الوضع الذي أكاد أزج نفسي إليه مع أنني لا أخشى المغامرة وربما أرتاح إلى مصارعتها حتى أثبت قدرتي في تجاوز الصعوبات التي مارستها الحياة ضدي في مواقف كثيرة. فكان أن حددنا موعدًا نجتمع فيه سوية ولم نجد أفضل من وجبة غذاء في مكان لائق. وهكذا تم.

جلست بينهما أراقب الموقف بحذر. بدت الفتاة شديدة الخجل تحاول ألا يركز زوجي على عينيها نظراته الطائشة في حين بدا هو شديد الزهو بنفسه وباجتماعه إلى فتاة من بلده فدار الحديث بينهما في أمور ثقافية أجهل الكثير عنها لاسيما بعد أن طرحت أسماء أجنبية وعربية لاشك أنها لكتاب لا أعرف عنهم شيئًا أو أقرأ لهم، ورغم أنني حاولت أن

أوجه دفة الحديث إلى مواضيع قريبة من فهمي واهتماماتي تتعلق بالموديلات والتسوق فإنهما لا يلبثان وأن يعودا إلي ما يشغل فكرهما سويًا في تلك المجالات المقفلة بالنسبة إلى . وقد أراحتني الفتاة حين أعلنت بأنها مضطرة للمغادرة لارتباطها مع أسرتها بالذهاب إلى أماكن سياحية. ورغم أن جابرًا حاول أن يتشبث بها ويغريها بالبقاء إلا أنه فشل بأن يثنيها عن ذلك العزم وإن أصر فيما بعد على أن نقوم بتوصيلها إلى مكان إقامتها. وهذا ما حدث على أنني لم أتردد في أن أعلن له لاحقًا ونحن نركب سيارة أجرة عن سخطي لتمسكه بالأحاديث معها واعتراضي على أسلوبه الذي يثير اشمئزازي. فضحك معلقًا: كنت أعرف أن هذا سوف يحدث منذ رأيت الشرر يتطاير من عينيك وأنت تتابعين نقاشنا في أمور ليست مثار اهتمامك. فاعترضت ساخطة:

- مادمت تعرف أن هذا مما يثيرني، فلماذا تتشبث به؟

فأجاب ببرود ساخرًا:

- أتريدينني أن أتحدث معها في آخر الأزياء أم صرعات النساء .

عقبت بانفعال:

- إنها امرأة وحقي بالحديث معها أكثر منك.

رد قائلاً:

- هي من فئة المتعلمين واهتماماتنا مشتركة يا زوجتي العزيزة .

أجبت بانفعال:

- لن أدعك معها مرة أخرى.

رد ببرود:

- وإن هي طلبتني؟

صرخت:

- حينها سوف أمزق ثيابي ولن تراني مرة أخرى... هل تفهم !

فتراجع عن التمادي معلقًا:

- أنت فضيحة يا زوجتي المتخلفة .

رفعت يدي غاضبة:

- توقف ... أريد النزول الآن .

فضحك بصوت مرتفع:

- وصلنا إلى حافة الجنون. فالأفضل أن نسكت.

وانخرطت في البكاء رغم أن البكاء ليس من عادتي إنما حدة الموقف أججت انفعالي. واعتزمت أن أختفي من عالمه لبضعة أيام حتى يعود إلى رشده ويعرف مكانتي التي لا أرضى بأن تحتلها في نفسه أية امرأة في العالم، أنا العاشقة له.

(14)

تنبهت ملكتا إلى أنني لست على ما يرام وعلى طبيعتي المعتادة من ملاحظتها الذكية لسلوكي الذي بدا غير معتاد بسبب انزوائي وعدم المشاركة في نشاط حاشيتها. لذا فقد استدعتني وأخذت تستفسر مني بهدوء. صارحتها بما يؤلمني من زوجي الذي أشعر بأنه يقترب من خيانتي بالانجذاب إلى فتاة أخرى. تبسمت الملكة معلقة: أنت كثيرة الشكوك يا عطر. اعترفت لها بهزة من رأسي .

فمضت قائلة: أنصحك بالعناية بنفسك وعدم التركيز على سلوك الرجال لأنهم في معظم الأحيان يميلون إلى التلاعب بعواطف النساء فهم لا يملون من النظر إلى مفاتن النساء ومحاولة تجديدها ما أمكنهم ذلك، بينما نحن لا نشعر بالفرق الجسدي، إنما تشدنا العاطفة فنرتمي في أحضانهم: الوهم لديهم بأن عطاء الأجساد يختلف من امرأة إلى أخرى رغم أن اللذة واحدة، والشبق ينتهي عند تلك الارتعاشات السريعة. أتحدث معك بصراحة أنني واجهت مثل هذه المواقف وتغلبت عليها في مشكلات بعض رعيتي من النساء مع أزواجهن. كل رجل يتصور

نفسه وحيد زمانه في الفتوة وبلوغ مكانة من الفحولة لا يدانيه فيها مثيل، ولهذا يتباهى في هذا الوهم، ويعذب نساءه بالمراوغة وارتشاف ما مللن من تكراره. ونصيحتي لك حتى تشعريه بقوة صلابتك وتجاهلك له فترة من الزمن حاولي الابتعاد عن طريقه أو الاختفاء من عالمه وسوف تجدينه يترامح بحثًا عنك، وإن فشل سيشعر أنه يحتاجك بكل جوارحه ولن ينظر إلى سواك. وعندما أبديت خوفي من أن تحتل الأخرى قلبه نيابة عني طمأنتني بأن ذلك بعيد الحدوث في فترة زمنية قصيرة هي كافية بأن يعود إلى عقله ويدرك خطأه إلى درجة الندم والإذعان لإرادتك. انحنيت وأنا ألثم قدمي مليكتي شاكرة لها هذه النصائح والوقت الذي أمضته في التفكير بمشكلتي حتى بدا أنها سعيدة بتأثير نصائحها نحوي. فأخذتني بين كفيها وقبلتني بكل الحب ثم دست بين يدي كيسًا من الجواهر معلقة: أنت تستحقين كل خير يا عطر... وأرى أن تذهبي مع إحدى القوافل إلى بعض الدول المجاورة فتشتغلين بالتجارة في صناعة العطور. أحضري ما تستطيعين من الكمية التي تقدرين عليها وسوف تباع بأرباح مضاعفة. فشكرتها وأنا أفكر بهذه النصيحة المجانية والهبة المالية التي سوف تدخل السرور أيضًا إلى قلب زوجي وتسعفه في مواجهة ظروفه المادية الصعبة.

مضيت إلى جابر على جناحي السرعة إذ وجدته يعاقر الخمر بمفرده كعادته في الغالب وعلى رأسه تمور غابة الدخان من كثرة ما سحق من السجائر. ابتسم حين رآني وأبدى شوقه لافتقاده لي في الفترة الماضية بل إنه تناول يدي وأخذ يمسّد عليها بوله ثم أخذ يطبع على شفتي قبلات حارة، بينما كنت مستسلمة له وقد استعدت ثقتي به واستحالة أن ينصرف عني بتأثير امرأة أخرى. كانت العبارات التي ينتقيها في مخاطبتي تميل إلى المناجاة العاطفية والأسلوب الذي يسمونه رومانسيًا مما جعلني أثق بأنه يخطط لأن أقضي الليلة بين أحضانه

متمتعًا بجسدي الذي يعشقه. وهو ما يعني بأن أرتدي الملابس الشفافة التي تكشف عن مفاتني وأضيف بعض المساحيق على وجهي وأبالغ في نثر كمية من الأطياب المثيرة. اقترحت عليه بأن نطلب عشاءنا من أحد المطاعم بل وأن يتكون من وجبة الحمام المشوي التي يميل إلى تناولها في الغالب مساء. ومضيت في إعداد احتياجات السهرة التي سوف نقضيها سويًا هذه الليلة. لقد انتقيت بعض حبات الفاكهة من الثلاجة وحرصت بأن تكون منوعة مثل التفاح والبرتقال والمشمش والكمثرى والقليل من العنب والكرز. كما عبأت طبقًا من المكسرات كاللوز والفستق والفول السوداني وحب البطيخ المشكل. ثم انهمكت في الاستحمام ودعك جسدي بالكثير من الشامبو المستورد الذي أحضره جابر من بلده، وأرقت كمية من سائل العطر ذي الرائحة الزكية وهو بدوره ينعم البشرة. وبعد أن جففت جسدي ارتديت قميص نوم شفافًا يبدي فتنة اللحم الناعم أكثر مما يخفيه فلما رآني بتلك الهيئة المثيرة انقض علي وأخذ يوسعني ضمًا وتقبيلاً في كل جزء من جسدي حتى شعرت بأن عضوه الذي انتصب يكاد أن يخترق ملابسي. ولكنني نصحته بأن يتأنى في مضاجعتي إلى ما بعد العشاء ورغم أنه اقتنع برأيي فقد مضى يحرك مكامن اللذة في جسمي الذي بدأ يستثار هو الآخر لاسيما عندما أخذ يداعب أثدائي وما بين فخذي حيث انفجار الشهوة. ورغبت بأن أشغل الكاسيت بأغنية عاطفية تلهب المشاعر والأحاسيس. وعندما أقدمت على هذه الخطوة وارتفع نداء الأغنية العاطفي وجدت جسمي يتجاوب معها يبدأ بالحركة العفوية. كانت الرعشة الأولى بمثابة ملامسة التعاطف كافة إذ انتفضت مستجيبة لهذا الهطول كأنما مسها شعاع عاطفي أضرم فيها حركة التعاطف والبهجة فإذا بجسدي يتطوح منتفضًا بسرعة في كل اتجاهات بعد أن وجدت أناملي تسرع إلى فك مشابك المشد لشعري الذي انساب ثائرًا خلف ظهري، كما أن قدمي

أخذتا تدقان على الأرض مع إيقاع العزف مما جعل زوجي ينهض من مكانه حاملاً قدحه ليتمايل هو الآخر راقصًا مع هذه النشوة التي فاجأتنا جميعًا، وهكذا كان يقترب منى ليطبع قبلة سريعة في حين راح يتطوح مع عالمه في ذلك الصخب الجنوني الذي استبد بنا، ثم وجدته يقذف بقدحه ويأتي لاحتضاني بشبق وحملني إلى السرير شبه عارية.

***

الغيرة عادت لتنتابني من جديد عندما التقينا الفتاة شمس كما هي عذبة الحديث شيقة الأسلوب لينة المعشر وإن لمحت في بعض إيماءاتها ما يدل على الاعتداد بالنفس والتباهي بثقافتها الواسعة. هي لاشك كما يبدو قارئة مثابرة تحفظ أسماء وعناوين مؤلفات كبار المفكرين في العالم مما جعلني أحسدها على هذه الميزة، كما أن زوجي وجد في مناقشتها متنفسًا للكثير من رؤاه. حتى أنه أهاب بها أن تطرح إصدارًا مازالت تتردد في نشره مبديًا استعداده لتذليل أية صعاب قد تواجهها بحكم خبرته واتساع معارفه في مجال النشر. وهذا مما ضاعف من مخاوفي من استمرار مثل هذه العلاقة وتوطيدها فيما بعد. لاسيما وأن لجابر بعض السوابق الغرامية مع فتيات من جنسيات مختلفة كما أخبرني بنفسه. على أن شمسًا تختلف عن غيرها - كما تراءى لي - فهي لا تخفي تفوقها الثقافي لأنها تقرأ باللغات الأجنبية بينما أن جابرًا يكبرها في السن وقد تزوج عدة مرات بينما فتيات بلاده لا يطقن الضرائر، وقد سمعتها تردد مقاطع من كتابات غادة السمان التي تهيم بأسلوبها الرومانسي فرددت:

علميني كيف يعود العطر إلى وردته الأم لأعود إليك.

علميني كيف يعود الرماد جمرًا

والأنهار نبعًا

والبروق صحوًا

وكيف ترجع أوراق الخريف إلى أعضائها ثانية.
والقطيعة إلى الحب
والنبض إلى القلب
والزفير شهيقًا

قال لها مسايرًا فجأة: ما علاقة الطيران بالخيال؟ صمتت ولم تجب إنما أخذت تحدق في وجهه كأنما تستوحي الإجابة، فأوضح: هما تمثلان الهروب من الواقع إلى الآفاق الرحبة، آفاق المجهول.

- الإنسان أحبط بالسأم من حياته الواقعية ولهذا عمد إلى الخيال... والرومانسية هي الغطاء السري لبوابة الهروب.

بينما كنت أفكر: كيف يستطيع جابر مضاجعة هذه الفتاة المتعجرفة؟ هل ستعطيه أفضل مني؟ لهذا سوف أكرهها. فهل توسلي بهذه المبررات إنما قصدت من ورائها إزاحة هم ارتباطهما وخروجي من اللعبة خاسرة؟ لقد سمعتهما يتحدثان عن النشاط المسرحي وما يطرح في بعض دور العرض وفوجئت بأنهما يميلان إلى تمثيل عادل إمام بحركاته الاستعراضية وعباراته اللاذعة لنقد النظام وخفة دم أحيانًا بل إنهما اتفقا على حضور مسرحيته الأخيرة - شاهد ما شفش حاجة - طبعًا بمرافقتي وهي خطوة أعادتني إلى دوامة الشك من جديد فهل أن قدري مع جابر سوف يبقى يتلاطم في بحر الأشواك الصاخب؟ إن مشاعري تتقد بعنف حين أستشعر ذلك الدبيب الذي يزحف نحو تعكير علاقتي بحبي الوحيد الذي لا بديل لي عنه مهما كانت الخطوب. إنه الحقل الذي زرعته بدموعي وغرسته بكل مشاعري حتى أينع بتلك الزهرة الجميلة طفلي (أحمد). أعرف أن زوجي قد تشبع قلبه بمرأى الأطفال حتى ضاق بهم إلى أن كبروا وتركهم لأقدارهم. جابر مازال يتطلع إلى حياة تنطلق فيها مشاعره متحررة من كل قيود الواقع. إنه تكوين لا يجاريه فيه أحد شأن الشعراء والفنانين الذين تسيرهم قوى لا يتحكمون فيها. والمؤلم أنه لم يبق لي من أبثها

شكواي بعد رحيل أمي التي طالما استفدت من خبرتها وتجاربها في الحياة. بدأت أتخيل جلوسنا متجاورين في مقعد واحد مستطيل شأن أكثر القاعات في المسارح إذ يستوعب المقعد ما يزيد عن العشرة أشخاص لا يفصل بينهم أي سياج أو عائق فيضطر من يريد التحدث مع شخص آخر أن يخرج بنصف جسده إلى الأمام حتى يسمع الآخر صوته بوضوح رغم الضجيج، وربما يضطر إلى رفع عقيرته. سوف أكون جالسة في الغالب بينهما كما هي الأصول المرعية بحيث أستمع إلى حديث الاثنين وربما أشترك في الضحك والتعليق معهما لأن مسرح عادل إمام يعتمد على السخرية الضاحكة بما يفعله من حركات تستدعي الضحك. جابر ليس بالهمجي حتى يتصرف بدون اتزان مهما كان الباعث فهو يميل إلى دماثة الخلق والكياسة في التصرف، حقيقة أنه ينحاز إلى الجسد والوجه الجميل إلا أنه رغم ذلك يراعي المشاعر ويتخذ خط رجعة حتى لا يقع في فخ الانتقاد وإساءة السمعة. كما أن الفتاة ذات خجل فطري لا يبيح لها أن تقذف بمشاعرها دون مراعاة الذوق والتصرف الحضاري، إنما الذي أخشاه أن يتبادلا كلمات مبهمة أفشل في فك رموزها؛ لأن ثقافتهما العميقة قد تتدثر بغموض لا أجاري أبعاده ومراميه.

فتنهدت متمتمة: (آه من لؤم البشر حين يقعون ضحية الجاذبية العنيفة وكم من ضحية سقطت بين أحراش ذلك التجاذب اللاواعي. إنه الجسد والشهوة تتصاولان لاستراق الاتزان والصبر في ذات الإنسان المنقاد إلى الجمال وسطوة الجسد. ألم يتصيد النبي سليمان موقف الضعف لدي بلقيس حتى يظفر ببإيقاعها ويجترح بكارتها في ليلة لن تنساها وإن استطابتها لاحقًا واعتادت عليها. إنه الإغواء الذي لن ينتهي مادامت الشهوة تريق الاحتمال وتبدد الصبر فيالنا من بؤساء في مهاوي الضعف ومزالق الرغبة .

***

لم يكن ثمة بعد ذلك مجال للالتباس... فلقد شاهدت كل شيء بعيني اليقظتين. ذهبت إليه حتى أدخل السرور إلى نفسه وقد أخفيت الجواهر في صندوق صغير دفعت به إلي الملكة بلقيس، كان الصندوق العاجي مطعمًا هو الآخر بالذهب، لففته بعناية حتى لا يثير شهية اللصوص إلى سرقته شأنهم مع أي شأن ثمين. لم أكن أريد أن أمتطي الجو بأجنحتي إنما رغبت أن أسير بمحاذاة الشاطئ الذي يجذبني لمرأى المياه وهي تتلاطم في موجات متعاقبة. والهواء الناعم يمسد وجنتي فجعلني أشعر بالمتعة بينما العيون تتلصص على ذلك الشرود الذي يلفني حتى اعتقدوا بأنني ثملة؛ لأن الابتسامة لم تفارق وجهي. كان الربيع يحرك الأشجار اليانعة من حولي فيجعل لها وشيشًا اعتبرته إباحة بأسرارها. لم أركز على استراق السمع فقد كنت جذلى بذلك الجو المشحون بالألفة والجاذبية. إنه موسم الحب وهو رسالة السماء إلى كافة المخلوقات. فكرت بأن أقف لأرقص تحية لهذا الموسم العابق بالحب، ولكنني خشيت تجمهر الناس من حوالي وربما اقتادوني إلى مركز أمنى ليتحقق من أسباب هذا الانعتاق إذ اعتادوا على الشكوى من جور الزمن ولم يسمع عمن ابتسم ثم رقص في زمن البؤس والشقاء. أقلية هم الذين يغامرون بإشهار سعادتهم في الزمن الكئيب لأن الصراخ والنحيب هما المألوفان. مضيت إليه ثملة بما يلوب في أعماقي من فرحة فتوقعت بأن يفتح لي ذراعيه ويرحل بي إلى العالم الذي يسيطر على جوانحي ولكنه لم يفعل.. إنما بقي لائذًا بصمته وعدم التحرك نحوي. خشيت بأنه يشكو من ألم في داخله. كدت أصرخ خوفًا عليه. ارتميت على قدميه وأنا ألهج بالسؤال تلو الآخر:

- ما بك يا حبيبي... ما الذي تشكو منه... هل أنت متضايق من شيء... أخبرني... أرجوك !

لم يتحرك... استمر في صمته وبروده نحوي. وحاولت أن أفهم منه

ما الذي يشعر به ولكنه أبعد نظراته عني.. بل نهض وأخذ يضع أمتعته في حقيبة كانت ليست بعيدة عن مجلسه.

داخلي خوف شديد. ارتبكت ولم أكن أعرف ماذا أفعل حتى أجعله يحدثني، يصارحني، يحتويني ... يلامس جسدي الذي طالما تمنعت عن منحه له . أكمل نقل أمتعته دون أن يهتم بي. فكرت بأن أصرخ بعد أن انهمرت دموعي مدرارًا . حمل الحقيبة وسار نحو باب المنزل ثم التفت نحوي وقد تكومت في مكاني ناحبة ليقول ببرود:

- مع السلامة ... يا عطر

لحقت به إلى الزقاق وشاهدت ما وقف له شعر رأسي. كانت الفتاة الأخرى شمس تقف في الجانب الآخر من الطريق، تحمل هي الأخرى حقيبتها أشارت إلى عربة أجرة فدلفت إلى داخلها بينما لحق بها زوجي وركب إلى جانبها وهو يرفع تحية الوداع لي. ركضت نحوهما إنما كانت العربة أسرع مني فانكفأت على وجهي في الطريق وأنا أجهش صارخة.

تجمع بعض المارة حولي وأعانوني على الوقوف ظنًا منهم بأن العربة الهاربة هي سبب تعثري. عدت إلى المنزل وأنا أفكر بإنهائي حياتي لأنها أصبحت جرداء بدون عشقي الذي توارى في رابعة النهار واستسلمت إلى نوبة بكاء هستيرية لازمتني، وفجأة بدأت أتساءل: من أكون أنا في هذا العالم؟ بل كيف جئت إلى الحياة أين أسرتي؟ ولماذا تركوني وحيدة... أعوم في بحور لا شواطئ؟ لها أصبحت لا أعرف حتى اسمي.

فالموقف بمثابة طعنة نجلاء سددت إلى سويداء قلبي لا تحتملها أعصابي ولا مشاعري التي أغدقتها ذاتيًا في ذلك العشق الصادق الذي منحته للرجل الذي يغدر بي اليوم وفي هذه اللحظة القاسية من حياتي إذ أجدني ضائعة بلهاء في تيه صحراء العدم وقد فقدت كافة أسلحتي وليس أمامي سوى الانكفاء الذي سيقودني إلى نفق مظلم لا نهاية له.. فيا حسرتاه على حب تلاشى مثل فقاعات الصابون.

هاجمني النوم فجأة وأنا في أسوأ حالات الكآبة وحين استيقظت وجدت نفسي مقيدة إلى سريري بين مجموعة من النساء أكثرهن تأتي بحركات هستيرية.

عندها أدركت بأنني نزيلة في مستشفى الأمراض العقلية.

obeikandl.com

القسم الثالث

شمس

obeikandl.com

أدرك بأنكم لا تعرفون عني شيئًا يذكر سوى أنني فتاة اسمها شمس محمد المعيدة في جامعة الملك سعود بالرياض... ذات رقة وجاذبية... مولعة بالقراءة إلى درجة العشق... متخصصة في مجالي ... أميل إلى الانطواء قليلاً منذ طفولتي لأنني وحيدة أبوي... ولم أجد من حولي من يرافقني في مرحلة الطفولة؛ فأبواي منشغلان في عالمهما واهتماماتهما ... هو يمتهن التجارة وإن لم يكن موسرًا أو ثريًا... على حافة الكفاف .. وأمي سيدة منزل من الطراز الأول... حريصة على إدخال السرور على قلب زوجها المتواضع الذي يكن لها الكثير من التقدير والمحبة مع أنه من النوع الصامت... قليل الحديث عن نفسه. أمي سيدة جميلة ذات ابتسامة مشرقة قلما تفارقها... واسعة العينين ... شعرها طويل مسترسل ...أنفها قصير وفمها صغير... بيضاء البشرة ذات خدين موردتين صدرها ناهد، جسمها ممشوق يميل إلى الطول قليلاً ... نشيطة الحركة ... صوتها دافئ تتكلم بصوت خافت يميل إلى الهمس...علاقاتها قليلة وإن كانت محبوبة من الجيران، تؤدي الفروض في أوقاتها وإن كانت تحب المرح وتسعى إلى الحفلات عندما تدعى إليها، أسمعها تدندن ببعض الأغنيات العاطفية عندما تكون منفردة فأحاول مشاركتها وإن كنت أستثيرها بأنها مغرمة بأبي.. فتصمت ولا تجيب.. إذا حرضتها على التعليق تكتفي بالقول: "كان هو نصيبي ..ولا أحد غيره.. رغم أنني ما عرفته في يوم من الأيام سوى أنه ابن الجيران".

قادتني الوحدة إلى مزاملة الكتاب بأنواعه... المدرسي والثقافي...قراءة الكتب المترجمة في البداية، للعباقرة المبدعين في العصور السحيقة، منذ بداية النهضة الفكرية في أوربا... إلى جانب

بعض كتب التراث، تفوقت في التعليم على لداتي من الزميلات، وحصلت على درجات عالية في دراستي حين تخرجي؛ مما جعل الجامعة تسعى إلى ضمي إليها. ساهمت في الكتابة في بعض الصحف وهي بمثابة خواطر سريعة... وجدت احتفاء من المطبوعات التي شاركت فيها لكوني أميل إلى محادثة النفس بأسلوب تعبيري راق ينحو إلى البساطة والأسلوب الرومانسي الرقيق. تأثرت بكتابات الأديبة المبدعة غادة السمان لتوجهها الشاعري الناعم وعطائها المتميز في التعبير .

حين التقيت ذلك الكهل جابر عن طريق الفتاة المصرية عطر تحركت في داخلي عصبية من نوع ما من تأثير ضياع الكثير من رجالاتنا بتلويحات الإغراء تجيدها بعض الفتيات المائعات لاستدراج عواطف الرجال تحت مظلة الحب المصطنع ! وإلا فمن يصدق بأن هيفاء في عمر الورود لم تبلغ العشرين ربيعًا تقع في حب رجل خمسيني لا يملك مؤهلات الجاذبية والتفرد الشخصي ؟ هي حاولت إقناعي بشتى الوسائل عن ميلها العاطفي المجرد من أي غاية أخرى.. لأنها لم تستطع أن تكتم عشقها له، هو كما قدرت فطري وبسيط لذا فقد انساق وراء إغوائها؛ لأنها بصراحة جذابة وذكية .. ذات وجه ناعم أبيض مستدير في وسطه لؤلؤتان براقتان مستديرتان وأنف صغير وخدان يحمران بسرعة من الخجل، بينما شعرها الحريري يرتمي بثورة فوق صدرها الناهض برمانتين صغيرتين وجسدها الممشوق متوسط الطول ينطوي على ثورة متأججة سريعة الحركة ... بسمتها مثيرة جذابة تدعو إلى ملاحقتها. تتصرف باتزان ولا يظهر على ملامحها أي تصنع لأن تحصيلها الجامعي مكنها من التعامل بأسلوب متفوق مع الرجال. ولكوني متبحرة في علم النفس أدركت ذلك البعد في التعاطف كما فسره "إدلر" لأن الرغبة في احتواء الآخر والتقرب إليه إنما ينشأ من شغف نفسي كامن في التركيبة الجسدية. وكان لجمال الفتاة علاقة حاسمة في

انجذاب الكهل الذي لم أعرف الكثير عن طبيعة حياته وتفكيره حتى اقتربت منه... فإذا به - وهو ما أثار دهشتي واستغرابي - يختزن ما لا يستهان به من التجارب والمعرفة التي تنزع نحو التجديد في أسلوب معيشته المضطربة - كما قدرت - في مواجهة طموحاته الكبيرة. وكان أعظم تلك الحصيلة معرفتي بأنه كان من الكتّاب البارزين ذات يوم، ولكنه توقف بعد أن فقد الحماس الذي يدفعه إلى تلك التضحية وكان اطمئناني إليه باعتباره من العناصر الواعية التي لها تطلعات تنويرية باكتساح النهج الحضاري ومنح المرأة حقها المهضوم... وبإحداث إصلاحات جذرية في أسلوب الحكم تقوم على الرؤية العصرية - الديمقراطية - وله تضحيات تواكب هذه التطلعات دفعها من حريته الشخصية بالاعتقال. ومع ذلك لا يعترف - بله التباهي - بأنه قدم الكثير من منطلق وعي سياسي، لأن المطالبة بالإصلاحات تقتضي وقفة شجاعة وتضحية. وهو ما حفزني إلى احترامه من خلال الرؤية التي ينطلق منها في الحوار ورحابة وجهة النظر التي ينظر بها إلى الكون وتلاقح الأفكار مع الآخر المختلف عنه في التفكير والعقيدة... وبالتالي المستجدات العلمية. والمنطق أن يفهم الناس بعضهم وإتاحة الحرية للجميع بالتعبير في وجهات نظرهم . أعرف بأن أمراضنا الاجتماعية متعددة الجوانب وأن الحيلولة دون لقاءات ذوي الرأي تفاقم من العزلة وتهميش وضع المرأة في أداء دورها الاجتماعي أساس كافة الجراحات، إنما هذا قدرنا الذي كتب علينا أن نسعى إلى تغيير ملامحه بمواصلة الرفض بكافة السبل حتى وإن اضطررنا إلى الاعتصام !! كنت مضطربة بعض الشيء عندما أفكر بوضعنا الاجتماعي المتدني وأحلم - مجرد حلم - بأن نتواصل مع الإيقاع العالمي المنطلق بالتركيز على حقوق الإنسان؛ ولذا ارتحت للتعرف على هذه الشخصية الواعية من بلادي الذي أظهر رغبة شدتني إليه لحماسه المتأجج في اكتساح الرؤية العقيمة في النظر

إلى المرأة كجسد يكتنز الإغواء والإغراء وليس له من فعل إنساني خلاف ذلك... أي تلبية احتياجات الرجل، وإذا كان الحب ركيزة في حياة البشر فإن تكوين الأسرة المتفاهمة ينبغي أن ينطلق من ذلك المفهوم .

في تلك الفترة مررت بظروف مرضية غريبة، أنا التي أزعم فهمي الواسع في علم النفس من خلال اطلاعي على تفسير المدارس الفلسفية الحديثة للسلوك الإنساني. إذ كنت - في أثناء نومي - أشعر بأصوات صاخبة تملأ سمعي وتجعلني أصحو من النوم فزعة متوترة . والغريب أنني عند يقظتي أحس بحاجتي إلى الاستحمام نتيجة تلوث ما يحيط بي... فأعزو ذلك إلى عدم التطهر ! فكان عقلي ينقذف في تلك الحالة العصابية إلى بحور من الجحيم الجسدي لا يطفئها سوى الماء حتى أعود سوية. وقد فكرت باستشارة أحد الأطباء النفسانيين لولا أن اعتدادي بنفسي وبمعلوماتي حال دون تجشم السؤال مع أني أؤدي الصلوات في أوقاتها يوميًا مما يبعد عني الشك في عدم التطهر أو ممارسة أي فعل غير أخلاقي. رغم أن الرغبة الجنسية تلم بي بين الحين والآخر فأتمكن من كبت إثارتها والابتعاد عن مواطن تلك الحالة؛ ولهذا السبب كان أول قرار اتخذته في أثناء سفرنا في تلك الإجازة أن أتلمس وسيلة للاشتراك في أحد الأندية الخاصة للسماح لي بممارسة رياضة السباحة لأطول فترة ممكنة مما جعلني بتلك الوسيلة أتعرف إلى تلك الحسناء " عطر" وأرتبط معها بعلاقة حميمة ... وإن شابها ذلك الشك في نقاء أهدافها لاندفاع ذلك الرجل نحوها والذي أصبح صديقي أيضًا. ربما مفردة صديق تثير المخاوف في مجتمعنا المنغلق لاسيما بين الرجل والمرأة ...لولا أن الثقافة والثقة التي تجمع بيننا ترتفع إلى مستوى الوعي الصريح والاحترام المتبادل... فإعجابي بذلك الرجل لن يتأثر بكونه متزوجًا ولفارق السن. بل العكس لأن المتزوج يحترم الأسرة على الأقل ويسعى إلى تحقيق ذاته بالتوازن... ووضع بصمة ثقة في المستقبل.

لن أتحدث عن نفسي كثيرًا أو توجهي الفكري لأن ارتباطي بجابر قد يفصح عن أمر ما فذهبت إليه مستفسرة عن وجهة نظره، فيما يحدث لي غالبًا - في أثناء النوم - فأجاب بهدوء :

- في تصوري أن الطموح المغالي فيه قد يسبب إرهاصات متأججة يتعرضها الخوف. فالخوف هو المشكلة الرئيسة في المجتمعات المتخلفة عامة في مواجهة الحرية.

سألته من جديد : وما هو العلاج في نظرك ؟

قال بعد شرود في التفكير : انتبهي أنني لست ذلك المنظِّر البارع، إنما أرى من وجهة نظري المتواضعة بأن عليك التخلي عن بعض طموحاتك !

أجبت بحزم :

- كلا... لا أوافق على مثل هذه الهدنة .

- لك كل الحق بما تتخذينه من موقف ... فهذا شأنك .

- إنما سؤالي ... ماذا يترتب عليه، أعني الموقف ؟

قال بنوع من التردد :

- ربما ... ربما... ستبقين في مواجهة صدمة الواقع

- ولكن هل تظن بأن الخيال يجنح بي ؟

- إنه افتراض... ومتى يستطيع المثقف التخلي عن الخيال. إنه الحلم الموؤود

- يالك من شرير مراوغ... عفوًا لهذا التعبير... لأن فيما قلت تجريحًا لي

- ثقي من براءة طويتي بالدرجة الأولى. وتلك نصيحة مجانية !

-أعلم ... إنما مشكلتي معقدة نوعًا .

- إنها ضريبة المتعلم .

- أتمنى لو أحيط بتراث الأمم والطوائف لأنه سفر الإنسان في هذا الكون العجيب .

- وهل في ذلك انعتاق مما تعانيه؟
- سوف أحاول بوسيلة ما استرجاع ما مر بي كتابة .
- قد تكون طريقة مجربة في العثور على الإخفاقات.

(16)

كانت أحلامي واسعة متطاولة... لولا أنها اصطدمت بجراحات ما نسمع من حكايات القمع والإذلال التي تمارس ضد صديقاتي من أولياء أمورهن؛ فشعرت بأن عالمنا الأنثوي مقبرة لا يكاد يغادر الأسوار العالية التي تحجبه عن العالم... فأي مذلة وهوان هذه التي نلقاها من فصيل الرجال ! حتى بت أعتقد بأن العشرات من بنات جنسي ربما يكرهون آبائهن بعكس النظرية الفرويدية المعروفة والتي درستها جيدًا. فهل هذا يعني بأننا في هذا الوطن نختلف عن الأمم الأخرى ؟ ولماذا المحظيات والساقطات هن اللاتي يجدن الحب والرعاية من كبار القوم لجمالهن وتفننهن في إجادة أساليب الإغواء حسب ما تحدثنا كتب التاريخ في سيرة ملوك الشرق وحكامه. أما بقية النساء المحصنات السجينات في منازلهن المتعبات في تربية أبنائهن ورعاية شئون المنزل والخدمة المتواصلة فليس لهن من نصيب من العناية سوى الشكوى والتذمر. فأي بلاء مستطير هذا الذي حل في دنيانا دون ذنب جنيناه؟ إذا كانت الإناث غير مرغوب فيهن فلماذا خلقهن الله بهذه الكمية الهائلة من العدد ؟ ولماذا لا يتم التكاثر والإنجاب بوسيلة أخرى دون مضاجعة، شأن بعض المخلوقات الأخرى سواء باللمس أو بالبيض وغير ذلك مما يقدر عليه الخالق ؟ ثم هذه العلاقة الملتبسة بين أفراد المجتمع... لماذا هي بهذه الكيفية؟ ألم تكن الحرية هي الأساس في الخلق بدليل أن الإنسان منح هذه الصفة منذ شعر بكينونته ووجوده على الأرض...؟ حقيقة أن الروابط الاجتماعية تطورت بالتدريج... إنما كانت تنحو إلى إعلاء كلمة

الذكر وسيطرته فهل التمرد هو الوسيلة الوحيدة للتحرر من تلك السيطرة .

لا تغضب يا صديقي من هذه الأفكار الخيالية التي تمر في ذهن أية فتاة في مقتبل العمر؛ لأنها لا تلبث وأن تستسلم لواقعها المزري وتقبل سيئاته مع بقاء الجمرات تحت الرماد. فأي ظلم هذا الذي يحدث في القرن الواحد والعشرين وأي مجتمع همجي هذا الذي تحكمه العصابة المتواطئة مع المتطرفين المتشددين الحاقدين على البشر، وإن أمة بهذا الهوان ودولة بهذا التخلف ينبغي على قادتها أن يخفوا وجوههم شأن النساء عن بقية شعوب الأرض؛ لأنهم يمثلون التعاسة البشرية والارتداد الهمجي وسوف ننال حقوقنا حتى لو اضطررنا إلى قطع أعضاء الذكور من هذه الزمرة البائسة. وأتذكر هنا بدهشة علاقة غريبة ربطتني بشاب كان شقيقًا لصديقتي في الحارة في أثناء مرحلة الطفولة. كنت آنذاك في العاشرة من عمري تقريبًا بدليل أنني كنت أدرس في السنة الرابعة ابتدائي ... وشقيقته " نوارا" معي في ذات الفصل. وبطبيعة الحال كنت ألتقيها يوميًا سواء في منزلنا أو منزلهم لقضاء الوقت في التسلية والمرح. وكان شقيقها الذي يكبرها بعامين يعاملها معاملة قاسية ويفرض عليها الاستجابة لمطالبه التي لا نهاية لها. وكان هذا مما يثير حفيظتي لأنه يقاطع ألعابنا... فانظر إليه شزرًا بينما يتباهى أمامي وأنا أسخر منه... ثم تنبهت إلى أنه يتقرب مني ويحتك بي بينما يدعوني الوردة... ولم أكن أشجعه أو أبتسم له . وذات مساء، وقد مضت شقيقته لإحضار إحدى مطالبه المتكررة منها، اقترب مني وشدد في احتضاني وعندما قاومته انتزع قبلة مني بعد أن كتّف يدي وكان فرحًا بهذا الانتصار مرددًا: سوف أتزوجك عندما تكبرين فأنت جميلة مثل الوردة. فغضبت منه وأخبرت أخته التي شتمته، وقالت له: سوف أخبر أمي. حينذاك أخذ يلاطفها ويتوسل إليها معتذرًا بأنه تعثر بينما يطارد فراشة فوقع

بالقرب مني واصطدم بجسدي. وبديهي أنني أخذت أتحسس جسدي فاكتشفت بأنه ينطوي على بعض الإغراء لاسيما كان شعري الحريري الذي يميل إلى اللون الذهبي يتناثر على صدري وظهري بفوضى مثيرة !! ووجدت نفسي أميل بصورة شديدة إلى عالم أبي الذي كانت هوايته لعب "الشطرنج" مع جارنا "أبي هيثم" وكان من الأثرياء الذي يرتاح لأبي ويكن له الإعجاب فأسمعه يطنب في مدحه؛ وهو ما يجعل أمي ترتاب في تلك العلاقة لأن لذلك الجار العديد من الفتيات الوسيمات الناضجات اللاتي كن لا يجدن حرجًا في كشف وجوههن أمام أبي موارية بصورة مغرية عندما يأتين إلى منزلنا بدعوى متابعة صراع أبي مع جاره في لعبة الشطرنج وهن يهوينها جميعًا. ولم أكن أفهم سبب توجس أمي، ولا في هذه اللعبة النسائية حتى صارحتني لاحقًا بأن هؤلاء الفتيات يحاولن اختطاف أبي بتشجيع من أبيهن . رغم أن أبي قد أسلم قياده إلى أمي منذ بضع سنوات لاسيما بعد أن أخبره الطبيب عن إصابته بداء السكري ويحتاج إلى حمية معينة في الطعام تكفلت بها أمي إلى درجة التحكم في طعامه وشرابه وهذا ما جعله في شبه اطمئنان إلى أنه لن تحدث أية مضاعفات لذلك المرض مادام قد وجد هذه العناية الفائقة من أمي التي يشكرها عليها. رغم أنه كان يتصيد المناسبات ليظفر بالقليل من الكحول مع ميله الشديد إلى أدب الرحلات - قراءة - وحب السفر أيضًا لولا أن دخله المحدود لا يسمح له بتكريس هذه الهواية. في الوقت الذي أبدي فيه جارنا وكان يملك بعض المنازل خارج حدود - ترحيبه باستضافته لديه ! إنما كانت أمي تقف بصلابة أمام مثل هذه الاستجابة مذكرة إياه بحالته الصحية التي سوف تتدهور إن ابتعد عنها، وكم حزنت لأجله لأن أمي بأنانيتها المفرطة تحرمه من متعة التجوال في أرض الله الواسعة لأن تفكيرها - كامرأة - ينصب حول الحبائل التي ربما يقع فيها بتأثير فتنه تلك الفتيات الجميلات وهن

يتمتعن بمزايا تفقدها أمي بعد هذه الأعوام الطويلة من المعاناة لاسيما الحيوية والنضارة . وأبي ليس أكثر من نموذج للفقر العاطفي الذي طمسته الأيام في الصراع ما بين قلب يتوق إلى فجر الحياة المضيء وهو يميد بالرماد الذي يتراكم فوق الجمرات التي تنعش القلب الذي أضناه شقاء الأيام ومطارحة الإخفاق. ولعلي بولعي القرائي أكثر فاعلية منه في تنويع نظرتي لزوايا الكون التي توصلني بها هذه السفريات الثقافية فأنظر إلى حال المجتمعات من خلال عطاء أدبائها. فأرتاح من عبء المقررات المدرسية التي لم تكن تضيف إلينا سوى المزيد من الجهل والغباء، لا تنمي قدرة أو تفجر موهبة بعد أن رحلت الحضارة عن هذا المشرق التعيس؛ فتركته مجرد جيفة نتنة لتعاليم هزيلة لا يجيد سوى ترديد تهويمات لا حيوية فيها ولا إقناع، بينما القادة يشجعون هذه الشحنات الببغاوية التي تجعلهم يعيشون كيف يشاءون في الملذات وتكريس الفساد الإداري والمالي الذي أصبح حديث كافة الأوساط، فماذا تراني فاعلة في هذه الأيام الجافة المتلاحقة سوى الاتكاء على سراب الخيال يرحل بي كل ليلة حتى أنسى الخواء والجمود محاولة إيقاد شموع في تلك الدهاليز والكهوف المخيفة التي تنعق في جنباتها غربان البين. أمتص من رحاب الفكر ما يبلل ريقي ويعينني على المضي عبر تلك المهاوي... عسى أن أبلغ شاطئ اليقين. ولذا أعجبت بتلك الفتاة. "عطر" لأنها تمردت على سطوة مجتمعها واختارت الرجل الذي خيل إليها أنها معه يبلغان شاطئ السعادة إلى جانب هروبها الفكري إلى عالم بلقيس الذي تمادت في طرق عمقه حتى النهاية. فكان ذلك الجني "شلتفيس" ينوب عن سيدته في إشعال العاطفة المتأججة في مشاعرها التواقة للحب والعشق وربما يريق ما بين فخذيها ما يخفف من شبقها. وتلك هي حياتنا نحن العاجزات عن ذلك المدى من سكب عواطفنا في المفيد حتى لا تذهب بددًا؟ كما أعجبني في جابر تلك الثقة التي واجه

بها اندفاع الفتاة فلم يرتكب - كما أخبرني - حماقة الشباب وتبديد سمو العاطفة التي لا تخفي علينا نحن المتخصصات في علم النفس مسبباتها وجيشانها في مراحل عمرية محددة . ذلك أن اختفاء أبيها من حياتها منذ الصغر خلّف فراغًا في قلبها البكر. فراحت عاطفتها المفجوعة بالفقد تبحث عمن يلبي شحن ذلك الإيناع المجروح في صميم اللا وعي مثل انكسار ضلع لم يتسن جبره. فبقي يشكو إهمال نبضه النازف... في هذه الأجواء الماطرة بعواطف العشق الصادق... تسنى لي أن أشم رائحة الحرية العابقة بالإخلاص، وهي ترشح نبل المشاعر الصافية مثل الزلال في مجتمع جف خضابه وتبدد ماؤه ..فاصبح كما صحرائه الجائرة على ما حولها من واحات. تسفها بالرمال الناعمة وتحصبها بأحجارها المدببة الحواشي!

سوف أصارحك القول بأنني أيقنت بالتماس النجعة ... فتمددت شعب الأغصان متداعية نحو العروق المشبعة بالفطرة مثل الهواجس ... تأخذ مسارات الوجيب المتصادم مع الرغبات والأحلام. متأججة بهياج الإخفاقات. ولأنني أنتمي إلى ذلك العنصر المهان في مجتمع الذكور فمن حقي إن أعلن عدم احترامي للعنصر الآخر الذي همش وجودي حتى جعله مجرد رقم لا أهمية له في حياته. إن الإله خلقنا لنكمل بعضنا، فإذا بوحشية الرجل المتغطرس أبت إلا الاستئثار بكامل حقوقنا ومصادرتها عنا... وهذا لن يثينا عن مواصلة الكفاح وانتزاع الحق السليب. ولأن بلقيس مثال على مكانة المرأة واحترامها منذ آلاف السنين فسوف ندين لتلك الحضارات. والوعي لذلك القديم باحترام أكثر تبجيلاً من هذا العصر الباهت الذي تدافعت فيه الذئاب الكاسرة على القصاع، لتنهش ما يتاح لها بمخالب القوة المتوحشة والغدر المقيت. وبما أن الإقبال على الإنصات إلى الموسيقي من بين المتع التي استشعرها، فقد كان الاحتفاظ بمكتبة تضم - إلى جانب المؤلفات الثقافية -

مجموعة لا بأس بها من روائع الفن الموسيقي تفتح أمامي كوى أُطل منها على خبايا هذا العالم المتشتت مزقًا يفترس قويه شظايا الضعفاء وإهمال مكانة المبدعين ومساواتهم بالتعساء الذين يتحركون مثل الأنعام يسيّرهم أخطبوط القوة الغاشمة.. بينما رسالة الحياة السامية في تذوق عمق السعادة التي يخلقها الجهد الناجع بلا انتظار للنتائج في التضحية. وفي هذه الأثناء وقعت في يدي رواية عظيمة لكاتب أجنبي مترجمة إلى العربية قبل أن أتغلب على مشكلة اللغة الأجنبية فأجيدها لاحقًا.

كانت الرواية تحكي عن مجتمع بائس ينتقل أفراده في زوايا الصحراء بحثًا عن الرزق الذي لم يكونوا يجدونه إلا بشق الأنفس... كانت هذه المعلومة أعادتني إلى الواقع فقد تأكدت أن الدنيا مليئة بالبؤس في أنحاء متفرقة منها مما يعني تواصل الكفاح في أطراف الدنيا... لولا أن ما كان يجعلها أكثر احتمالا هي انتشار عاطفة الحب بين تلك الفئات المسحوقة بظلم الزمان. نعم تأكدت من ظلم الزمن لكثير من البشر بوسائل مختلفة... على أن أولئك البؤساء كانت لديهم عزيمة لا تقهر استمدوها من سلوك شعب لا يطيق الاستقرار البائس يدعى الغجر. الذين علموا الناس الاعتماد على أنفسهم مهما كانت المشاق... فكان تجوالهم الأبدي في رحاب الدنيا قد خلف وراءه علاقات متينة مع الديار التي يمرون من خلالها إلى عالم جديد !! علمهم أن يضعوا إمكاناتهم التي هي عبارة عن نقل المكتشفات من قطر إلى آخر أقل حضارة من غيره. وهكذا فإن لهؤلاء القوم المشردين فضل كبير في تقدم الكثير من شعوب العالم المتخلفة، وانتقال المكتشفات العلمية إليهم بواسطة هؤلاء البؤساء. وهكذا كان لهم - كأبسط الناس - نقل معلومات عظيمة مثلما يفعل النمل. هذه الحشرة الصغيرة في إبلاغ كبار الحيوانات بما لا يعلمون به. كما حدث حين قرر النبي سليمان الفتك

ببعض الحيوانات لعصيانها أوامره، بينما الديناصورات تجوب البراري وتطاردهم فيها، مهاجمة معسكراتهم التي يقيمونها في الأطراف وعمق الصحراء. يحيون فيها حفلات الرقص والطرب، وبالتالي استدعاء المضاجعة مع زوارهم وإطلاق الآهات لمن يدفع الثمن. لست أسخر من هذا النمط من العلاقات لأنهم اعتادوا الشفافية والفطرة في كل شيء. إذ ليست لديهم مدينة تحكمهم ولا قوانين أو ثقافة تحد من حريتهم. .. فالوطن عندهم باتساع أرض الله الواسعة... والقوانين هي ما ينبثق من داخل ذواتهم ومشاعرهم شأن الإنسان النقي الذي لم تلوثه الحضارة والمدينة. وهذه في اعتقادي أسمى حرية ينتزعها الإنسان لنفسه باقتناع العدل للجميع ...إذ الأصل في الحياة هي ما وفرته الطبيعة لنا من أطايب نتمتع بها بالتساوي وليس تحت رحمة الأقوياء من البشر الذين يتحكمون بالقوت ومصائر الضعفاء بالسيطرة !تلك قضية نؤمن بها ونتردد عن الإفصاح عنها جهارًا لأننا رضعنا الخوف والتردد منذ طفولتنا المشوهة حتى أصبحت جزءًا من تكويننا. لقد حدثتني إحدى صديقاتي بأن شقيقها أحب واحدة من جماعة الغجر. بل عشقها وهام بها. وحين طلبها للزواج سألته. هل ستدعني أعيش على سجيتي في خيمتي خارج المدينة، فلست أطيق السكن ما بين الجدران العالية مثلكم ! فلما تلعثم قالت له: لست أصلح لك. فالحياة ليست مطارحة بين أحضان السرير. على أن المثير في تلك العصور السالفة - كما تروي سيرهم حكاية مدينة الظلام - أن الحيوانات التي يربونها كانت تتحدث مثلهم حتى حسبت بعض الأقوام التي يخالطونها بأن هؤلاء بشر يرتدون جلود الحيوانات للتمويه، واتهموهم بممارسة السحر... وأنهم يتزاوجون مع الجن، ولكن عند تلمس أعضاء تلك الحيوانات اثبت بأنهم يختلفون عن البشر، وحين سؤل الغجر عن أصل تلك الحيوانات الناطقة أجابوا بصراحة: إنها من فصيلة تكاد أن تنقرض تعيش في أواسط إفريقيا مما

جعل بعض الرجال الشجعان يتحمسون لاكتشاف تلك الفصيلة بغية إنمائها وتكاثرها مجددًا لولا أن بعض رجال الدين المتزمتين عارضوا هذا التفكير لاختلافه مع عقائدهم واستعدوا السلطات عليهم. وكان الحكم كهلاً ومن أسرة تافهة حكمت البلاد بالخديعة وادعاء الإصلاح الديني متحالفة مع داعية التف حوله بعض الأنصار لتعصبه مع المتشددين، الكهل الأرعن كان حليفًا أيضًا تتهدل أذناه عند سماع صوت المرأة ويعاشر النساء في معظم الأوقات غير ملتفت إلى أمور رعيته. وكان الخلاف بين الفئتين تحول إلى صراع؛ فرجال الدين يؤمنون بأمر واحد لا يستطيعون مناقشته في حين أن الفئات الأخرى تريد أن يزداد وعيها باكتشاف الجديد، فقرر الحاكم بفطرسته المعتادة أن يشن حملة على أضعف الأطراف منهم الغجر. وهنا تكشف أمر غريب... فقد ناصر الغجر أبناء الحاكم المستبد بل وأحفاده الصغار مما جعله يقع في حيرة... ويحاول إيقاف تداعيات الخلاف وانتشاره. إنما كان قد فات الأوان فقد اعتزم الأبناء الانتقام من قادة عصبة المتشددين... فكمنوا لهم الواحد تلو الآخر واختطفوهم مكممي الأفواه حتى لا أحد يعرفهم ونقلوهم إلى الصحراء حيث أودعوهم لدى الغجر الذين أجادوا توزيعهم في أنحاء الدنيا.

وبسيطرة الأبناء على الوضع العام ساد نوع من الحرية.. فتنفس الناس الصعداء... ودبت في الأسواق والمنتزهات حياة جديدة بعد أن انقشع عنها سيطرة تلك الفئة الظالمة السوداوية التفكير... على أن أنصار تلك المدرسة الظالمة سرعان ما استيقظوا من سباتهم... فتجمعوا يرددون المعوذات والأحاديث المزورة في السلف الصالح... والتحذير من الفتنة القائمة .. مما جعل الغيوم تتكاثف من جديد حول سماء السلطات، وإذا بالبروق تعصف بالعيون الساذجة ..فتنادى جهلاء القوم من ذوي السقوف الفكرية الهابطة، والتفوا ناشطين حول نساء الحاكم

لأنهن الأقدر على تحريك أعضائه التي لا تكف عن المخالعة، فقام يغمغم بما يرضي تلك الفئات الظلامية ... فهرولت مواكب الغجر إلى أطراف الصحراء تحزم متاعها في رحلاتها المعتادة إلى أقاصي المعمورة ... شأنها دائمًا.. لتنعم بحرية الحركة والانتقال كما تشاء ... تشكل حياتها كما يحلو لها... بينما ذلك الحاكم الشبقى عاد إلى سلوكه الشائن في جعل نسائه ينتظرنه خلف ستارة تحت طلبه بينما يبقى عضوه منتصبًا بعد الجماع ويعجز عن إخفائه في طيات ثيابه فقيل إن أهل فارس كانوا هكذا منذ اختلطوا بأهالي السند في أقاصي أسيا قبل أكثر من خمسة آلاف عام ورغم تلك المثالب في سلوك الحاكم المتقلب فقد كان محبوبًا من شعبه لأنه كان يميل إلى العدل ولم يوقع العقاب على أي من رعاياه إلا وهو يبسمل طالبًا له الرأفة والرحمة من رب العباد.. كما يدعو شعبة إلى إحياء حفلات الزواج ليلاً كل أسبوع والتي كان يحضرها ويبقى معهم ساهرًا حتى الصباح لإذكاء روح المحبة بينهم. وهناك أحاديث تروى عما حصل للإيقاع بين الحاكم وأعوانه من المتزمتين أصحاب الذقون الطويلة مفادها أن اثنين من أبنائه اتفقا على تدبير حفل صغير يحضره أحد أولئك الرجال مع ثلة من أبناء الغجر ينطوي على ما يشبه المجون. وحين التئم الحفل وارتفع صوت المغنى والدفوف في حضور ذلك الرجل واشتعلت الأجساد الراقصة وهي تتمايل بفتنه وإغراء بينما كان المدعو في نشوة طربه أحضروا الحاكم ليرى بنفسه كيف أن ذلك الرجل المتزمت لا يعدو في كونه يتلهف على حضور أمثال تلك الجلسات التي يحاربها بل قيل إن الخمرة كانت تدار بين الحاضرين. وهكذا أقر الحاكم على أن ينكل بمن كانوا يخدعونه. فكان أن أبعدهم عن مجلسه وحجم نفوذهم وسلطتهم ، بل وقيل إنه طردهم من بعض المناصب الخطيرة في الحكم. على أن أصحاب الذقون الطويلة لم ييأسوا بتلك الصدمة... إنما عادوا مطأطئي الرؤس للتقرب من جديد لمسح صفحة

الماضي حتى تمكنوا من أن يلين قلب ذلك الحاكم الطيب فيعفو عنهم بالتدريج . على أن الفضيحة التي عمت الديار في قرية الظلام، عشق ذلك الرجل الملتحي لإحدى الغجريات، والتي سحرته كما يقولون وجعلته يذهب إلى خيامهم عندما يصحو في الفجر بدلا من الاتجاه إلى المسجد لأداء الصلاة مرددين: يا غجر يا غجر سلطان سحر

دعوه يذهب إلى أهله فقد أناخه الجهر

أمه تلطم خدها... باكية عن هولها سهر

ويلاه هذه الدنيا... تذهب بنا جهرًا إلى القهر

إنني في الحقيقة بعد هذه الجولة السريعة في عالم قريتنا أفكر جديًا بالتخلص من الكتب التي اقتنيتها لأن أبي يبحث لنا عن منزل آخر أصغر من هذا الذي نقطنه حتى يوفر بعض النفقات فمعذرة أن توقفت في الثرثرة عند هذا القدر من الحديث .

obeikandl.com

الخاتمة
الـــــراوي

كنت أعاني في تلك الأثناء من مشكلة عويصة تتمثل في أنني في كل ليلة أسترجع في الأحلام أحداث ما مر بي ذلك اليوم... أي أنني أستعيد - دون ضرورة - ما انتهي زمنيًا بالنسبة لي، وكأنما سجل الأحداث بفعل عوامل أجهلها مما جعلني أستعين بمعرفة شمس لتشرح لي ما يفسره علم النفس فيما يجري لي... وكأنما كانت تنتظر بأن أفزع إليها ذات يوم حتى تسقيني من الإناء الذي سقيتها منه ذات يوم فقالت لي بارتياح :

- أنت تفقد التركيز فيما يمر بك... ولهذا فإن الذاكرة تحاول أن تسند ذلك الضعف الاستقبالي .. سألتها:

- وماذا أفعل للتغلب على هذا الضعف؟

ردت :

- ليس أكثر من تنشيط بعض الخلايا .. بزيادة جرعاتك الرياضية.

ضحكت وأنا أجيب :

- ومن قال بأنني أمارس الرياضة ؟

قالت :

- هذا ما تجهله ... ولكنه واقع فكريًا .

ابتعدت عنها وأنا أجيب :

- لن أسألك مرة أخرى حتى لا أصاب بالجنون.

سمعتها تجيب :

- هل لا تدري بأنك أصبحت في محيط الجنون ؟ ومع ذلك فأنت محط إعجابي

كان هذا أقسى رأي أسمعه مباشرة بما ينطوي عليه من تلويح عصابي يسكن عقلي الذي كنتأعتد به وأعول عليه دون تردد. وبهذا الانهيار/ الصدمة لم يعد أمامي سوى التفكير مجددًا بالنهج الذي أتبعه ... وأول الخطوات التي ينبغي أن أعيد النظر فيها هي: رصدي للأحداث بحيادية، ومواصلة تقربي من الهيفاء الواعية شمس .

تمت والحمد لله

إبراهيم الناصر الحميدان
في الرياض
1424/5/11 هـ
الموافق 2003/6/11 م

obeikandl.com